



ترجمة: جلال الدين سعيد
محمد محبوب

جان جاك روسو



مقالات

في العلوم والفنون
في الاقتصاد السياسي
في أصل اللغات



جان جاك روسو

مقالات

جان جاك روسو

مقالات

في العلوم والفنون
في الاقتصاد السياسي
في أصل اللغات

ترجمة ومراجعة

جلال الدين سعيد - محمد محجوب



مقالات

Jean-Jacques Rousseau
Dicours sur les sciences et les arts
Discours sur l'économie politique
Essai sur l'origine des langues

تاريخ الطبعة: 2017م
رقم الطبعة: الثانية
التصنيف الموضوعي: 170
الترقيم الدولي: 2-35-8030-614-978

تأليف: جان جاك روسو
ترجمة: جلال الدين سعيد-محمد محبوب
عدد الصفحات: 184
قياس الصفحة: 24X17 سم

جميع الحقوق محفوظة

وزارة
الشؤون الثقافية
معهد تونس للترجمة
37، شارع الحرية - 1002 - تونس
هاتف: +216 71833153
+216 71833179
فاكس: +216 71833073
Email: tarjamah@itrat.nat.tn
www.itrat.nat.tn

مؤسسة مؤمنون بلا حدود
للدراسات والأبحاث
المملكة المغربية - الرباط - أكادال
تقاطع زنقة بهت وشارع فال ولد عمير
ص.ب 10569
هاتف: +212 537779954
فاكس: +212 537778827
Email: info@mominoun.com
www.mominoun.com

مؤمنون بلا حدود
للنشر والتوزيع
لبنان - بيروت
الحمرأ - شارع المقدسي - بناء بليسي
ص.ب 6306-113
هاتف: +961 1747422
فاكس: +961 1747433
Email: publishing@mominoun.com
www.mominoun.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي الجهة الناشرة



توطئة

في شهر أكتوبر من سنة 1749، بينما كان «روسو» في طريقه إلى «يدرو» لزيارته في السجن، أطلع في صحيفة مركير دي فرانس (Le Mercure de France) على مناظرة أقامتها أكاديمية ديجون هذا نصّها : هل ساعد النهوض بالعلوم والفنون على تهذيب الأخلاق ؟ فانتابه حماس شديد وأقرّ العزم على المشاركة بمقال قدّمه للأكاديمية في مارس 1950، وفاز بالجائزة في جويلية 1750، ثم تمّ نشر المقال في شهر جانفي من سنة 1751.

ويتمحور طرح «روسو» في هذا المقال، كما تتمحور أعماله عموماً، حول فكرة الفساد الذي أصاب الطبيعة الإنسانية بسبب الحضارة والتقدّم. وليس المقال في العلوم والفنون مجرد دراسة فلسفية تحليلية بقدر ما هو دعوى شديدة اللهجة أقامها صاحبها ضدّ الحضارة وضدّ التقدّم. فالعلوم والفنون لم تسهم في سعادة الإنسان بقدر ما أسهمت في أحزانه وشقائه وتعاسته. اللهمّ إلا إذا كنّا نرى السعادة في الرخاء والرفاه، والحال أنّ الرخاء والرفاه لا يحقّقان السعادة إلّا في الظاهر، بل هما يشوّهانها ويزيفانها، باعتبار أنّ سعادة الكائن إنّما تكمن في كماله، وكمالها إنّما هو في تحقيقه لطبيعته وكيانه.

وفي مقاله هذا، يبيّن «روسو» أنّ ما أطلقت عليه أنوار القرن الثامن عشر اسم التقدّم لا يعدو في الحقيقة أن يكون انحطاطاً عن الطبيعة الإنسانية الأولى. وهاهنا يقف «روسو» ضدّ تيار أصبح مألوفاً في عصره : فالموسوعيون وغيرهم من الفلاسفة والأدباء والفنّانين وحتى رجالات الدّين قد رسخت في أذهانهم فكرة التقدّم بما هو السبيل الوحيد إلى إسعاد الإنسان، بينما لا ينفكّ «روسو»

يؤكد على التناقض القائم بين السعادة والتقدم، وعلى معارضة الثقافة والحضارة والتقدم للطبيعة عموماً ولطبيعة الإنسان وفضيلته بوجه خاص. ولقد اعتمد «روسو»، في مواجهته لفكرة التقدم المفعمة بالتفاؤل وكما روجها فلاسفة الأنوار، حججاً استمدّها من التاريخ عموماً: تاريخ روما وأثينا العريقتين، وتاريخ الصين والقسطنطينية وبلاد فارس، إلخ؛ وحججاً أخرى استخلصها من العقل المبين: ما للعلوم والفنون من استتباغات وخيمة على حياة الإنسان، من هدرٍ لطاقاته وأوقاته في نشاطات غير نافعة، ومن تميعٍ لقدراته ومجهوداته بسبب الفراغ والترف، ومن إفسادٍ لمختلف فضائل طبيعته الأصلية.

بيد أنّ «روسو»، على الرغم من موقفه من العلوم والفنون، لم يفكر في إلغائها أبداً ولا في إنكار ما أسهمت به في بناء مجتمع الإنسان. قال صاحبنا متحدّثاً عن نفسه في كتابه روسو حاكماً على جان جاك: «لقد أصرّوا على اتّهامه بالسعي إلى تحطيم العلوم والفنون والمسارح والأكاديميات والنكوص بالعالم كلّهُ إلى حالة التوحّش الأولى، والحال أنّه، على العكس من ذلك، ما فتئ يؤكد على ضرورة المحافظة على المؤسسات القائمة، لأنّ تحطيمها قد يزيل المسكّنات ولا يقضي على العيوب، وقد يزيل الفساد ويعوّضه بالخصوصية»¹. ولهذا نجده يُنهي مقاله بنبرة لا تخلو من الأمل والتفاؤل، إذ يرى أنّ القضاء على العيوب المترتبة عن العلوم والفنون، أو على الأقل الوقوف دون استمرار هذه العيوب وتفاقمها، أمر جائز إذا ما تكفّلت الأكاديميات العلمية والأدبية، الآخذة في الازدهار في عصره، بدور المراقب المنظم والموجّه للإنتاجات العلمية والأدبية والفنية، كي تؤتي ثمارها حقاً وكيلا تؤذي بعض ثمارها الفاسدة العقّة والفضيلة.

* * *

حين توثقت أواصر الصداقة بين «روسو» و«ديدرو»، طلب منه هذا الأخير أن يُسهم في الموسوعة، التي كان يشرف على إعدادها بالاشتراك مع «المبير»، ببعض المقالات في الموسيقى، فاستجاب لطلبه وأسهم أيضاً

J.- J. Rousseau, Rousseau juge de Jean-Jacques, 3^{ème} dialogue. -1

بمقال عن الاقتصاد السياسي ألفه وقدمه سنة 1755 وتم نشره في المجلد الخامس من الموسوعة.

ولقد بدا هذا المقال في الأول غريبا عن اهتمامات «روسو» الرئيسية وواقعا تحت تأثير «يدرو»، فتم إغفاله طويلا، رغم الفائدة الجمة التي يمكن استخلاصها منه، باعتبار ما يتطرق إليه من عناصر جوهرية في مذهب «روسو» عموما. ففيه نجد ركيزتين أساسيتين من ركائز فكر «روسو»، هما فكرة الإرادة العامة (La volonté générale)، وفكرة الحكم والتدبير (Le gouvernement) التي ينبغي تمييزها عن فكرة السيادة (La souveraineté). وفضلا عن نشوء فكرة الإرادة العامة وتكونها لدى «روسو»، يقدم هذا المقال تصوّرًا دقيقًا وفهماً مميّزا للاقتصاد السياسي، في سياق الجدل الذي كان قائما في القرن الثامن عشر، ولا سيّما على إثر ما شهدته فرنسا من هيجان وشغب بسبب ارتفاع أسعار القمح وما ترتّب عنه من ارتفاع مشطّ للضرائب. وقد لا نبتعد عن الصواب إذا أكّدنا على راهنية هذا المقال، باعتبار العلاقة التي أثبتتها «روسو» بين تدبير الأشياء وتدبير الناس، كالعلاقة مثلا بين التربية العمومية أو الحميّة الوطنية من جهة، والملكية الفردية ورفع الضرائب من جهة ثانية.

اعتمدنا في ترجمة هذين المقالين على طبعات مختلفة، لكن المصدر الأساسي لأعمال «روسو» الكاملة هو طبعة غاليمار، مكتبة لابلير، حيث توجد كتابات «روسو» السياسية في المجلد الثالث من هذه الطبعة :

Jean-Jacques Rousseau, *Cœuvres complètes*, 5 tomes, Paris, Gallimard, Bibliothèque de la Pléiade, de 1959 à 1995.

ولقد ميّزنا في المقال حول العلوم والفنون بين هوامش المؤلف وهوامشنا الخاصة. أمّا المقال في الاقتصاد السياسي فهو أمشه كلّها من وضعنا.

جلال الدين سعيد

ج. ج. روسو

مقال في العلوم والفنون

ترجمة : جلال الدين سعيد

جان جاك روسو

المقال الفائز بالجائزة

بمجمع ديجون

عام 1750

حول المسألة التي طرحها المجمع ذاته :

عما إذا كان النهوض بالعلوم والفنون قد ساعد على تهذيب الأخلاق.

*Barbarus hic ego sum quia non intelligor illis, Ovid.*¹

1- «وہا مہنا أوصفُ بالمتوحش، لأنَّ أحدًا لا يفہمني»: هذه الشاهدة مأخوذة من كتاب الأحران للشاعر اللاتيني أوفيد، (عاش من 43 ق.م. إلى 17 ب.م.)، (10 Elégie, Livre 5, Ovide, Tristes) (المترجم).

تنبيه

ما هي الشهرة ؟ ها هو الكتاب المشؤوم الذي أدين له بها ؛ ولا شك أن هذه الورقة التي أكسبتني جائزة وأذاعت صيتي إنما هي في أحسن الأحوال رديئة، بل لا أخشى أن أقول إنها دون ما يوجد في كامل هذا المصنف. كم من المصائب والبلاوي كان بوسع المؤلف أن يتجنبها لو قبل تأليفه هذا الأول بقدر ما يستحق ليس أكثر ؟ لكن كُتب لي، بعد خطوة غير مستحقة، أن أصبح مستهدفا تدريجيا بقسوة غير مستحقة هي الأخرى.

توطئة

هاهي مسألة من أعظم المسائل المطروحة وأجملها. فالأمر لا يتعلق في هذا المقال بتلك الدقائق الميتافيزيقية التي تكتسح كل أقسام الأدب ولا تخلو منها برامج المجمع دائما؛ بل يتعلق بإحدى الحقائق المرتبطة بسعادة الجنس البشري.

أتوقع أنّ الموقف الذي تجرّأت على أخذه لن يُغفر لي بسهولة؛ إذ بعدما جابهت كلّ ما يُعجب له الناس اليوم، ما بقي لي إلا أن أترقّب توييخا عاقما. وإنّ ما لقيته لدى بعض الحكماء من كرم المساندة لا ينبغي أن يجعلني أعوّل على موافقة الجمهور لي. ولذا فقد قرّرتاري: فأنا لا أعبأ بنيل إعجاب ذوي العقول الظريفة ولا ذوي الأذواق المطابقة لذوق العصر. فالعصور كلّها تشهد أناسا تغريهم آراء عصرهم وبلدهم ومجتمعهم؛ وقد ترى بعضهم يتفلسف اليوم ويتبجح بفكره العميق، بينما لو كان في زمن العُصبة¹ لاعتُبر لهذا السبب بالذات مجرّد متزمت عنيد. لا يجب أن نكتب لمثل هؤلاء القراء أبدا إذا كتّا نبغي العيش فيما بعد عصرنا.

كلمة أخرى وأنتهي. فبما أنّ أملي لم يكن عظيما في نيل هذا الشرف، فإنّي بعدما أرسلتُ هذا المقال أعدتُ كتابته وأضفت إليه، حتى أنّه أصبح بوجه ما عبارة عن كتاب آخر؛ ورأيت أنّه من واجبي اليوم أن

La Ligue -1 : تُسمّى أيضا اللّعبة الكاثوليكية أو اللّعبة المقدّسة، وهي جماعة من الكاثوليكين تكوّنت سنة 1576 وأنّست حزبا متطرّفا يرمي قبل كلّ شيء إلى محاربة البروتستانتية والقضاء عليها. (المترجم)

جان جاڪ روسو

أعيدہ إلى الحالة التي كان عليها لما فاز بالجائزة. لقد ألحقت به فقط بعض الملاحظات، كما تركت إضافتين يسهل تبيينهما، لعلّ المجمع كان سيرفضهما لو اطلع عليهما. رأيت أنّ هذا التنبيه يطلبه مني الإنصاف والاحترام والامتنان.

المقال

Decipimur specie recti¹.

هل ساهم النهوض بالعلوم والفنون في تهذيب الأخلاق أم في إفسادها؟ هذا هو المطلوب تأمله. فما هو الموقف الذي ينبغي أن آتخذه في هذه المسألة؟ إنّه، يا سادتي، موقف الرجل الصالح الذي لئن قلّ علمه فإنّه لم يقلّ مع ذلك اعتباره لنفسه.

سيكون من الصعب، هذا ما أشعر به، أن ألائم بين رأيي ورأي المحكمة التي أمثل أمامها. إذ كيف أجروّ على شجب العلوم أمام أحد أكثر المجامع علمًا في أوروبا، وعلى امتداح الجهل وسط مجمع مرموق، وعلى التوفيق بين ازدراء الدراسة من جهة وإجلال العلماء الحقيقيين من جهة ثانية؟ لقد انتبهت إلى هذه التناقضات، إلّا أنّها لم تحبطني، إذ قلت في نفسي: إنّ ما أفعله ليس التنكيل بالعلم، بل هو الذود عن الفضيلة بمحضّر أناس فضلاء. فالنزاهة أعزّ عند الرجال الصالحين من سعة العلم عند الحكماء. فما الذي سأخشاه إذن؟ أهى أنوار المجلس الذي يصغي إليّ؟ بلى؛ لكن ما أخشاه يتعلّق بتركيب الخطاب، وليس بمشاعر الخطيب. فالملوك العادلون لم يترددوا أبداً في التكفير عن ذنوبهم على إثر مناقشات مربية؛ وإنّ أفضل وضع لبروز الحقّ هو عندما يدافع المرء عن نفسه ضدّ خصم نزيه مستتير، يكون هو الحاكم والخصم.

1- «قد يفرّنا ما يظهر بمظهر الخير»: هذه قولة مأثورة للشاعر اللاتيني «هوراسيوس» (عاش من 65 ق.م إلى 8 ق.م)، مأخوذة من كتابه فنّ الشعر، البيت 25 (Horace, Art poétique, vers 25) (المترجم).

جان جاك روسو

وفضلاً عن هذا الباعث الذي يشجّعني، ثمة عامل آخر يعقد عزمي: إذ بعدما عهدت الأمر إلى نور عقلي الطبيعي وانتصرت للحقيقة، فمهما كانت درجة نجاحي سيُكتب لي الفوز بجائزة، وسأجدها في صميم فؤادي.

الباب الأول

إنّه لمشهد جميل وعظيم، مشهد الإنسان وهو يتخرّج من العدم بفضل مجهوده الشخصي؛ ويبدّد بتور عقله الظلمات التي لفتته بها الطبيعة؛ ويرتقي فيتجاوز ذاته؛ ويندفع بفكره حتى المناطق السماوية؛ ويخترق بخطى عملاقة، كالشمس، فضاء الكون الشاسع؛ ويعود إلى ذاته، وهو أمر أعظم وأصعب، ليدرس الإنسان ويعرف طبيعته وواجباته وغايته. إنّ كلّ هذه الروائع قد تجددت منذ أجيال قليلة.

فأوروبا قد انتكست وعاودها توخّش العصور البدائية. وكانت شعوب هذا الجزء من العالم، المستنير اليوم غاية الاستنارة، تعيش حالة أدهى من الجهالة. لا أدري أي رطانة علميّة، مقرفة أكثر من الجهالة نفسها، انتحلت اسم المعرفة ورفعت أمام عودتها حاجزا يكاد يكون منيعا. كان لا بدّ من ثورة كي يعود الناس إلى المعنى الشائع؛ وجاءت الثورة أخيرا من حيث لم تكن تُرتقب بالمرّة. فالمُسلم الأحق، ذلك الآفة المزمّنة للآداب، هو الذي أنهضها بيننا مجدّدا. وإنّ سقوط عرش قنسطنطين¹ قد حمل إلى إيطاليا حطام يونان القديمة. وبدورها استثمرت فرنسا تلك الغنائم النفيسة. وسرعان ما نسجت العلوم على منوال الآداب؛ فاقترن فنّ التفكير بفنّ الكتابة؛ وهذا التدرّج في ظاهره غريب، لكن لعلّه طبيعي جدّا؛ ثم استشعرت الفائدة

1-Constantin: «قنسطنطين الأول»، (27 فيفري 272 – 22 ماي 337) هو إمبراطور روماني يُعرف أيضا باسم قنسطنطين العظيم. ولقد مثّل حكمه نقطة تحوّل في تاريخ المسيحية، إذ أصدر عام 313 مرسوم ميلانو الذي أعلن فيه إلغاء العقوبات المفروضة على من يعتنق المسيحية وبذلك أنهى فترة اضطهاد المسيحيين؛ كما يُعتبر قنسطنطين أوّل إمبراطور روماني اعتنق الديانة المسيحية. (المترجم)

الرئيسية التي يمكن جنيتها من مخالطة ربّات الفنّ، إذ تجعل الناس أكثر أنسا وألفة، وتبعث فيهم الرغبة في التودّد بعضهم إلى بعض بأعمال جديدة باستحسانهم المتبادل.

للفكر حاجاته، كما للجسد. فحاجات الجسد هي أسس المجتمع، وحاجات الفكر هي مباهجه. وبينما تسهر السلطة الحاكمة وتسهر والقوانين على أمن الناس المجتمعين ورفاههم، فإنّ العلوم والآداب والفنون، إذ هي أقلّ استبدادا وربّما أكثر قدرة، تنشر أكاليل من الزهور على القيود الحديدية التي تكبلهم، وتقتل فيهم الشعور بالحرية الأصلية التي كان يبدو أنّهم ولدوا من أجلها، وتجعلهم يعشقون عبوديتهم وتؤلّف منهم ما يُسمّى شعوباً متحضّرة. على الحاجة قامت العروش، وأما الفنون والعلوم فهي التي دعتّها. أيا سلاطين الأرض، أحبّوا المواهب واحموا من يدعمها؛ أيّها الشعوب المتحضّرة، اصقلها أنت؛ ويا معشر العبيد السعداء، أنتم مدينون لها بذلك الذوق الرفيع المرهف الذي به تفخرون، وبذلك الطبع اللطيف وتلك الأخلاق المهدّبة التي تجعل التعامل بينكم في غاية المرونة واليسر؛ وباختصار، بما تبدوونه من مظاهر الفضيلة وأنتم لا تملكون منها شيئا.

فهذا النوع من الأدب، إذ يكون محمودا بقدر ما يكون محتشما، تميّزت أثينا وروما فيما مضى، أيام عظمتها ومآثرهما المنشودة؛ ولا شكّ أنّه هو الذي سيجعل عصرنا وأمتنا يتفوّقان على كلّ العصور وكلّ الشعوب. نبرة فلسفية خالية من التحذلق، أسلوبٌ طبيعي ولكن ودود، على مسافة واحدة من خشونة الجرمانيين ومن إيمائية سكّان ما وراء جبال الألب²؛ تلك هي ثمار الذوق المكتسب بالدراسة الموقفة والمكتمل بمخالطة الناس.

1- يطيب للأمرء دائما أن يروا الفنون الممتعة والسفاسف غير المكلفة للمال تنتشر بين رعاياهم؛ إذ فضلا عن تنشئتهم هكذا على دناءة جذرية بالعبيد، فهم يعلمون جيّدا أنّ الرعايا كلما عظمت حاجياتهم، عظمت القيود التي تكبلهم. فلما أراد الإسكندر، إبقاء أكلة الحوت تحت سيطرته، منعهم من الصيد في البحر وأرغمهم على تناول الأطعمة المألوفة لدى عامة الشعوب؛ أما شعوب أمريكا المتوحشة، إذ كانت تسير عارية ولا تقتات إلّا ممّا يوفّره لها صيدها، فإنّ أحدا لم يستطع إخضاعها أبدا، إذ أيّ قيد سقيّده به أناسا لا حاجة لهم إطلاقا؟

2- المقصود بهم الإيطاليون. (المترجم)

مقال في العلوم والفنون

كم يكون العيش بيننا هنيئاً، لو كانت الهيئة الخارجية تعكس دائماً استعدادات القلب، والحياء هو الفضيلة، ومبادئنا هي قواعد أعمالنا، والفلسفة الحق لا تنفصل عن لقب الفيلسوف. إلاّ أنّه يندر جدّاً أن تجتمع خصال كهذه معاً، كما أنّ الفضيلة لا تظهر أبداً بمثل هذه الأبهة، فثراء الزينة قد يدلّ على يُسر حال الإنسان، وأناقته على رفعة ذوقه؛ أمّا الإنسان السليم القوي البنية فتتعرّف عليه بعلامات أخرى: إنّ قوّة الجسد وشدّته تكمنان تحت ملابس الحرّاث الخشنة، وليس تحت حلّي أهل البلاط. وليست الزينة أقلّ بُعداً عن الفضيلة بما هي قوّة النفس ورباطة الجأش؛ فالرجل الصالح شأنه شأن لاعب القوى الذي يحبّذ أن يصارع عارياً: إنّهُ يزدرى مظاهر الزينة الحقيرة تلك التي قد تعوق استخدامه لقواه، والتي لم يقع اختراع أغلبها إلاّ لإخفاء تشوّه ما.

قبل أن يهذب الفنّ سلوكنا وأنّ يعلم أهواءنا التعبير بلغة متصنّعة، كانت أخلاقنا خشنة، ولكّنها كانت طبيعية؛ وكان اختلاف الطرائق يشير مباشرة إلى اختلاف الطبائع. وفي واقع الأمر، لم تكن طبيعة الإنسان طبيعة أفضل؛ غير أنّ الناس كانوا يشعرون بالأمان في سهولة التعارف والتخاطب، وكانت هذه الميزة، التي لم نعد نشعر بقيمتها، تجنّبهم الكثير من الرذائل.

اليوم وقد تمّ اختزال فنّ الكياسة في جملة من المبادئ، بفضل بحوث أدقّ وذوق أرفع، أضحت أخلاقنا متماثلة بصورة خداعة دنيئة، وتبدو الأذهان كلّها كأنّها رُميت في قالب واحد: فمتطلبات الأدب لا تنتهي، وأوامر اللياقة لا تنقطع؛ ولا ينفك المرء ينصاع للمألوف، بدل اتّباع نبوغه الشخصي؛ إنّهُ لا يجرؤ على الظهور بوجهه الحقيقي؛ وفي خضمّ هذا الضغط المستمرّ، ترى الناس، إذ يؤلّفون ذلك القطيع الذي يطلق عليه اسم المجتمع، كلّما وجدوا أنفسهم في نفس الظروف أقدموا على نفس السلوك، إلاّ إذا منعهم عوامل أقوى. وهكذا لن يدرك المرء حقّاً مع من يتعامل فيحتاج، كي يميّز صديقه، إلى انتظار المناسبات الكبرى، أي إلى انتظار فوات الأوان، لأنّ ما كان مطلوباً هو معرفته قبل هذه المناسبات بالذات.

أيّ موكب من الرذائل سيصحب حالة الارتياب هذه ؟ لم يُعد في الصداقة إخلاص، ولم يُعد يوجد تقدير حقيقي، ولا من هو جدير بالثقة. لن تنفك مشاعر الظنون والاستياء والخشية والبرودة والتحفظ والكراهة والخيانة تستر وراء لحاف التربية المتجانس الخداع، وراء الأدب والكياسة اللذين أنعمت علينا بهما أنوار عصرنا فطالما تفاخرنا. لم نعد نكفر بنعمة ربّ الكون بقدر ما أصبحنا نسبه سبّا، دون أن تنجرح بذلك آذاننا المصميخة الحائرة. لم نعد نفخر بقيمتنا الشخصية بقدر ما نسعى إلى الحطّ من قيمة غيرنا. ولم نعد نحتقر عدونا ونهينه بفضاظة بقدر ما نعتابه ونفترى عليه الكذب بمهارة. ولئن خدمت كراهيتنا القومية فقد حلّ محلّها حبّ الوطن. واحتقارنا للجهالة عوّضته ربيّة خطيرة. بعض التجاوزات حرّمت، وبعض الرذائل قُبّحت، لكن بعضها الآخر مُنح وسام الفضيلة؛ فلا مناص من اكتسابها أو تصنعها. فليمدح من أراد زهد حكماء الزمان، أمّا أنا فلا أرى في ذلك إلّا تفتّنا في الشراهة لا يستحقّ مديحي مثلما لا تستحقّه بساطتهم الخادعة¹.

هذا ما كسبته أخلاقنا من صفاء؛ وهكذا أصبحنا من الصالحين؛ وعلى الآداب والعلوم والفنون أن تطالب بما يعود لها فيما تمّ إنجازه من خلاص. أضيف فكرة واحدة: وهي أنّ الأجنبيّ الذي ينتمي إلى منطقة نائية ويريد أن يكون فكرة عن الطابع الأوروبية، حول مدى تقدّم العلوم في ربوعنا، وكمال فنوننا، ولياقة عروضنا، وكياسة سلوكنا، وحفاوة أحاديثنا، ودأبنا المستمرّ على إظهار اللطف في المعاملة، وذلك التزاحم الصاخب لكلّ من هبّ ودبّ من مختلف الأعمار والأحوال لإتيان المعروف إلى بعضهم بعضا من الفجر إلى الغروب، هذا الأجنبيّ سيلمح في طبائعنا تماما عكس ما هي عليه في الواقع.

حيث لا يوجد معلول، لا جدوى من البحث عن العلة؛ بيد أنّ المعلول هنا ثابت، والتفسّخ حقيقي، وأنفسنا ازدادت فسادا بقدر ما ازدادت علومنا وفنوننا

1- قال «متاني»: «أحبّ أن أجادل وأخاطب، لكن بحضور قلّة من الناس ووقوفاً على ما أريد؛ لأنّ الاستهداف لنظر الأكابر والتبجح بالذكاء والغطرسة، فهذا في رأيي شغل لا يليق برجل شريف». إنّه شغل كلّ أدبائنا الظرفاء، ما عدا واحدا.

مقال في العلوم والفنون

كمالاً. أيقول بعضهم إنها نكبة خاصة بعصرنا ؟ كلاً، يا سادتي؛ فالشروق الناجمة عن فضولنا الباطل إنما هي قديمة قدم العالم. إنّ الارتفاع اليومي لمياه البحر وانخفاضها لا يرتبطان بدوران الفلك الذي يضيئنا في الليل ارتباطاً أشدّ من ارتباط مصير الأخلاق والنزاهة بتقدّم العلوم والفنون. فكّما سطع نورهما في الأفق، شوهد أفول الفضيلة، ونفس الظاهرة تكررت في كلّ زمان وكلّ مكان.

انظروا إلى مصر، مدرسة الكون الأولى، هذا المناخ الخصيب تحت السماء الفولاذية، هذه المنطقة الشهيرة من حيث انطلق «سيزستريس»¹ قديماً لغزو العالم. فهي قد احتضنت الفلسفة والفنون الجميلة، فما لبثت أن تعرّضت لغزو «قمبيز»²، ثمّ لغزو اليونانيين، ثمّ الرومانيين، فالعرب، وأخيراً الأتراك.

انظروا إلى يونان، إذ كان يسكنها في القديم أبطال انتصروا على آسيا مرّتين، الأولى أمام طروادة والثانية في عقر ديارهم. فالآداب الناشئة لم تُدخل الفساد بعد في قلوب أهاليها؛ غير أنّه سرعان ما تتابع فيها عن قرب تقدّم الفنون، وانحلال الأخلاق، والخضوع لنير «المقدوني»³. تواصل العلم فيها، واستمرت شهواتها، وطالت عبوديتها، فلم تُعدّ ثوراتها أكثر من تغيير لأسيادها. ولم تفلح أبداً فصاحة «ديمستين»⁴ في إنعاش جسم أوهنته الفنون وأضعفه الترف.

1- «سيزستريس» Sésostris : أحد فراعنة مصر القديمة. (المترجم)

2- «قمبيز» Cambyse : أحد ملوك الإمبراطورية الفارسية (مات في 522 ق.م). اشتهر خاضة بغزوته لمصر. (المترجم)

3- «إسكندر المقدوني» Alexandre de Macédoine : (عاش من 356 ق.م. إلى 323 ق.م.) كان ملكاً للمقدونيا ولُقّب بـ«الإسكندر العظيم»؛ وهو أحد أشهر الغزاة الذين عرفهم التاريخ. (المترجم)

4- «ديمستين» Démosthène : (عاش من 384 ق.م. إلى 322 ق.م.) رجل سياسة أثيني، غير أنّه اشتهر كخطيب وعالم في البلاغة. (المترجم)

أما روما، وقد أُنسبها أحد الرعاة واشتهرت بالفلاحين، فقد بدأ انحطاطها أيام «إنيوس» و«تيرانس»¹. ولَمَّا جاء «أوفيد» و«كاتول» و«مارسيال»² وتلك الجماعة من المؤلفين الفاسقين الذين يكفي ذكر أسمائهم حتى يستنفر ذلك الحياء، أصبحت روما، بعدما كانت معبدا للفضيلة، مسرحا للجريمة ووصمة عار بين الأمم ولعبة في أيدي الأجانب المتوحشين. وأخيرا سقطت عاصمة العالم هذه تحت نير ما فرضته على الشعوب الأخرى منذ عقود، وكان سقوطها قبل يوم من فوز أحد مواطنيها بقلب الحكم للذوق السليم.

وماذا عساني أقول عن عاصمة الشرق تلك التي كادت بموضعها أن تصبح عاصمة للعالم بأسره، عن ذلك المأوى للعلوم والفنون المحظورة (لحكمة ما وليس ضربا في التوحش) في باقي أرجاء أوروبا. فكل ما في الفسق والفجور من خزي، وما في الخيانة والاغتيال ودس السموم من قذارة، وما في تفاقم الجرائم من بشاعة، كل ذلك إنما كان يؤلف النسيج التاريخي للقسطنطينية. تلك هي العين الصافية منبع الأنوار التي يفخر بها عصرنا.

لكن لَمَ البحث في غابر الزمان عن دلائل حقيقة ما تزال أماراتها أمام أعيننا. ففي آسيا يوجد قُطر شاسع حيث تحظى الآداب بشرف عظيم وتقود إلى أعلى المناصب في الدولة. فلو كانت العلوم تهذب الأخلاق، وتحض الناس على التضحية بدمائهم في سبيل الوطن، لو كانت تؤجج الشعور بالشجاعة، لكانت شعوب الصين شعوبا حكيمة حرة لا تُهزم. لكن لَمَّا لم يكن ثمة من رذيلة إلا وهي فيهم، ولَمَّا كانت الجرائم عندهم مألوفة، كما لم يقدر

1- «إنيوس» Ennius : (عاش من 239 ق. م. إلى 169 ق. م.) وُلد وعاش بإيطاليا، وبرع في اللغتين اليونانية واللاتينية. كان الشاعر الرسمي لمدينة روما، ويُنظر إليه على أنه رائد الشعر اللاتيني.

- «تيرانس» Terence : شاعر وكوميدي لاتيني، وُلد بقرطاج سنة 190 ق. م. وتوفي سنة 159 ق. م. كان عبدا لمستشار روماني أعجب بجماله ونبوغه فعلمه ورباه تربية إنسان حر ثم عتقه. (المترجم)

2- «أوفيد» Ovide : أحد أكبر الشعراء اللاتينيين، عاش من 43 ق. م. إلى 17 ب. م. له عدة مؤلفات، لعل أشهرها كتاب فنّ العشق Ars amatoria. (المترجم)

- «كاتول» Catulle : شاعر لاتيني وُلد سنة 87 ق. م. وتوفي بروما سنة 54 ق. م. كانت حياته حياة عشق وفجور وحب مثلي.

- «مارسيال» Martial : هو «ماركوس فاليريوس مارسيليس»، وهو شاعر لاتيني من أصل إسباني، عاش من 40 إلى 104 ب. م. (المترجم)

مقال في العلوم والفنون

لا علم الوزراء، ولا حكمة الشرائع المزعومة، ولا حشود المتساكين في تلك الربوع الشاسعة، على إقامة درع يحمي من نير التاري¹ الغليظ الجاهل، فبماذا أفادت تلك الإمبراطورية من علمائها؟ وأي ثمرة جنتها ممّا أغدقت عليهم من الأمجاد؟ أهو أنّها كانت موطناً للأشرار والعبيد؟

لنقابل هذه المشاهد بمشهد طبائع تلك الشعوب القليلة التي، إذ احتمت من عدوى المعارف الباطلة، نجحت بواسطة فضائلها في تحصيل السعادة وكانت قدوة للأمم الأخرى. هكذا كانت بلاد فارس في الأول، أمة فريدة من نوعها يتدرّب فيها المرء على كسب الفضيلة مثلما يتدرّب عندنا على كسب المعرفة؛ أمة سيطرت بغاية السهولة على آسيا، وكان لها وحدها الشرف في أنّ تاريخ مؤسّساتها إنّما كان عبارة عن رواية فلسفية. هكذا كان السيتيون² الذين وصلتنا عنهم مدائح رائعة. وهكذا كان الجرمانيون³، كما وصفهم صاحب قلم سثم من وصف جرائم وشناعات الشعوب المتعلّمة الغائرة في الرخاء والمتعة، فروّج عن نفسه برسم بساطتهم وبراءتهم وفضائلهم. وهكذا كانت روما حتى وقتما كانت جاهلة فقيرة. وهكذا بدت أخيراً، حتى أيّامنا هذه، تلك الأمة البدويّة التي كان لها من البأس ما جعلها تتحدّى الشدائد ومن الإخلاص ما جعلها تقاوم الفساد والانحلال⁴.

1- التار Les Tartares : اسم عام يطلق على شعوب اكتسحت أجزاء من آسيا وأوروبا بزعامة المغول في القرن الثالث عشر ميلادي. (المترجم)

2- السيتيون Les Scythes : شعوب رُحّل من أصل هندو- أوروبي عاشت فيما بين القرنين السابع ق.م. والثالث ق.م. (المترجم)

3- الجرمانيون Les Germains : شعوب هندو- أوروبية استقرت بداية من القرن الأول بعد المسيح في أوروبا الشمالية (إسكندنافيا وشمال ألمانيا) (المترجم)

4- أكاد لا أجرؤ على ذكر تلك الأقوام السعيدة التي لا تعرف حتّى بالإسم الرذائل التي كم يصعب علينا كبها، شعوب أمريكا المتوحشة تلك التي لم يتردّد «متناني» في تفضيل نظامها الطبيعي البسيط، لا فقط على قوانين «أفلاطون»، بل أيضاً على كلّ ما قد تتخلّله الفلسفة أبداً من نظام حكم كامل للشعوب. لقد ذكر عدداً من الأمثلة الهائلة لمن يقدر على تأملها؛ وقال: «بل ماذا! إنهم لا يحملون سراويل!»

فإن فضّلت هذه الأمم تمارين أخرى على تمارين الفكر، فإنّ ذلك لم يكن لغاوتها؛ إذ كانت على علم بوجود أقطار أخرى يسكنها أناس لا شغل لهم في حياتهم سوى التجادل حول الخير الأعظم، وحول الفضيلة والرذيلة، وأنّ بعض المتمخّكين المزهوّن كانوا لا ينفكّون يمدحون أنفسهم ويطلقون باحتقار على كافة الشعوب الأخرى اسم المتوحّشين. إلّا أنّ هذه الأمم أمعنت النظر في طبائعهم وتعوّدت على ازدراء مذهبهم¹.

وكيف أغفل عن ذكر تلك المدينة التي نشأت في صلب اليونان واشتهرت بجهلها السعيد بقدر ما اشتهرت بحكمة قوانينها، تلك الجمهورية الأهله بأنصاف الآلهة أكثر منها بالبشر، لفرط ما كانت فضائلها تبدو أرقى من فضائل الإنسانية؟ أيا اسبرطة! إنّما أنت إخزاء أبدئي لمذهب باطل! فبينما كانت الرذائل تتدفّ إلى أثينا وتدخلها معا بقيادة الفنون الجميلة، وبينما كان الطاغية يجمع فيها بغاية العناية مؤلّفات أمير الشعراء، كنتِ تقصين خارج جدرانك الفنون والفنانين، والعلوم والعلماء.

ما حدث كان علامة على هذا التباين. فأثينا قد أصبحت موطن اللياقة والأدب والذوق السليم، وبلد الفلاسفة والخطابين؛ كانت عماراتها الأنيقة تعكس أناقة لغتها؛ وكنت في كلّ جهة ترى الرخام وقماش الرّسم تُحييهما أيادي أمهر الأساتذة. إنّ تلك الأعمال المدهشة التي أصبحت نماذج لكلّ عصور الانحطاط إنّما كان مصدرها أثينا. أمّا مشهد لاكديمونيا² فقد كان أقلّ بريقا. فكما روي عنها، كان الناس فيها يولدون فضلاء، وكانت نسمة البلد ذاتها ملهمة للفضيلة. وإذ لم يصلنا عن سكّانها سوى ذكرى أعمالهم

1- لتحدّث بصدق، وليخبرني أحكم عن رأي الأثينيين أنفسهم في البلاغة لما أقصروها تماما من تلك المحكمة التزيهة التي كانت الآلهة نفسها لا تطعن في أحكامها؟ وماذا كان رأي الرومانيين في الطبّ لما منعه في جمهوريتهم؟ وكيف كان تصوّر الإسبانين لفقه القضاء لما أقدموا، بما تبقى من وازع الإنسانية عندهم، على منع رجال القانون من دخول أمريكا؟ لعلمهم ظنّوا بذلك إصلاح ما أمكن من الولايات التي ألحقوها بأولئك الهنود الأشقياء؟

2- لاكديمونيا Lacédémone : هي اسم آخر لإسبرطة، وكانت هي وأثينا من أعظم المدن السياسية في تاريخ يونان القديمة. (المترجم)

مقال في العلوم والفنون

البطولية، فهلاً تستحق مثل هذه المآثر في نظرنا ما يستحقه الرخام العجيب الذي تركته لنا أثينا؟

صحيح أنّ بعض الحكماء قاوموا التيار العام الجارف واحتموا من الرذيلة في محفل ربّات الفن؛ لكن لنستمع إلى الحكم الذي أطلقه أولهم وأشقاهم على العلماء والفنانين في عصره.

قال: «تفحصت الشعراء ورأيت فيهم أناساً أصحاب موهبة ووقار، يدعون الحكمة ويُنظر إليهم على أنّهم حكماء، وهم في ذلك جاذون.»

«ومن الشعراء، فيما استطرد «سقراط»، انتقلتُ إلى الفنانين. فلا أحد كان جاهلاً للفنّ جهلي أنا؛ ولا أحد كان مقتنعاً قناعتي أنا من امتلاك الفنانين لأسرار جميلة للغاية. لكن تبيّنتُ أنّهم ليسوا أفضل وضعاً من الشعراء، وأنهم يقعون جميعاً في نفس الأحكام المسبقة. إذ لمّا كان أكثرهم مهارة يتفوّقون في اختصاصهم، كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر الناس حكمة. ولقد ثلم هذا الادّعاء علمهم تماماً في نظري؛ بحيث تصوّرت نفسي مكان الكاهن وتساءلت عن أفضل وضع أرغبه، أهو وضعي أم وضعهم، أهو أن أعلم ما تعلّموه أم أن أعلم أنّي لا أعلم شيئاً؛ أجبتُ نفسي وأجبتُ الإله فقلت: أريد أن أبقى أنا بحالي.

إنّني لا أعلم، ولا السوفسطائيون يعلمون، ولا الشعراء، ولا الخطابيون، ولا الفنّانون ما هو الحق والخير والجميل. لكن يوجد بيننا فرق، وهو أنّ هؤلاء، رغم أنّهم لا يعلمون، إلّا أنّهم يظنون كلّهم أنّهم يعلمون؛ بينما أنا، إذ لا أعلم شيئاً، فإنّني على الأقلّ واثق من ذلك. بحيث إنّ كلّ ما نسبته لي الكاهن من تفوّق في الحكمة إنّما يتمثّل في الاقتناع فقط بأنّي أجهلُ ما لا أعلمه.»

هاهو إذاً أعظم الناس حكمة في نظر الآلهة، وأشدّ الأثينيين رسوخاً في العلم في اعتقاد بلاد يونان قاطبة، هاهو ذا «سقراط»، بصدّد تقيظ الجهل! أتظنون أنّه لو بُعث من بين الأموات سينجح علماؤنا وفنانونا في تغيير رأيه؟ كلا يا سادتي، فهذا الرجل السديد لن يكفّ عن احتقار علومنا الباطلة، ولن

يساعد على تفاقم ذلك الحشد من الكتب التي تغمرنا من كل جانب، ولن يترك، هذا ما فعل، أيّ قاعدة لتلاميذه ولأحفادنا¹ غير فضيلته الشخصية أسوة وذكرى. هكذا يكون تعليم الناشئة أمراً جميلاً!

كانت البداية مع «سقراط» في أثينا؛ ثم واصل الشيخ «كاتون»² سوريته في روما ضدّ أولئك اليونانيين الماكريين المتحذلقين الذين أغروا الفضيلة وأخمدوا همّة مواطنيه. ومع ذلك فإنّ العلوم والفنون والجدل ما انفكت تسود؛ إذ غصّت روما بالفلاسفة والخطابين، وأهمل الميدان العسكري، وحُقرت الفلاحة، وتشبّع الناس للطوائف وغفلوا عن الوطن. وعقب المعاني المقدّسة للحرية والنزاهة وطاعة القوانين، جاءت أسماء «أبيقور» و«زنون» و«أرسزِيلاس». كان فلاسفتهم أنفسهم يقولون: مذْ طهر العلماء بيتنا، اختفى الرجال الصالحون. فحتّى ذلك العصر، اقتصر الرومانيون على ممارسة الفضيلة؛ ثم خسروا كلّ شيء يوم شرعوا في دراستها.

أيّا «فابريسيوس»³! ماذا عسى أن يخطر بروحك النبيلة لو بُعثت، لسوء حظّك، وشاهدت ما أصبح لروما من أبْهة وبذخ، بعدما أنقذتها بساعدك وأكسبتها بشرف اسمك من الشهرة أكثر ممّا كسبته بكلّ غزواتها؟ إذن لقلت: «إلاهي! أين هي سقوف القشّ تلك والأكواخ تلك حيث كان الاعتدال يقطن في الماضي وتسكن الفضيلة؟ أيّ رونق نحس حلّ محلّ البساطة الرومانية؟ أيّ لغة غريبة هذه؟ أيّ طبائع متخنّئة هذه؟ ماذا تعني تلك التماثيل واللّوحات والعمارات؟ ماذا فعلتم، أيّها الأشقياء؟ أبعداً كنتم أسياداً على الأمم، جعلتم أنفسكم عبيداً للتافهين الذين قهرتم؟

1- نترجم كلمة Neveux بأحفاد (وليس بأبناء الأخ أو الأخت)، لأنّ هذا المعنى هو المقصود في اللغة الأدبية الكلاسيكية، وهو معنى متروك. (المترجم)

2- كاتون، Caton: رجلٌ دولة وكاتب روماني، عاش من 234 ق.م. إلى 149 ق.م.؛ شغل خطة مراقب عام سنة 184 ق.م. وكان جاداً وقاسياً حتّى أنّه رُفِعَ له تمثال نُقش عليه: «إلى «كاتون»، الذي هدّب الأخلاق». (المترجم)

3- «فابريسيوس» Fabricius: هو «كاْيوس فابريسيوس لوسينوس»؛ عاش في القرن الثالث ق.م.، وهو جنرال روماني اشتهر بفقره وسطّفه وعيشه وزهده في الهدايا والثروات؛ ولقد ألّف «بلوتارخوس» (Plutarque) كتاباً عن حياته. (المترجم)

مقال في العلوم والفنون

أحكمكم علماء البيان ؟ أسقيتم بدمائكم أراضي يونان وآسيا إثراء للمهندسين المعماريين ولرسمائين والنحاتين والممثلين البهلوانيين ؟ أغنائكم قرطاج هي فريسة عازف مزمارة ؟ أيها الرومانيون، أسرعوا بتهشيم تلك المدرجات ؛ حطموا ذلك الرخام ؛ أحرقوا تلك اللوحات ؛ أطرّدوا أولئك العبيد الذين فتنوكم وبفنونهم المشؤومة أفسدوكم. دعوا المواهب الباطلة بين أيادي أخرى ؛ فالموهبة الوحيدة التي تجدر بروما إنما هي غزو العالم ونشر الفضيلة. لمّا ظنّ «سينياس»¹ أنّ مجلس شيوخنا هو مجلس ملوك، لم يكن ذلك جزاء انهياره بالفخفخة الجوفاء ولا الأناقة المصطنعة. إنّه لم ينتصت قطّ إلى ترهات الفصاحة تلك التي كان يتعلّمها ويتباهى بها التافهون من الناس. فماذا شاهد إذا «سينياس» من أمر عظيم ؟ أيّها المواطنون ! إنّه رأى مشهداً يتعذّر على ثرواتهم وعلى فنونكم كلّها أن تقدّمه؛ إنّه أجمل مشهد ظهر على البسيطة، مجلس مائتين من الرجال الفاضلين الجديرين برئاسة روما والحكم في الأرض».

لكن لتتخطّ مسافة المكان والزمان، ولتأمل فيما حصل بأقطارنا وتحت أنظارنا؛ أو بالأحرى، لتبتعد عنّا رسوماً قبيحة قد تؤذي رقبتنا، ولا نكفّ أنفسنا مشقة تكرار نفس الأشياء بعناوين مختلفة. إنّي لم أستحضر روح «فابريسيوس» عبثاً؛ فماذا قولته، هذا الرجل العظيم، ممّا لا أستطيع أن أقوله لدلويس الثاني عشر، أو هنري الرابع، ؟ صحيح أنّ «سقراط»، لو كان يعيش بيننا، لما شرب سمّ الشوكران؛ لكن لشرب، في كأس أمرّ، السخرية المهينة واحتقاراً أسوأ من الموت أضعاف المرات.

هكذا كان الترف والانحلال والعبودية، في كلّ زمان، جزاء للمجهود المزهو الذي قمنا به للخروج من الجهل السعيد الذي منّت به علينا الحكمة الأزلية. ولعلّ الستار السميك الذي أسدلته على كلّ أعمالها كان لغاية إعلامنا بأنّ قدرنا ليس في تعاطي البحوث العقيمة. لكن هيهات! فهل استفدنا من درس من دروسها، أو أهملنا بعضها وسلمنا من مغبة العقاب ؟ أيا شعوب، أعلم مرة واحدة أنّ الطبيعة أرادت أن تحفظكم من العلم،

1- «سينياس» Cynéas : كان مستشاراً للملك «بيروس» (Pyrrhus) 272-318 ق.م. (المترجم)

جان جاك روسو

كالآثم التي تفتك من يدي ابنها سلاحا خطيرا؛ وأن كل ما تخفيه من الأسرار إنما هي شرور تصونكم منها؛ وأن المشقة التي تجدونها في طلب العلم ليست من أقل حسناتها. إن الناس ضالون، فلو ولدوا لسوء حظهم علماء، لكانوا أكثر ضلالا.

يا لها من أفكار مخزية للإنسانية! يا خيبة كبريائنا! عجباً! أتكون النزاهة ابنة الجهل؟ أوجد تنافر بين العلم والفضيلة؟ ماذا عسانا نستتج من هذه الأحكام المسبقة؟ لكن يكفي، للحد من هذا التعارض الظاهري، أن نتأمل عن كثب تفاهة وخواء تلك العناوين الفخمة التي تبهرنا، والتي نمنحها جزافا للمعارف الإنسانية. لتأمل العلوم والفنون في ذاتها، ولتبتين ما يترتب على تقدمها، ولنعزم على الأخذ بكل الأمور التي نرى فيها تطابقا بين ما نستدل عليه وما يُستقرأ من التاريخ.

الباب الثاني

هناك رواية قديمة انتقلت من مصر إلى اليونان، تقول إنّ إلهاً عدواً للراحة التّاس هو مَنْ أبدع العلوم¹. فماذا كان رأي المصريين أنفسهم في العلوم، إذ نشأت عندهم، سيّما أنّهم كانوا يطلّون من قرب على الينابيع التي أنتجتها؟ فسواء تصفّحنا حوليّات العالم أو استعضنا عن الأخبار المشبوهة بالبحث الفلسفي، لن نجد للمعارف الإنسانية المصدر الذي نتظره والذي يحلو لنا تصوّره. فعلم الفلك إنّما نشأ من الخرافة؛ والفصاحة نشأت من الطموح والكراهية والتملّق والكذب؛ والهندسة من البخل؛ والفيزياء من الفضول التافه؛ والعلوم كلّها، وحتى الأخلاق، من كبرياء الإنسان. وعليه فإنّ العلوم والفنون تدين بنشأتها لرذائلنا؛ فلو كانت تدين لفضائلنا، لما تشكّكنا بهذا القدر فيما لها من الفوائد.

وإنّ عيب مصدرها قد ترك أثراً بليغاً في موضوعاتها. فماذا نفعل بالفنون، من غير الترف الذي يغذيها؟ ومن غير ظلم التّاس، فيم يفيد القضاء؟ وماذا عسى أن يصبح التاريخ، لو لم يوجد لا طغاة ولا حروب ولا متأمرون؟ وباختصار، من سيفني حياته في التأمّل العقيم، لو كان كلّ واحد لا يأتمر إلّا بواجبات الإنسان وطلبات الطبيعة، فلا يجد وقتاً لغير الوطن ولغير الأشقياء ولغير أصدقائه؟ فهل قُضي علينا بالموت مقّدين على شفة البئر حيث

1- سهل إدراك رمز أمثولة «برومثيوس»؛ ويبدو أنّ اليونانيين، إذ سمّوه في القوقاز، لم يكن لديهم عنه فكرة أفضل ممّا كان للمصريين عن إلههم توتوس. تقول أسطورة قديمة: «أراد الستير ضمّ التّار وتقبلها عند رؤيته لها أوّل مرّة؛ لكن ناداه «برومثيوس» محدّراً: أيّها الستير، ستبكي ضياع لحيّة ذنكك، لأنّ التّار إذا لمستها حرقتك». إنّ موضوع زخرف مدخل البناء.

انسحبت الحقيقة ؟ إن مجرد هذه الفكرة ينبغي أن تُخمد، من الوهلة الأولى،
همة كل من يدأب على طلب العلم بتعاطي الفلسفة.

كم من المخاطر! كم من السبل الباطلة في تقصّي العلم ! كم من
الأخطاء ينبغي تخطيها لبلوغ الحقيقة، أخطاء أخطر ألف مرة مما تكون
الحقيقة مفيدة ! فالخسارة واضحة؛ لأنّ الخطأ قابل لتركيبات لا محدودة؛
أمّا الحقيقة فوجه كيانها واحد. ثم من ذا الذي يبحث عنها بصدق ؟ وحتى
إن كان حازماً في بحثه أيّما حزم، فما هي الأمارات التي تجعله واثقاً منها؟
في غمر هذه الانطباعات المختلفة، ماذا عسى أن تكون قاعدة الحكم
فيها؟ والأهم من هذا كله، فلو أسعفنا الحظّ وفزنا بها في النهاية، فمن ممّا
سيحسن استعمالها ؟

إذا كانت علومنا باطلة باعتبار موضوعها، فهي ضارة باعتبار نتائجها.
إنّها تنشأ في أوقات الفراغ، ويدورها تضيف إلى الفراغ فراغاً؛ ولعلّ ما تتسبّب
فيه من مضيعة للوقت دونما رجعة هو أول مضرّة تلحقها بالمجتمع. إنّه شرّ
عظيم، في السياسة كما في الأخلاق، أن لا نفعل الخير؛ وكل مواطن لا
يُرجى منه نفع يمكن اعتباره مواطناً فاسداً. أجيوني، أيّا مشاهير الفلاسفة؛
أنتم من علّمتمونا أسباب تجاذب الأجسام في الخلاء؛ وما هي، في دوران
الأفلاك، نسب المساحات المقطوعة في أوقات متساوية؛ وأي منحنيات لها
نقاط مترافقة، ونقاط انقلاب وتقعر؛ وكيف يرى الإنسان جميع الأشياء
في الربّ؛ وكيف يكون التطابق بين النفس والجسم دونما اتصال، كما
يحدث بين ساعتين اثنتين؛ وأيّ الأفلاك يمكن إعمارها؛ وأيّ حشرات
تتكاثر بصورة عجيبة. أجيوني، يا من زوّدتمونا بهذا الكمّ من المعارف
الجليلة؛ فلو لم تلقّونا من هذه الأمور شيئاً، أكثراً أقلّ نسلاً، وأساءاً حكماً،
وأقلّ هيبة، وأقلّ ازدهاراً أو أكثر انحرافاً ؟ جدّدوا النظر في أهميّة ما أنتجتم؛
فإذا كانت أعمال أنبغ علمائنا وأفضل مواطنينا لا تجدي نفعا كثيراً، فما

1- كلّما نقصت معرفتنا، زاد ادّعاؤنا لها أكثر. فهل كان المشاؤون يشكون في شيء ؟ ألم
يصنع «ديكارت» الكون بمكعبات ودقّامات ؟ وهل يوجد اليوم حتّى، في أوروبا، فيزيائي بسيط
واحد لا يتجاسر على تفسير اللغز العميق للكهرباء، وقد يأس الفلاسفة الحقيقيون من تفسيره أبداً؟

مقال في العلوم والفنون

بالكم بذلك الحشد من المؤلفين الغامضين والمثقفين العاطلين الذين يلتهمون لب الدولة بدون أدنى تعويض.

أقلست عاطلين؟ هيهات أن يكونوا عاطلين، كيما تصبح الأخلاق أقل فسادا والمجتمع أكثر سلاما! غير أن هؤلاء المتشدقين التافهين يهرعون في كل اتجاه مسلحين بمفارقاتهم المشؤومة، ينسفون العقيدة ويعدمون الفضيلة، يستخفون بتلك العبارات البالية، كالوطن والدين، ويكرسون مواهبهم وفلسفتهم لتحطيم وإفساد كل المقدسات؛ ليس لكونهم في الواقع يمتنون الفضيلة أو يكرهون عقائدا، وإنما لكونهم يقفون أعداء للرأي العام؛ فإذا شئت عودتهم إلى الدين الحنيف، يكفي تصنيفهم في عداد الملحدين. أيا أيام التميز، علام أنت قادر؟

إن الإسراف في الوقت شرّ عظيم. وهناك شرور أخرى أعظم، تنتج عن الآداب والفنون؛ كالترف الذي ينشأ عن الفراغ والغرور؛ إذ يندر أن يوجد الترف في غياب العلوم والفنون، ومن المحال أن توجد العلوم والفنون بدون ترف. أعلم أن فلسفتنا، الخصبة على الدوام بالحكم المأثورة، تزعم، ضد ما أثبتته التجربة في كل العصور، أن الترف زينة الدول؛ لكن وبغض النظر عن وجوب القوانين المحددة للإنفاق في الكماليات، هل يمكنها أن تنكر أن الأخلاق الحسنة ضرورية لبقاء الدول العظمية، وأن الترف مناقض تماما للأخلاق الحميدة؟ كون الترف هو علامة الثراء، بل كونه أيضا يزيد في الثراء؛ فماذا ينبغي استنتاجه من هذه المفارقة الجديرة بأيماننا هذه؟ وما هو مصير الفضيلة إذا وجب الإثراء مهما كان الثمن؟ ما فتى رجالات السياسة يتحدثون في القديم عن الأخلاق والفضيلة؛ أما رجالاتنا نحن فلا يتحدثون إلا عن التجارة والمال. يقول لك بعضهم إن رجلا ينتمي إلى قطر ما يساوي ثمنه الثمن الذي قد يباع به في مدينة الجزائر؛ واتباع هذا النمط من الحساب، يعلمك الآخر بوجود بلدان لا يساوي فيها الإنسان شيئا، وبلدان أخرى يساوي فيها أقل من صفر. إنهم يقيمون البشر كما لو كان البشر قطيعا من الماشية. وفي رأيهم أن قدر الإنسان في الدولة يكون بقدر ما يستهلكه. وهكذا فقد

تكون قيمة السياريسي¹ الواحد بقدر ثلاثين لأكديمونيا². فاحزروا إذن أيّ هاتين الجمهوريتين، اسبرطة أم سياريس، وقعت تحت نير ثلثة من الفلاحين، وأتبعهما هزّت أركان آسيا وأرعدتها.

فسلطنة سيروس³ قد تمّت الإطاحة بها بثلاثين ألف رجل من طرف أمير أفقر من أدنى مرازمة الفُرس؛ والسيتيون⁴ تصدّوا، مع أنّهم أكثر الشعوب بؤسا، لأعظم الملوك في الكون. وتنافست جمهوريتان شهيرتان على رئاسة العالم، وكانت إحداها ثرية والأخرى لا تملك شيئا، فكانت الغلبة لهذه. والإمبراطورية الرومانية، بعدما التهمت كلّ الثروات في الكون، وقعت بدورها فريسة أناس لا يعلمون حتّى معنى الثراء. والفرنجيون فتحوا بلاد الغال، والسكسونيون إنغلترا، درعهم الوحيد في ذلك بسالتهم وفقرهم. وقهرت عُصبة من الجبليّين المساكين غير الطامعين في أكثر من بضعة جلود خرفان، غطرسة التماسوين، وسحقت عرش بُرغونيا الثريّ الرهيب بعدما كان يزرع الرعب في قلوب طغاة أوروبا. وأخيرا كسر نفر من صيادي سمك الرنكة جناح خليفة «شارل كنت» رغم ما كان يملكه من قدرة وحكمة عظيمتين تدعمهما كلّ ثروات الهند. ليتفضّل رجالات السياسة بتعليق حساباتهم وليتأملوا هذه الأمثلة، وليعلموا مرّة أنّ بالمال يمكن كسب كلّ شيء، ما عدا الأخلاق والمواطين.

ما المراد إذا، على وجه التدقيق، من مسألة الترف هذه؟ أهو معرفة ما إذا كانت الإمبراطوريات إنّما همّها الوحيد هو أن تكون متألّقة زائلة أم فاضلة دائمة؟ لو قلّت متألّقة، فبأيّ ألق؟ إنّ الميل إلى البذخ والميل إلى الشرف لا

1- نسبة إلى سياريس (Sybaris) وهي مدينة بجنوب إيطاليا، إحدى مستعمرات يونان العبرى حوالي 720 ق.م. (المترجم)

2- نسبة إلى لأكديمونيا، أي إسبرطة. (المترجم)

3- «سيروس» Cyrus: هو مؤسس الإمبراطورية الفارسية؛ عاش في القرن السادس قبل الميلاد. (المترجم)

4- السيتيون Les Scythes: شعوب رُحّل من أصل هندو-أوروبي عاشت فيما بين القرنين السابع ق.م. والثالث ق.م. (المترجم)

مقال في العلوم والفنون

يقرنان أبدا داخل نفس النفوس. كلاً، إذ من المحال أن ترتقي نفوس أذلتها الترهات إلى أي أمر عظيم؛ وحتى لو كانت لها القدرة، لأعوزتها الشجاعة.

يرغب كل فنان في أن يهمل له، ويعتبر مديح معاصريه أثمن جزء في جائزته. فماذا عساه يفعل للفوز به لو شاء حفظه التحس أن يولد بين أفراد شعب وفي عصر حيث أصبح العلماء عملة جارية ويجعلون الشباب الطائش على ما يدرج عليه من الأمور؛ وحيث فرط الرجال في ذوقهم في سبيل قاهرات حرّيتهم؛¹ حيث لا يجرؤ أحد الجنسين على الأخذ إلا بما كان مناسباً لمقدار الجبن لدى الآخر، فتسقط أعمال رائعة من الشعر المسرحي وآيات من الأنغام والألحان؟ ماذا عساه يفعل، أيّا سادتي؟ إنّه سيحطّ من نبوغه إلى مستوى عصره، وسيفضّل تأليف أعمال مبتذلة تجلب له الإعجاب والتقدير وهو على قيد الحياة، على تأليف روائع لا تنال إعجاب الناس إلا طويلاً بعد مماته. أخبّرنا، يا «عزّوت»،² الشهير، بكم من الفحولة وجمال الرجولة ضيّحت في سبيل طُرفنا المزيف، وكم من الأمور العظيمة فوّت عنك الظرف الخصيب بالترهات.

وهكذا يفضي فساد الأخلاق، إذ ينجرّ عن الترف بالضرورة، إلى فساد الذوق.

أمّا إذا شاءت الأقدار أن يوجد من بين أفاذا الناس رجل له من رباطة الجأش ما يجعله يرفض الانصياع لعبقرية عصره والخطّ من شأنه الشخصي بعرض إنتاجات سخيّة، فالويل له! سيظلّ فقيراً معوزاً حتى النهاية وسيدخل طي النسيان. أيكون كلامي من قبيل التخمين وليس نقلاً عن التجربة! أيّا

1- لا أعتقد أنّ ما للنساء من نفوذ هو شرّ في ذاته؛ بل هو هديّة أهدتها لهنّ الطبيعة من أجل سعادة بني الإنسان؛ فإذا دُبرّت أمورهم بوجه أفضل، أنتجوا من الخير بقدر ما يقترفونه اليوم من الآثام. لا يوجد شعور كاف بالمزايا التي قد ينمها المجتمع لو تمّ تقديم تربية أفضل لنصف الجنس البشري ذاك الذي يحكم النصف الآخر. سوف يفعل الرجال دائماً ما يروق للنساء؛ ولذا فإن كنتم ترغبون في جعلهم عظاماً وفضلاء، عليكم بتلقين النساء معنى العظمة والفضيلة. إنّ التأمّلات التي يطرحها هذا الموضوع والتي تطرّق لها «أفلاطون» من قبل، تستحقّ الإسهاب، بقلم جدير بالكتابة، نسجاً على منوال معلم كهذا ودفاعاً عن قضية عظيمة كهذه.

2- لا شك أنّ المشار إليه هنا هو «فرنسوا ماري عروت»، المسمّى «فُلتير» (François Marie Arouet, dit Voltaire). (المترجم)

«كارل»، أيا «بطرس»، لقد حان الأوان كي تسقط من بين أيديكم تلك الريشة التي جُعِلت للإضافة إلى عظمة معابدنا بما ترسمه من صور مقدّسة جليّة، أو كي تؤجّر لتزيين لافتات مقابلة برسوم شهوانية خليعة. وأنت يا منافس «براكسيتال»¹، وفيدياس²؛ فلو كان للقدامى منقاشك لاستخدموه في نقش آلهة ذات جمال يجعلنا نغفر لهم هيامهم بها؛ يا «بيغال»³ الفذّ، ستدأب يدك على تمليط بطن تمثال صيني، أو تظل عاطلة عن العمل.

لا يمكن التفكير في الأخلاق دون تذكّر العصور الأولى وساطتها. إنّها ضفّة جميلة مزدانة بأصابع الطبيعة وحدها، نجيل إليها نظرنا باستمرار وندرک ابتعادنا عنها على مضض. لمّا كان الناس الأبرياء الفضلاء يودّون أن تكون الآلهة شاهدة على أعمالهم، كانوا يسكنون في نفس الأكواخ معاً؛ لكن حالما أصبحوا أشراراً، ملّوا من تلك الرقابة المعلقة عليهم فأقصوها وأسكنوها المعابد الرائعة، ثمّ ما لبثوا أن أطردوها منها وأقاموا فيها بأنفسهم، أو قلّ إنّه لم يعد يوجد فرق بين معابد الآلهة ومساكن المواطنين. بلغ الفساد ذروته، وبلغت الرذائل حدّها الأقصى لمّا شوهدت في مدخل قصور الأكابر فوق أعمدة من المرمر منقوشة على تيجان كورنثية.

وبينما كانت مرافق الحياة تزايد، والفنون تكتمل، والترف يمدّ أزره، كانت الشجاعة الحقّ توهن، والفضائل العسكرية تندثر، وإنّ هذا لعمرى من استتباغات العلوم وكلّ تلك الفنون التي كانت تمارس في ظلمات المكاتب. لمّا عاث القوط⁴ في بلاد اليونان فساداً، لم تنج المكتبات من النيران المضطربة إلّا بفضل رأي أشاعه بعضهم، مفاده أنّه ينبغي أن يُترك للعدوّ الأثاث والمعدّات التي قد تُلهيه عن الممارسات العسكرية وتبقيه منشغلاً بتفاهات وسفاسف الحضر. أمّا «شارل الثامن»، فقد أصبح سيّداً على تسكانا وعلى مملكة نابولي وكاد مع ذلك ألاّ يستلّ سيفه؛ وعزا كلّ أفراد

1- «براكسيتال» Praxitéle : نخات يوناني عاش بين حوالي 400 و326 ق.م. (المترجم)

2- «فيدياس» Phidias : نخات يوناني عاش بين حوالي 490 و430 ق.م. (المترجم)

3- «بيغال» Jean-baptiste Pigalle : نخات فرنسي ولد في 1714 وتوفي في 1785. (المترجم)

4- القوط Les Goths : إحدى الشعوب الجرمانية القديمة. (المترجم)

مقال في العلوم والفنون

حاشيته هذه السهلة غير المنتظرة إلى أنّ أمراء إيطاليا ونبلائها كانوا منشغلين بتطوير نبوغهم وعلمهم أكثر من تدربهم على الشدة في الحرب. وبالفعل، كما قال الرجل الحصيف الذي نقل هذين الخبرين، تُعلّمنا كلّ الأمثلة أنّ في هذا الوضع من الحرب وفي كلّ الأوضاع المماثلة تكون العلوم صالحة لبط العزائم وتخنيثها أكثر ممّا تكون حافزا على تقويتها وتنشيطها.

ولقد اعترف الرومانيون بأنّ الفضيلة الحربية بدأت تخمد عندهم بقدر مهارتهم في الرسوم والنقوش والأواني المصوغة، وبقدر إنمائهم للفنون الجميلة؛ وكما لو كان قد كُتب لبلدهم الشهير أن يكون عبرة مستمرة للشعوب الأخرى، فإنّ صعود المديسيس¹ وعودة الآداب قد خطّا من جديد وربما إلى الأبد من تلك السمعة في القتال التي كادت إيطاليا تستعيدها منذ قرون قليلة.

إنّ جمهوريات يونان العريقة، بحكمتها الساطعة في معظم مؤسّساتها، قد حرّمت على مواطنيها تعاطي تلك المهن الهائنة الساكنة إذ تضعف الجسم وتفسده ولا تلبث أن تصيب النفس بالوهن. إذ بأيّ صدر سيتقبّل الجوع والعطش والمتاعب والمخاطر والموت، أولئك الذين يهنون لأدنى طلب وينفرون من تحمّل أيّ عبء؟ وبأيّ شجاعة سيتحمّل الجنود أعمالا شاقة لم يعتادوها بالمرّة؟ بأيّ حماس سيسيرون سيرا حثيثا بأمر ضباط لا يقدرّون حتى على السفر على صهوة فرس؟ لا تعارضوني بحجّة ما أصبح عليه أولئك المحاربون العصريّون من بسالة وانضباط رائع. قد يجوز مدحهم على ما أبدوه من بأس في يوم قتال، لكنّ أتى لهم أن يتحمّلوا مشقة العمل وأن يقاوموا قسوة الطقس وتقلّبات الجوّ. إذ يكفي بعض حرارة الشمس أو بعض برودة الثلج ويكفي الحرمان من بعض الكماليات حتى تميم أفضل جيوشنا في أيّام قليلة وتصير حطاما. أيّها المقاتلون الشجعان، تحمّلوا مرّة سماع حقيقة يندر أن تسمعوها؛ أنتم أصحاب بأس، هذا أعلمه؛ فلو كنتم مع «حنبل» لقاسمتموه التصرّ في كان وtrasيمان؛ ولو كنتم مع «قيصر» لعبرتم سويّة نهر

1- الميديسيس Medicis : عائلة كبيرة من مدينة فلورنسا، كان لها نفوذ عظيم في عصر النهضة الإيطالية (القرنان الخامس عشر والسادس عشر). (المترجم)

الروبيكون وأسرتهم سكان البلد؛ لكن ما كان للأول أن يجتاز جبال الآلب بمساعدتكم، وما كان للثاني أن ينتصر بفضلكم على أجدادكم.

لا يقدّر نجاح الحرب دائما بالمعارك، بل يوجد في نظر كبار القادة فنّ أرقى من فنّ ربح المعارك. قد يركّز بعضهم في اتجاه النار ببسالة، مع أنّه ضابط فاشل جدّا؛ فهو يحتاج كجندّي إلى بعض القوّة والعنفوان أكثر منه إلى مثل هذا الإقدام الذي لا يحميه من الموت؛ وهل يهّم الدولة أن يكون هلاك جيوشها بالحمّى والبرد أو بسيف العدو؟

إذا كانت الثقافة العلمية تضرّ بالخصال القتالية، فهي تضرّ بالخصال الأخلاقية أكثر؛ إذ منذ نعومة أظفارنا تعمل تربية حمقاء على تجميل فكرنا وإفساد حكمنا. إنّي أرى، حيثما أجلت النظر، منشآت ضخمة تتمّ فيها تربية الناشئة بنفقات باهظة من أجل تلقينها كلّ شيء ما عدا واجباتها. سيصبح أبنائكم جاهلين للغتهم الخاصة، لكن سيتحدثون بلغات أخرى لم يعد النطق بها جاريا في أيّ مكان؛ وسيتعلمون قول أبيات من الشعر لا يكادون يفقهون معناها؛ وعلاوة على عجزهم عن تمييز الصواب من الخطأ، سيمهرون في تشويه معالمهما بالشبهات؛ ولن يفقهوا معنى كلمات كهذه: الشهامة، الاعتدال، الإنسانية، الشجاعة؛ ولن يرنّ في آذانهم أبدا اسم الوطن الرقيق العذب؛ وإذا جاءهم خبر الله، سيولد فيهم الشعور بالخوف أكثر منه بالخشوع والرهبة¹. كان أحد الحكماء يقول: «أفضل أن يقضّي تلميذي وقته في لعبة الراحة، فعلى الأقلّ سيكون جسمه على هيئة أحسن». أعلم أنّه لا بدّ من إلهاء الأطفال، وأنّ أخشى ما يخشى عليهم هو الفراغ. فماذا يجب إذا أن يتعلّموا؟ هذا سؤال جيّد بالتأكيد! ليتعلّموا ما يجب عمله في سنّ الكهولة²، لا ما يجب نسيانه.

1- خاطرة فلسفية.

2- هكذا كانت التربية لدى أهالي إسبرطة، على حدّ رواية أعظم ملوكهم. إنّه لأمر جدير بكلّ اعتبار أن يقع، كما قال «متناني»، في ظلّ هذا النظام المتميّز الذي أقامه ليكورغ* والذي كان في الحقيقة، من فرط كماله، نظاما بشعا، رغم ما أولاه من عناية بإطعام الأطفال كما بالمهمة الرئيسية المناطة بعهدته، وذلك في عصر دار ربات الفنّ، إغفال ذكر المذهب؛ كما لو كان المطلوب، نظرا لنفور هذه الناشئة الشبهة من كلّ سلطة أخرى، هو منحها، بدلا من أساتذة في

مقال في العلوم والفنون

حداثتنا مزدانة بالتمائيل، وأروقتنا باللوحات الزيتية؛ ففي رأيكم ماذا تمثل هذه الروائع الفنية الحائزة على إعجاب الجمهور؟ أتمثل الذائدين عن الوطن؟ أم تمثل رجالا أعظم منهم بما أغدقوه من الفضائل على الوطن؟ كلا! إنها تقدّم صورا لضياح القلب والعقل، انتُقيت من الميثولوجيا القديمة وعُرضت مبكرا على أطفالنا المتعطشين للمعرفة؛ عُرضت عليهم بالتأكيد ليقفوا على نماذج من الأعمال القيحة حتى قبل أن يحسنوا القراءة.

ما السبب في كل هذه التجاوزات، إن لم يكن هو التفاوت التحس الذي أقيم بين الناس بتميز المواهب وتقبيح الفضائل؟ هذا ما نجنه بالتأكيد من كل دراساتها، وهذه أخطر النتائج المترتبة عليها. فنحن لم نعد نسأل ما إذا كان الإنسان نزيها، بل نسأل عما إذا كان موهوبا؛ أو ما إذا كان الكتاب

العلم، أساتذة في الشجاعة والحصافة والعدل لا غير. لنرى الآن كيف تحدث نفس المؤلف عن قدماء الفرس. قال: روى «أفلاطون» أنَّ الابن البكر في نظام الخلافة عندهم كان يُربى كما يلي؛ فهو لا يُسلم عند الولادة للنساء، بل يُسلم لخصيان ذوي منزلة مرموقة لدى الملك، لما يتحلون به من الفضيلة، فيعتنون بجمال جسمه وسلامته، وعند بلوغه السابعة من العمر يدربونه على ركوب الخيل والذهاب إلى الصيد، فإذا بلغ السن الرابعة عشر وضعوه بين أيدي أربعة من القوم: أوسعهم حكمة وأكثرهم عدلا وأشدّهم اعتدالا وأعظمهم شجاعة. كان الأول يعلمه قواعد الإيمان، والثاني مبادئ الحق، وكان الثالث يدربه على كبح شجعه، والرابع على ألا يخشى شيئا. كانوا جميعا يسعون إلى جعله صالحا، ولا أحد إلى جعله عالما.

عن «كزينوفون»^{**}، طلب «أستياج»^{***} من «سيروس» تقريرا عن آخر درس تلقاه، فأجابه: في مدرستنا شاب طويل القامة يملك لباسا ضيقا فأعطاه لأحد أصحابه قصير القامة وأخذ منه لباسه الأوسع. فلما طلب مني المعلم أن أكون حكيما في هذه القضية، حكمت بإبقاء الأمور على حالها، إذ بدالي الوضع مناسباً لكلا الطرفين. فعاب عليّ المعلم ذلك، إذ وقفت عند اعتبار ما يناسب من الأمور بينما كان الأجدي أن أكون خادما للعدل الذي يقتضي ألا يُجرّد أحد من أملكه. وقال إنه عوقب، مثلما تعاقب نحن في قرانا عندما ننسى تصريف فعل يوناني في الماضي المبهم، قد يحتاج أساتذتي إلى خطب مملّة طويلة، على النمط الاستدلالي، قبل إقناعي بأنّ مدرستهم لا تقلّ قيمة عن تلك المدرسة.

{*} ليكورغ، Lycurgue: مشرّع إسبرطي قد يكون عاش في القرن التاسع ق.م. أو في بداية القرن الثامن ق.م.، إذ لا نملك عنه رواية ثابتة صحيحة. لكن تُنسب إليه عموما جملة تشريعات مدينة إسبرطة. (المترجم)

** كزينوفون، Xénophon: فيلسوف ومؤرّخ ومحارب يوناني ولد حوالي 430 أو 426 ق.م. ومات حوالي 355 ق.م. (المترجم)

*** «أستياج» Astyage: هو آخر الملوك الميديين؛ و«سيروس» Cyrus هو حفيده؛ إلا أن هذا الأخير افتك العرش من جدّه (حوالي 549-550 ق.م.) دون أن يفتك بحياته. (المترجم)

مفيدا، بل ما إذا كان مكتوبا بلغة جيّدة. تُمنح المكافآت للفكر الظريف، وتبقى الفضيلة بلا مجد؛ ويوجد ألف جائزة للخطب الجميلة، ولا واحدة للأعمال الجليلة. لكن ليخبرني أحدكم، هل هناك وجه للمقارنة بين المجد الذي سيغنمه أفضل مقال سيتّوجه هذا المجمع، وبين الشرف الحاصل لمن أسّس الجائزة؟

إنّ الحكيم لا يلهث وراء المال، لكنّه لا يستهين بالمجد؛ وعندما يرى الأمجاد توزّع بلا هدى، يصاب بالإحباط وتخمد فضيلته جرّاء البؤس والنسيان، بعدما كان القليل من المنافسة قادرا على تنشيطها وإفادة المجتمع منها. ذاك ما يُنتجه على أمد طويل تفضيل المواهب الظريفة على المواهب النافعة، وما تُثبته التجربة باستمرار منذ تجديد العلوم والفنون. فنحن لدينا علماء في الطبيعيات والهندسة والكيمياء والفلك، ولدينا شعراء وموسيقيّون ورّسامون، لكن لم يبق لدينا مواطنون، أو إن بقي منهم القليل فقد تشبّثوا في أريافنا المهجورة حيث يلفظون أنفاسهم الأخيرة في حالة من العوّز الجالب للاحتقار. هذا هو الوضع الذي أصبح عليه وهذه هي المشاعر التي أصبح يغنمها منّا أولئك الذين يزودوننا بالخبز ويطعمون أطفالنا الحليب.

إنّي لا أنكر، مع ذلك، أنّ الشرّ لم يبلغ مبلغه. فالعناية الإلهية - إذ وضعت إلى جانب النباتات الضارّة نباتات بسيطة شافية، وجعلت في صُلب العديد من الحيوانات الضارية خلاصة دواءٍ لما تحدثه من إصابات وجروح - قد علّمت الملوك الخلفاء لها في الأرض كيف يحاكون حكمتها. وعلى منوالها نسج ذلك الملك العظيم الذي سيزداد بريق مجده جيلا بعد جيل، إذ استمدّ من كيان العلوم والفنون ذاتها - مع أنّها مصدر كلّ المفاسد - فكرة إنشاء تلك الجمعيات الشهيرة المكلفة باثتمان وديعة المعارف الإنسانية الخطرة ووديعة الأخلاق المقدّسة على حدّ السواء، وذلك بحفظ صفاء الوديعتين واشتراط هذا الصفاء فيمن تستقبله من الأعضاء.

هذه المنشآت الحكيمة، إذ دعّمها خلّفه صاحب الجلالة ونسج على منوالها جلّ ملوك أوروبا، قد تفيد على الأقلّ في كبح جماح أصحاب

مقال في العلوم والفنون

الأفلام، فهم يرغبون جميعا في شرف الانتماء للأكاديميات، ولا بد أن يراقبوا أنفسهم حتى يكونوا أهلا لها بما ينجزونه من مؤلفات مفيدة وما يدأبون عليه من أخلاق حميدة؛ أخلاق تلك الجمعيات التي تقترح جوائز للاستحقاق الأدبي فتختار، للمناظرة لها، مواضيع من شأنها أن تحيي حب الفضيلة في قلوب المواطنين، فتبين بهذه الصورة أن هذا الحب سائد بينها وتقدم للشعوب متعة جد نادرة وناعمة، متعة مشاهدة جمعيات علمية تسخر نفسها، لا فقط لتسليط أضواء المعرفة الممتعة على النوع البشري، بل أيضا لتقديم تعليمات محققة للخلاص والسلام.

لا تقابلوني إذا باعتراض إن هو في نظري إلا حجة جديدة. إذ لا شك أن كثرة العلاجات إنما هي الدليل على وجوبها، وإننا لا نبحث عن علاج لأمراض غير موجودة. لكن ما الداعي كي يكون هذا العلاج حاملا، لقلة جدواه، سمة العلاجات العادية؟ فكثرة هذه المنشآت المرصودة لخدمة العلماء تجعلها أكثر نفوذا على موضوعات العلم وأكثر قدرة على استقطاب العقول إليها. وقد يبدو، لما نوليه لهذا الأمر من الاحتياط، أننا أصبحنا نعاني من كثرة الفلاحين وقلة الفلاسفة. لا أجازف هنا بتقديم مقارنة بين الفلاحة والفلسفة: فهذا قد لا يحتمله بعضهم. لكن أسأل فقط: ما الفلسفة؟ وعلام تحتوي كتابات أشهر الفلاسفة؟ وأي دروس يلقنها أصدقاء الحكمة هؤلاء؟ فإذا أصغيت إليهم، ألا تظنهم جماعة من الدجالين، في ساحة عامة، يصرخ كل واحد منهم في اتجاه يقول: تعالوا إليّ، أنا فقط لا أخدعكم؟ بعضهم يزعم أنه لا وجود للأجسام وكل ما في الأمر تمثيلات؛ والبعض الآخر أنه لا جوهر غير المادة ولا إله غير العالم؛ هذا ينكر وجود الفضائل والردائل، ويعتبر الخير والشر الأخلاقيين من قبيل الأوهام؛ وذاك يعلن أن الناس ذئاب يفترس بعضهم بعضا بضمير هاني. أيا عظماء الفلاسفة! لماذا لا تحتفظون بدروسكم المفيدة لأصدقائكم وأبنائكم؟ قد تجنون ثمارها في الإبان، ويزول خوفنا من وجود بعض أتباعكم في صفوفنا.

ها هم إذا أفضاذا الناس الذين فازوا في حياتهم بتقدير معاصريهم، وفازوا بعد مماتهم بخلود ذكراهم! وها هي القواعد الحكيمة التي تلقيناها عنهم

والتي سنبّغها عبر العصور إلى أحفادنا! فهل ترك الفكر الوثني للأجيال اللاحقة، بعدما أوقع عقل الإنسان في شتى الضلالات، ما يجوز مقارنته بالآثار المخجلة التي أعدتها لها المطبعة، في عهد الإنجيل؟ إِنَّ الكتابات الملحدة التي ألفها أمثال «لوقبس»¹ و«دياغوراس»² قد فنت بفنائهما؛ إذ لم يتم بعدُ اختراع فنّ تخليد شذوذ الفكر الإنساني. لكن بفضل حروف الطباعة³ ومجالات استخدامها كُتب لهواجس «هوبس» و«سينوزا» وأمثالهما البقاء أبداً. فهَيَّا أَيْتِها الكتابات الشهيرة التي ما استطاع آباؤنا تأليفها لما كانوا عليه من جهل وخشونة؛ توجّهي نحو أحفادنا رفقة تلك المؤلفات الأكثر خطورة، الفاتحة بفساد أخلاق عصرنا، واحملي معها للعصور المقبلة تأريخاً صادقاً لتقدّم علومنا وفنوننا ولمزاياها. فإذا طالعوك، سيزول ارتباكهم كلّهم بشأن المسألة التي نطرحها اليوم: إنهم -اللهم إذا كانوا أكثر منّا مخالفةً للصواب - سيرفعون أيديهم إلى السماء ويمرّرون سيناشدون: «يا ربّ يا قدير، أنت من تملك العقول بين يديك، خلّصنا من الأنوار ومن الفنون المشؤومة الموروثة عن آبائنا، وأعد إلينا جهلنا وفقرنا وبراءتنا، فهي الخيرات الوحيدة القادرة على إسعادنا، وهي في نظرك أثمن ما تراه عندنا».

1- «لوقبس» Leucippe: فيلسوف يوناني قديم، لم يصلنا من آثاره شيء وكلّ ما يروى عنه أنّه عاش من 460 ق.م. إلى 370 ق.م. تقريباً، وأنّه المؤسس الأول للمذهب الذري، وأنّ «ديمقريطس» تتلمذ عليه. (المترجم)

2- «دياغوراس» Diagoras: فيلسوف يوناني تتلمذ على «ديمقريطس»؛ أشهر إلحاده فأُطرد من أثينا سنة 415 ق.م.، وتوفي حوالي 400 ق.م. (المترجم)

3- إذا اعتبرنا الفوضى المفزعة التي أحدثتها المطبعة في أوروبا، وحكمتنا على المستقبل بالنظر إلى تفاقم الشرّ يوماً بعد يوم، نتوقع بسهولة دأب الملوك على إقصاء هذا الفنّ المريع من ممالكهم بعدما كان دأبهم على إيراده. لقد استسلم السلطان «عشمت» أمام إلحاح بعض أصحاب الذوق المزعومين ووافق على إنشاء مطبعة في القسطنطينية. لكن ما إن بدأ بها الطبع حتّى جاء الأمر بتحطيمها ورمي أدواتها في بحر. ويُروى أنّ الخليفة «عمر»، عندما استشير بشأن مكتبة الإسكندرية وما يجب أن يكون مصيرها، قدّم الجواب التالي: إذا كانت مؤلفات هذه المكتبة تتضمن أموراً منافية للقرآن، فهي رديئة ولا بدّ من حرقها؛ وإذا كانت لا تتضمن إلّا ما جاء به القرآن، فاحرقها أيضاً، لأنّها زائدة. ولقد ذكر علماؤنا هذا الاستدلال بوصفه لا معقولاً وفي منتهى الخلف. لكن لو افترضنا «غريغوار الكبير» بدلاً من «عمر»، والإنجيل بدل القرآن، لكانت المكتبة أحرقت أيضاً، ولكان ذلك أجمل عمل في حياة هذا الخبر الشهير.

مقال في العلوم والفنون

لكن إذا كان تقدّم العلوم والفنون لم يضيف شيئاً إلى سعادتنا الحقيقية، وإذا كان قد أفسد أخلاقنا وطال الفساد سلامة ذوقنا، فماذا عن تلك الجماعة من المؤلفين المبتدئين الذين رفعوا الصعوبات المانعة عن معبد ربّات الفنّ والتي جعلتها الطبيعة امتحانا لقدرات من تستهويهم المعرفة؟ وماذا عن أولئك المتتحلين الملفّقين للكتب إذ لم يتواروا عن تهشيم أبواب العلم فاتحين مقدسه لغير اللائقين من السوقة والدهماء؟ فعلاً ما يُرجى هو لو وقع التصدي، منذ المدخل، لكلّ العاجزين عن السير طويلاً في دروب الأدب، وتحويل وجهتهم إلى الفنون المفيدة للمجتمع. فهذا من ظلّ طوال حياته شاعراً رديئاً أو مهندساً ثانوياً، كان من الجائز أن يكون صانعاً بارعاً للنسيج. إنّ الذين قُدّر أن يكون لهم أتباع، لم يكونوا في حاجة إلى أساتذة. فأمثال «فيرولام»، و«ديكارت»، و«نيوطن»، هؤلاء الأساتذة للجنس البشري، لم يكن لهم بدورهم أساتذة، إذ من كان يقدر أن يقودهم إلى حيث حملهم نبوغهم العظيم؟ وما كان باستطاعة أساتذة عاديين أن يضيقوا عقولهم ويضغطوا عليها كي تبقى في حدود عقولهم الشخصية الضيقة. إنّ الحواجز الأولى هي التي علّمتهم بذل الجهد ودرّبتهم على تجاوز الفضاء الشاسع الذي تخطوه. وإذا كان لا بدّ من السماح لبعض الأفراد بتعاطي العلوم والفنون، فينبغي أن تكون لهم القدرة على السير على دربهم والتفوّق عليهم. فإلى هذا التفرّ القليل تعود مهمّة بناء الصروح ورفع راية الفكر الإنساني. لكن إذا أردتم أن يكون نبوغهم بلا حدود، فلا تضعوا حدوداً لآمالهم. ذاك ما يحتاجونه من التشجيع لا غير. فالتّمسك تناسب تدريجياً مع الموضوعات التي تشغلها، والمناسبات الكبرى هي التي تخلق الرجال الكبار. لقد كان أمير الفصاحة قنصلاً في روما، وكان أعظم الفلاسفة، تقريباً، وزيراً في انجلترا. أتظنون أنّ مؤلّفاتهما لن تتأثّر بوضعهما لو شغل أحدهما مجرد خطة أستاذ بإحدى الجامعات، وغنم ثانيهما مجرد منحة جامعية زهيدة؟ فعلى الملوك إذن أن يرحّبوا في مجالسهم بأقدر الناس على نصحتهم، وليتخلّوا عن ذلك الحكم المسبق القديم الذي أبدعه كبار الأكابر والذي يقول: إنّ قيادة الشعوب أصعب من إثارها وهدايتها. كما لو كانت دعوة الناس للإحسان طوعاً أهون من دعوتهم قسراً! فليفتحوا بلاطهم لأفذاذ العلماء وقيموا لهم مقاماً رفيعاً. وليمنحواهم الجائزة الوحيدة التي تليق بهم، وهي أن يسهموا،

جان جاك روسو

لما يحظون به من ثقة واعتبار، في إسعاد الشعوب بتلقيها مبادئ الحكمة. آنذاك فقط ستظهر قدرة الفضيلة والعلم والسلطة، إذ تحرّكها جميعا روح المنافسة الشريفة وتشتغل كلّها معاً في سبيل تحقيق سعادة بني الإنسان. لكن طالما بقيت القوّة على حدة، وأنوار الحكمة على حدة، فإنّ العلماء سيفكّرون نادرا في أمور عظيمة، والأمراء سيقدّمون نادرا على أفعال جميلة، وستظلّ الشعوب دنيئة فاسدة شقيّة.

أمّا نحن الرعاع، إذ لم تمنّ السماء علينا بمثل هذه المواهب العظيمة ولم تهَيِّئنا لمجد كهذا، لنمكث في عمتنا، ولنكفّ عن السعي وراء شهرة تفلت منا ولا تغطّي أبداً، في الأحوال الراهنة، ما أنفقنا من أجلها، حتّى لو كنّا نملك كلّ السندات التي تتيح نيلها. فما الدّاعي للبحث عن سعادتنا في رأي الغير إن كنّا نجدها في أنفسنا؟ لنفوّض إلى غيرنا مهمّة تلقين الشعوب واجباتها، ولنقتصر على القيام بواجباتنا نحن بالوجه الكامل، فلسنا بحاجة إلى المزيد من المعرفة.

أيتها الفضيلة! أنتِ العلم الجليل الذي تنشده النفوس البسيطة، فهل من الضروري كلّ هذه المعاناة وكلّ هذه العدة لنيّلك؟ أليست مبادئك منقوشة في كلّ القلوب، وألا يكفي المرء أن يعود إلى نفسه ويصغي لصوت ضميره، في صمت من الأهواء، حتّى يدرك قوانينك؟ هذه هي الفلسفة الحقّ، فلنرضى بها! ومن غير أن نحسد أولئك المشاهير الخالدين في جمهورية الأدب على ما نالوه من الفخر والعزّ، دعونا نرسم بيننا وبينهم ذلك الفاصل المجيد الذي كان يظهر في الماضي القديم بين شعبين عظيمين: إذ كان أحدهما يحسن القول، والآخر يحسن العمل.

ج. ج. روسو

مقال في الاقتصاد السياسي

ترجمة : جلال الدين سعيد

إِكُونُومِيا (Economie) أو اقتصاد (أخلاقي وسياسي)، تُشتق هذه الكلمة من أُونِكُوس (oikos)، أي المنزل، ونوموس (nomos)، أي القانون، ولا تعني في الأصل غير التدبير المنزلي المحكم والمشروع، من أجل الخير العام لكافة الأسرة. ثم اتسع معنى هذا اللفظ ليشمل تدبير تلك الأسرة الكبيرة التي هي الدولة. وللتمييز بين المعنيين، يقال في الحالة الأخيرة اقتصادًا عامًا أو سياسيًا، وفي الحالة الأخرى يقال اقتصادًا منزليًا أو خاصًا. يتعلّق الأمر في هذا المقال بالاقتصاد السياسي العام، وبشأن الاقتصاد المنزلي انظر باب: ربُّ الأسرة.

لئن وُجد بين الدولة والأسرة من العلاقات بقدر ما يزعمه الكثير من المؤلفين، إلّا أنّه لا يترتب على ذلك أنّ قواعد السلوك المميزة لإحدى المجموعتين تكون ملائمة للأخرى: فاختلاف حجمهما لا يخوّل تدبيرهما بنفس الطريقة، وسيظلّ الفرق شاسعًا بين تدبير المنزل، حيث يكون بوسع الأب الإشراف على كلّ شيء بنفسه، وتدبير المدينة، حيث يكاد الرئيس لا يشرف على شيء إلّا بتوسّط غيره. ولكي تصبح الأمور متكافئة، لا بدّ لمهارات الأب وقدرته وكلّ ملكاته أن تعظم طردًا مع حجم الأسرة، وأن تتّسع روح السلطان العظيم مقارنةً بروح الإنسان العادي، كاتّساع مملكته مقارنة بما يملكه الإنسان الفرد.

ولكن كيف لتدبير الدولة أن يكون مماثلاً لتدبير الأسرة إذ تقوم على أساس جدّ مختلف؟ إذ لما كان الأب جسديًا أقوى من أبنائه، وطالما كان وقوفه إلى جانبهم أمرًا ضروريًا، كانت سلطته تُعتبر حقًا على أنّها قائمة في الطبيعة. أمّا في الأسرة الكبيرة، التي يكون جميع أعضائها متساوين بالطبع، فإنّ السلطة السياسية، مع أنّها سلطة تحكّمية في منشئها، إلّا أنّها لا تقوم

على غير الأعراف والاتفاقيات، كما أنّ صاحب السلطة لا يحكم الناس إلّا بما يتفق مع القوانين. وواجبات الأب إنّما تملّحها عليه مشاعر طبيعية، ولهجة قلّما تسمح له بالعصيان. أمّا الرؤساء فليس لهم قاعدة كهذه، وليسوا ملزمين تجاه الشعب حقّاً إلّا بما وعدوه وما أصبح من حقّه أن يطالبهم به. ويوجد فرق آخر أهمّ، هو أنّ الأبناء لا يملكون شيئاً عدا ما يتسلّمونه من الأب، وبالتالي فلا ريب أنّ حقوق الملكية كلّها له أو تصدر عنه؛ بينما العكس هو الذي يحدث في الأسرة الكبيرة، حيث يجري التدبير العام لغاية تأمين الملكية الخاصة السابقة عليها. وإنّ الهدف الرئيسي لكلّ أشغال المنزل هو حفظ أرزاق الأب وإنمائها، حتّى يستطيع يوماً توزيعها على أبنائه دون إفقارهم؛ بينما لا يعدو ثراء خزانة الدولة أن يكون إلّا وسيلة، غالباً ما أسيء فهمها، لإبقاء الناس في حالة من السلم والرخاء. وباختصار فإنّ الأسرة الصغيرة مصيرها أن تزول وتنحلّ يوماً ما إلى أسر أخرى ماثلة كثيرة؛ لكن لما كانت الأسرة الكبيرة قد جُعِلت لتبقى وتدوم على نفس الحال، كان لا بدّ للصغيرة أن تعظم حتّى تتكاثر؛ ولا يكفي فقط أن تحافظ الكبيرة على كيانها، بل يمكن أن تثبت بسهولة أنّ كلّ تعاظم قد يضرّها أكثر ممّا ينفعها.

ولأسباب كثيرة مستمدة من طبيعة الأشياء، يجب أن يكون الحكم للأب داخل الأسرة. وأوّلًا، لا ينبغي أن تكون السلطة متناصفة بين الأب والأم، بل يجب أن يكون التدبير واحداً، وإذا اختلفت الآراء، أن يوجد صوت مرجّح لأخذ القرار.² إنّ الأوضاع الشاقّة الخاصة بالمرأة، مهما هوّنا من أمرها، تحكم عليها دائماً بالمكوث، وهذا سبب كاف لخلعها من الصدارة؛ إذ عندما يكون القسطاس مستقيماً، تكفي قشة واحدة كي ترجّح الكفّة. ثمّ إنّ من واجب الزوج أن يراقب سلوك زوجته: إذ يهّمه أن يتحقّق من كون الأطفال الذين لا بدّ له أن يعترف بهم ويرعاهم إنّما هم من صلبه حقّاً. وليس للمرأة نفس الحقّ على بعلها، لأنّها لا تخشى ما يخشاه.³ إنّ طاعة الأب واجبة على الأبناء، لما تقتضيه الضرورة أوّلًا، واعترافاً بالجميل ثانياً؛ فبعد أن يقضوا حاجتهم منه في النصف الأول من حياتهم، يجب أن يخصّصوا النصف الآخر لتوفير حاجاته.⁴ وأمّا الخدم فعليهم بخدمته مقابل

مقال في الاقتصاد السياسي

ما يبذله من العناية بهم؛ إلا إذا بطل الاتفاق لكونه لم يعد يناسبهم. وإني لا أذكر العبودية، لأنها مناقضة للطبيعة ولا يمكن أن يبيحها أي قانون.

لا شيء من هذا يوجد بتاتا في المجتمع السياسي. فعوض أن تكون مصلحة القائد الطبيعية في تحقيق سعادة الأفراد، تراه في الغالب يستمدّ سعادته من بؤسهم. وإذا كان الحكم وراثيا، كان صاحب الأمر في الغالب صبيّا يحكم رجلا؛ أما إذا كان انتخابيا، شابت الانتخابات آف العيوب، وزالت في هذه الحالة كما في الأخرى كلّ مزايا الأبوة. وإذا كان قائدك واحدا لا أكثر، كنت تحت ولاء سيّد لا شيء يدعوّه إلى أن يشملك بعطفه؛ أما إذا كنت تخضع لكثيرين، كان عليك أن تتحمّل في ذات الوقت طغيانهم وشقاقهم. وباختصار، فإنّه لا مردّ للتجاوزات ولعواقبها المشؤومة في كلّ مجتمع، حيث لا يكون للمصلحة العامة وللقوانين أية قدرة طبيعية وحيث يكون تعرّضها باستمرار لعدوان المصلحة الشخصية وعدوان أهواء القائد والأعضاء.

ورغم أنّ وظائف ربّ العائلة ووظائف صاحب السلطة ترمي إلى غاية واحدة، إلّا أنّ سبلهما مختلفة؛ إنّ واجبهما وحقوقهما على درجة من الاختلاف حتّى أنّ كلّ خلط بينها قد يؤوّل إلى تكوين أفكار باطلة عن القوانين الأساسية في المجتمع وإلى الوقوع في أخطاء تعود بالوبال على الجنس البشري. إذ فعلا إذا كان صوت الطبيعة أفضل مرشد ينبغي أن يستشير الأب الصالح حتى يقيم واجباته، فهذا الصوت لا يكون عند صاحب السلطة إلّا دليلا مزيفا لا ينفكّ يضلّله عن ذويه ويجرّه عاجلا أو آجلا إلى هلاكه وهلاك الدولة إن لم تأخذ بيده أرقى الفضائل. وعلى ربّ العائلة أن يحذر فقط الانحلال الأخلاقي وأن يمنع الميول الطبيعية فيه من أن يصيبها الفساد؛ لكن هذه الميول بالذات هي التي تكون مفسدة لصاحب السلطة. فذاك لا يحتاج، كي يعمل خيرا، إلّا أن يستشير قلبه؛ وهذا يصبح خائنا لحظة يصغي إلى قلبه، بل عليه أن يحترز حتّى من عقله، ويجب عليه ألا يتوخّى قاعدة أخرى غير قاعدة العقل العمومي، ألا وهي القانون. وعلى هذا فإنّ الطبيعة قد أوجدت كثرة من أرباب العائلات

الصالحين، لكن هيهات أن تكون الحكمة الإنسانية أوجدت منذ نشأة العالم عشرة من الرجال القادرين على رعاية أمثالهم.

بناء على كل ما تقدّم، فقد صدّق من ميّز بين الاقتصاد العمومي والاقتصاد الخاص؛ وبما أنّ الدولة والعائلة لا تشتركان في أمر عدا أنّه من واجب رئيسيهما أن يجلبا لهما السعادة، فإنّهما لا تلائمهما نفس القواعد من السلوك. رأيت أنّ هذه السطور القليلة قد تكفي لقلب النسق المقيت الذي دأب الفارس «فيلمر»¹ على إقامته في كتاب عنوانه بتريارخا، الذي أقام له رجلان شهيران شرفا عظيما إذ ألفا كتباً في دحضه²؛ ومع ذلك فهذا الخطأ قديم جدّا حتى أنّ أرسطو، رأى وجوب محاربته بأسباب يمكن الاطلاع عليها في الباب الأوّل من كتاب السياسة.

أرجو كذلك من قرائي أن يميّزوا جيّداً بين الاقتصاد العمومي الذي سأتحدّث عنه والذي أسمّيه الحكم، والسلطة العليا التي أسمّيتها سيادة؛ ويتمثّل هذا التمييز في كون أحدهما يملك الحق التشريعي ويكون مُلزماً أحيانا لجسد الأمة ذاته، بينما لا يملك الآخر سوى القدرة التنفيذية ولا يمكنه أن يُلزم غير الأفراد. انظر السياسة والسيادة.

ليُسمح لي مؤقّتا باستخدام مقارنة شائعة تنقصها الدقّة من أكثر من وجه، غير أنّها قد تجعل خطابي أقرب إلى الفهم.

يمكن أن يُنظر إلى الجسد السياسي، إذا ما اعتبر كفرد، على أنّه جسم عضويّ حيّ شبيه بجسم الإنسان. فالسلطة العليا تمثّل الرأس، وتمثّل القوانين والتقاليد الدماغ، وهو مبدأ الأعصاب ومقرّ الذهن، والإرادة، والحواس

1- «روبرت فيلمر، Robert Filmer : فيلسوف إنجليزي ولد سنة 1590 ومات سنة 1653؛ دافع بكلّ حميّة عن الحكم الملكي القائم، وألف الكتاب المذكور هنا، بتريارخا Patriarcha، حيث يستخلص السلطة السياسية من نظام السلطة الأبوية.

2- هذان الرجلان هما «جايمس تيرال، (James Tyrrel, 1642-1718) في كتابه الأبوية ليست المملّكية (Patriarcha non Monarchia) و«جون لوك» (John Locke, 1632-1704) في رسالتيه السياسيّتين عن الحكم المدني (1690).

مقال في الاقتصاد السياسي

التي يمثل الحَكَم والقضاة أعضاءها ؛ وتمثل التجارة والصناعة والفلاحة
القسم والمعدة إذ يُعَدَّان القوت العام ؛ والمالية العامة هي الدَّم الذي يدفعه
اقتصاد حكيم، وظيفته وظيفة القلب، ليوزَّع الطعام والحياة في كافة البدن ؛
والمواطنون هم الجسم والأطراف التي تحرَّك الآلة وتحببها وتشغلها، والتي
ما أن يصيبها جرح في بعض أجزائها حتَّى ينتقل الشعور بالألم إلى الدماغ، متى
كان الحيوان في حالة من الصحة.

إنَّ حياة هذا وذاك هي الذات التي يشترك فيها الكلّ، والإحساس
المتبادل، والتلاؤم الباطني بين الأجزاء كلّها. أيكفّ التواصل، وتزول
الوحدة الصورية، ولا يبقى بين الأجزاء المتجاورة سوى علاقة تلاصق؟
آنذاك يموت الإنسان، أو تنحلّ الدولة.

فالجسد السياسي إذاً هو أيضاً كيان أخلاقي يملك إرادة ؛ وهذه الإرادة
العامة، إذ تسعى باستمرار إلى حفظ الكلّ والجزء وراحتهما، وإذا هي مصدر
القوانين، إنّما هي بالنسبة إلى كلّ أعضاء الدولة، بالنظر إليهم وإليها، قاعدة
العدل واللاعْدل. ولتَقُلْ إنّ هذه الحقيقة تبيّن مدى وجاهة عديد المؤلّفين الذين
وصّفوا بالحضّ على السرقة تلك الحجة الدقيقة التي كانت تُلزم أطفال
لاكديمونيا بالظفر بطعامهم البسيط¹، كما لو أنّ كلّ ما يطلبه القانون قد
يجوز ألاّ يكون مشروعاً. راجع، في باب الحق، مصدر هذا المبدأ الساطع
العظيم الذي يتناوله هذا المقال بالتفصيل.

1- قال «كزينوفون» في كتابه عن جمهورية اللاكديمونيين (II، 1-8) : «...وأمر (الميكورغ،
الملك) من جهة أخرى بالألّا يقع إطعامهم إلاّ كتيّة محدودة حتّى لا يثقلهم الشبع (...). لكن،
وكيلا بضنيهم الجوع، سمح لهم، لا بتناول ما يزيد عن حاجتهم دونما جهد، وإنّما باختلاس بعض
الأشياء ممّا يساعدهم على مقاومة الجوع. ولا أحد ممّا يجهل أنّه لم يَسْمَح لهم بتدبير أمرهم في
الحصول على ما يقيم أودهم عجزاً منه عن توفير حاجياتهم. ثمّ إنّهُ من الواضح أنّ من يُقدّم علي
السرقة لا بدّ له أن يسهر الليل ويتجملّ في النهار ويتربّص الدوائر بالآخرين ويضع مراقبين في كلّ
مكان. لا شكّ أنّه علّمهم كلّ هذا كي يجعل منهم جنوداً أفضل وأكثر قدرة على التزوّد
بالضروري. قد يُقال لي : إذا كان يستحسن السرقة، فلماذا كان يشيع ضرباً كلّ من تمّ القبض
عليه ؟ السبب هو، بالتأكّد، أنّ في كلّ مجالات التعليم، لا بدّ من معاقبة الفرد الذي لا يحسن
الطاعة. وهؤلاء الأطفال الذين يُقبض عليهم يعاقبون لأنهم لصصوص فاشلون».

وتجدر الإشارة إلى أنّ قاعدة العدل هذه، وهي صالحة بالنسبة إلى كلّ المواطنين، قد تكون مذنية مع الأجانب ؛ وسبب ذلك يتّصل : إذ أنّ إرادة الدولة، مع أنّها إرادة عامة بالنسبة إلى أعضائها، لا تبقى بهذا الوصف بالنسبة إلى الدول الأخرى وأعضائها، بل تصبح في نظرهم إرادة جزئية وفردية تقوم قاعدة عدلها في قانون الطبيعة، ممّا يدرجها أيضا ضمن المبدأ الموسوم : إذ تصبح آنذاك مدينة العالم الكبرى الجسد السياسي الذي يبقى قانونه الطبيعي دائما هو الإرادة العامة، والذي تكون مختلف دوله وشعوبه هي أعضاؤه الفردية.

وعلى هذا التمييز بالذات الذي يطبّق على كلّ مجتمع سياسي وأعضائه، ترتّب أكثر القواعد كوثيّة وأشدّها وثوقا إذ بفضلها نقيّم جودة الحكم أو ردائه، وعموما نقيّم مدى أخلاقية كلّ الأعمال الإنسانية.

يتركّب كلّ مجتمع سياسي من مجتمعات أصغر أخرى، من أنواع مختلفة، لكلّ منها مصالحه وقواعده ؛ لكن هذه المجتمعات التي يدركها كلّ واحد لكونها تملك شكلا خارجيا مسموحا به ليست هي الوحيدة الموجودة فعلا في الدولة ؛ فكلّ الأفراد الذين تجمعهم مصلحة مشتركة يكوّنون معا مجتمعات دائمة أو زائلة، قد لا تكون قدرتها بارزة إلا أنّها قدرة حقيقية، وتشكّل الملاحظة الجيدة لعلاقاتها المختلفة معرفة حقيقة بالأخلاق. إنّ كلّ هذه الجمعيات الضمنية أو الشكلية هي التي تغيّر بطرق مختلفة مظاهر الإرادة العامة بتأثير من إرادتها الخاصة. ويكون دائما لإرادة هذه المجتمعات الجزئية ضربان من العلاقات ؛ فهي تكون إرادة عامة بالنسبة إلى أعضاء الجمعية، وتكون إرادة خاصة بالنسبة إلى المجتمع الكبير، فغالبا ما تراها مستقيمة من المنظور الأوّل فاسدة من المنظور الثاني. فقد يكون بعضهم كاهنا ورعا، أو جنديا باسلا، أو طبيا جادا، ويكون مع ذلك مواطنا طالحا. وقد تكون بعض المداولات في صالح المجموعة الصغيرة وضارة جدا بالمجموعة الكبيرة. لا شك أنّ المجتمعات الجزئية تخضع دائما للمجتمعات التي تحويها وأنّه لا بدّ من طاعة هذه قبل تلك، وأنّ واجبات المواطن سابقة على واجبات المستشار، وواجبات الإنسان على واجبات

مقال في الاقتصاد السياسي

المواطن : إلّا أنّه، للأسف، تكون المصلحة الشخصية دائما على نقيض الواجب، كما أنّها تتعاضد بقدر ما تكون الجمعية أكثر ضيقا والالتزام أقلّ قداسة ؛ وهذا دليل قاطع على أنّ الإرادة الأكثر عموما هي كذلك الأكثر عدلا، وأنّ صوت الشعب إنّما هو صوت الربّ حقّا.

ولا يترتب على ذلك أنّ المداولات العمومية تكون دائما عادلة ؛ فقد لا تكون إذا تعلّق الأمر بالشؤون الخارجية ؛ ولقد ذكرْتُ السبب. وبناء عليه فقد يجوز لجمهورية مُحكمة التدبير أن تشنّ حربا ظالمة. ومن الجائز أيضا أن يمرّر مجلسُ بلدٍ ديمقراطي قرارات سيئة وأن يُدين الأبرياء ؛ لكن هذا لن يحدث، ما لم يتمّ إغواء الشعب بمصالح فردية باستطاعة بعض الرجال البارعين، بما لديهم من التأثير والفصاحة، أن يجعلوه يستبدل بها مصالحه. وإذاك فشتان بين المداولة العمومية والإرادة العامة. فلا يعارضني أحدٌ إذا بحجة الديمقراطية الأثينية، لأنّ النظام في أثينا لم يكن قطّ ديمقراطيا، بل كان أرسقراطيا وطاغيا جدّا، سادّه العلماء والخطابيون. تأملوا جيّدا ما يحدث في أيّ مداولة، وسترون أنّ الإرادة العامة تكون دائما في خدمة الصالح العام، إلّا أنّه غالبا ما يحدث في السرّ انشقاق وتحالف خفيّ له أغراض خاصة تجعله يتملّص من الميل الطبيعي للمجلس. آنذاك ينقسم الجسد الاجتماعي حقّا إلى أجساد أخرى يكون لأعضائها إرادة عامة، تكون حسنة وعادلة بالنظر إلى هذه الأجساد الجديدة، غير عادلة وسيئة بالنظر إلى الكلّ الذي تنشق عنه.

ترون بكم من السهولة نفّسر بفضل هذه المبادئ التناقضات الظاهرة في سلوك العديد من الناس، إذ يبدون في غاية النزاهة وحيرة الضمير من منظور معيّن، ومخاتلين مخادعين يدوسون بأقدامهم أكثر الواجبات قداسة مخلصين حتّى الموت لالتزاماتٍ هي في الغالب غير شرعية، من منظور آخر. وهكذا فإنّ أكثر الناس فسادا يُحتوّن دائما بوجه ما المعتقدات العامة، وحتّى قطاع الطرق أنفسهم (مثلما أشرنا في فصل القانون)، مع أنّهم يعادون الفضيلة في المجتمع الكبير، إلّا أنّهم يهيمنون بتمثالها داخل كهوفهم.

عندما أقمْتُ الإرادة العامة مبدأً أوليًا للإقتصاد العمومي وقاعدةً أساسيةً للحُكم، لم أرَ من الضروري أن أنظر بصورة جدِّية فيما إذا كان الحُكم ينتمون إلى الشعب أم الشعب إلى الحُكم، وما إذا كان ينبغي أن نأخذ بالاعتبار، في الشؤون العامة، مصلحة الدولة أم مصلحة الرؤساء. لقد حُسمت هذه المسألة منذ القديم، من جهة بصورة عملية، ومن جهة أخرى بالعقل؛ وعموماً فمن الجنون المطبق أن ننتظر ممَّن يكونون في الواقع أسياداً أن يفضّلوا مصلحة أخرى غير مصلحة الشخصية. وبالتالي حرّياً بنا أن نقسّم الاقتصاد العمومي مرّة أخرى إلى شعبيّ وطاق. فالأوّل هو اقتصاد كلّ دولة يوجد فيها بين الشعب والرؤساء مصلحة واحدة وإرادة مشتركة؛ والثاني يوجد بالضرورة حيثما يكون للحكومة والشعب مصالح مختلفة وإذاك إرادات متعارضة. وإنّ قواعد هذا الأخير مرسومة بالتفصيل في الوثائق التاريخية وفي أهاجي «ماكياڤلي». أمّا الأخرى فلا وجود لها إلّا في كتابات الفلاسفة الذين يجرّؤون على المطالبة بحقوق الإنسانية.

I - القاعدة الأولى والأهمّ بالنسبة إلى الحكومة الشرعية أو الشعبية، أي التي تسعى إلى خير الشعب، إنّما هي إذاً، كما قلْتُ، أن يكون الاقتداء بالإرادة العامة في كلّ أمر؛ لكن للاقتداء بها لا بدّ من معرفتها، وخاصة لا بدّ من تمييزها عن الإرادة الفردية، بدءاً بإرادتنا نحن؛ وليس من السهل دائماً تحقيق هذا التمييز، ولا يمكن أن ننتظر في سبيله أضواء كافية إلّا من لدن أعظم فضيلة. وبما أنّ الإنسان حتّى يريد لا بدّ أن يكون حرّاً، فالصعوبة الأخرى، وهي ليست أقلّ، تتمثّل في ضمان الحرّية العامة وسلطة الحكومة معاً. فتشوا عن الدواعي التي حملت الناس المتّحدين برغائبهم المتبادلة في المجتمع الكبير إلى المزيد من الاتحاد ضمن مجتمعات مدنية، ولن تجدوا داعياً آخر غير تأمين ممتلكات كلّ عضو وحياته وحرّيته بفضل حماية الجميع؛ ولكن كيف نرغم الناس على الدّفاع عن حرّية بعضهم دون المساس بحرّية بعضهم الآخر؟ وكيف نوَفّر الحاجات العامة دون المسّ بالملكية الخاصة لأولئك الذين نرغمهم على الإسهام في الأمر؟ مهما كانت السفسطة التي ستزيّنون بها كلّ هذا، فليس من شكّ أنّه إذا أمكن قهر إرادتي، لن أعود حرّاً، وإذا استطاع أحد أن يمسّ أملك، لن أظلّ صاحبها. هذه المعضلة،

مقال في الاقتصاد السياسي

إذ كانت تبدو بلا حلّ، تمّ تجاوزها مع الأولى وذلك بفضل أرقى وأجلّ المنشآت الإنسانية، بل بفضل وحي سماويّ علّم الإنسان كيف يحاكي في هذه الدنيا القرارات الإلهية الخالدة. فأَيّ فنّ عجيب فتح الطريق لإخضاع الناس من أجل جعلهم أحراراً؟ ولوضع أملاكهم وسواعدهم وحتى حياتهم تحت تصرّف الدولة دون إرغامهم ودون مشاورتهم؟ ولكبح إرادتهم برضاهم؟ ولجعلهم يصادقون على ما يرفضون؟ ولإرغامهم على معاقبة أنفسهم متى أقدموا على ما لم يريدوه؟ كيف لهم أن يطيعوا وألا يحكمهم أحد، وأن يخدموا وألا يوجد عليهم سيّد؟ وأن يخضعوا في الظاهر مع أنّهم أحرار ولا أحد يفقد من حرّيته إلّا ما يكون فيها مضراً بحرّية غيره؟ هذه العجائب إنّما هي من إنتاج القانون. فالقانون وحده يدين البشر بالعدل والحرّية. وهو الذي، كعضو خلاص لإرادة الجميع، يجدّد قيام المساواة الطبيعية بين الناس على أساس الحقّ. فهذا الصوت السماوي هو الذي يملي على كلّ مواطن مبادئ العقل العمومي، وهو الذي يعلمه كيف يتصرّف وفق قواعد حكمه الخاص وكيف لا يتناقض مع نفسه. وهو وحده الذي ينبغي أن تُعطى له الكلمة عندما يمارس الرؤساء حكمهم؛ إذ حالما تُستبعد القوانين ويسعى امرئ ما إلى إخضاع امرئ آخر لإرادته الشخصية، فهو يخرج توّاً من الحالة المدنية ويضع نفسه تجاهه في وضع طبيعي خالص حيث لا شيء يستوجب الطاعة عدا الضرورة.

إنّ أوكد مصالح القائد، وكذلك أكثر واجباته لزوماً، هو أن يسهر إذاً على احترام القوانين التي يتوكّل بها والتي تمثّل قاعدة كامل سلطانه. وإذا كان لا بدّ أن يجعل الآخرين يمثلون لها، فلا بدّ من باب أولى أن يمثل لها هو ذاته إذ ينعم بكلّ فضلها. ذلك أنّه قدوة عظيمة، حتّى أنّه لو رضي الشعب بتكبّد خروجه عن القانون، فالأفضل أن يمسك هو عن الارتفاع بهذا الامتياز الخطير الذي سرعان ما سيسعى آخرون إلى اغتصابه بدورهم، وغالباً ما يكون ذلك على حسابه. وفي الواقع، لما كانت كلّ التزامات المجتمع متبادلة بطبعها، فإنّه لا يمكن للمرء أن يضع نفسه فوق القانون دون أن يفترط في مزاياه، ولا أحد يكون مدينا لكلّ من يزعم أنّه ليس مدينا لأحد. ولهذا السبب ذاته لن يُعفى أحد من القانون أبداً، مهما كانت صفته، في الحكومة

المُحكّمة التنظيم. وحتى المواطنون الذي اشتهروا بخدمة الوطن فلا بدّ من مجازاتهم بالمجد والشرف وليس أبداً بالامتيازات : لأنّ الجمهورية تكون على قاب قوسين من الانهيار حالما يرى أحدهم متعة في عدم إطاعة القوانين. لكن لو تبنّى النبلاء أو العسكريون أو طبقة أخرى من طبقات الدولة مثل هذه القاعدة، آل كلّ شيء إلى الهلاك دونما علاج.

تتوقّف قوّة القوانين على حكمتها الخاصة أكثر ممّا تتوقّف على قسوة وزرائها، وتستمدّ الإرادة العمومية معظم وزنها من العقل الذي أملاها : لذلك يرى «أفلاطون» من باب الاحتياط المفيد جدّاً أن يقع دائماً وضع توطئة معلّلة في مقدّمة المناشير تبين عدلها واستعمالها. وبالفعل فإنّ القانون الأول هو أن نحترم القوانين : فصرامة العقاب علاج باطل، اخترعه أصحاب عقول ضيّقة كي يعوّضوا بالرّعب ذلك الاحترام الذي عجزوا عن تحصيله. ولقد جرت ملاحظة أنّ البلدان التي تكون فيها العقوبات أكثر قساوة، تكون العقوبات فيها أيضاً أكثر تواتراً ؛ بحيث لا تنمّ قسوة العقاب إلّا على كثرة المخالفين، وعندما يُعاقب على كلّ شيء بنفس الشدّة، يضطرّ المذنبون إلى اقتراف جرائم للإفلات من العقاب على أخطائهم.

ولكن رغم أنّ الحكومة ليست سيّدة القانون، إلّا أنّ مزيّتها في حفظه وفي الحضّ بألف طريقة على عشقه. إنّ براعة الحكم لا تتمثّل في أكثر من هذا. فعندما تكون القوّة حليفاً، ليس من المهارة أن نبثّ الرعب في جميع الناس، وليس منها الكثير أن نستعطف قلوب الناس؛ ذلك لأنّ التجربة علّمت الشعب، منذ قديم الزمان، أن يأخذ في الاعتبار كلّ الشرور التي لم يمارسها قادته ضدّه، وأنّ يعشقهم كلّما لم يكرهوه. ويمكن للغبيّ المُطاع، شأنه شأن غيره، أن يعاقب الجرائم : أمّا رجل الدولة الحقيقي فهو يستطيع الوقاية منها، وإنّ سلطانه الجلل يشمل إرادة الأفراد أكثر ممّا يشمل أعمالهم. فلو كان يستطيع أن يجعل كلّ الناس يفعلون الخير، لما بقي له ما يفعله، ولكانت رائحة أعماله أن يظلّ متفرّغاً. لا جرم أنّ أعظم ما يبرع فيه القادة هو وضع قناع على سلطتهم حتّى تكون أقلّ بشاعة، وقيادة الدولة بكلّ سلام حتّى أنّها تبدو في غير حاجة إلى قادة.

مقال في الاقتصاد السياسي

صفوة القول إذاً أنّه لما كان الواجب الأول للمشروع يتمثل في جعل القوانين موافقة للإرادة العامة، فإنّ القاعدة الأولى للاقتصاد العمومي هي أن تكون إدارة الأمور موافقة للقوانين. وقد يكفي، حتى لا تقع الدولة في سوء التدبير، أن يتدبّر المشروع كما ينبغي أمر ما يقتضيه المكان والمناخ والتربة والأخلاق والجيرة وكلّ علاقات أفراد الشعب التي هو مطالب بتأسيسها. ولسنا تنغاضى عن العدد اللامتناهي من الجزئيات المتعلقة بالتسيير والتدبير، باعتبارها موكولة إلى حكمة صاحب الأمر : وإنّما لهذا الأخير قاعدتين معصومتين يُجيد بهما التصرف في هذه الأوضاع، إحداهما روح القانون الذي ينبغي أن يحسم القرار في الحالات التي لم يتمّ توقعها، والثانية هي الإرادة العامة، باعتبارها مصدر كلّ القوانين وتكاملتها، والبديل عنها الذي ينبغي أن يستشار دائماً في حال غيابها. قد يقول بعضهم : كيف سنعرف ما هي الإرادة العامة في الحالات التي لم تقل فيها كلمتها ؟ هل سنجمع الأمة كلّها كلّما حدث طارئ ؟ حتّى أنّ جمعها ليس مرغوباً فيه، لعدم اليقين من أنّ قرارها سيكون معبّراً عن الإرادة العامة ؛ ولتعدّ هذه الطريقة لدى شعب غفير ؛ ولعدم وجوبها إلّا نادراً عندما يكون الحكم على أساس الإرادة الطيبة : ذلك أنّ القادة يعلمون كفاية أنّ الإرادة العامة تكون دائماً في صفّ الطائفة الأكثر خدمة للصالح العام، أي الأكثر إنصافاً ؛ بحيث يكفي المرء أن يكون عادلاً فقط حتّى يكون واثقاً من اتّباعه للإرادة العامة. وهي غالباً ما تسعى إلى البروز إذا تمّ استفزازها علانية، رغم كبحها المريع من طرف السلطة العامة. إنّي أبحث عن أقرب الأمثلة التي يمكن النسخ على منوالها في وضع كهذا. ففي الصين، يسلك الأمير دائماً وفق مبدأ إدانة ضباطه في كلّ الخصومات التي تنشأ بينهم وبين الشعب. فهل يغلو سعر الخبز في إحدى الولايات ؟ يُزجّ آنذاك بالمعتد في السّجن ؛ وهل تنشأ فتنة في ولاية أخرى ؟ يتمّ عزل الوالي، ويُسأل كلّ موظّف كبير عن كلّ شرّ يحدث في مقاطعته. ليس معنى ذلك أنّ القضية تُرفع أمام المحكمة ؛ فالحكم فيها متوقّع بناء على تجربة طويلة ؛ ويندر أن توجد مظلمة لا بدّ من رفعها ؛ وإنّ الإمبراطور، إذ يكون على يقين من أنّ الصّخب العام لا يرتفع أبداً بدون داع، يفرز دائماً، ضمن صيحات الشغب التي يعاقبها، الشكاوي المشروعة إذ يعالجها.

جميلٌ جدًا أن يسود النظام والسلام كافة أنحاء الجمهورية ؛ وجميلٌ جدًا أن تنعم الدولة بالهدوء ويتم احترام القانون ؛ لكن لو وقفنا عند هذا الحد، لبقينا كل ذلك سرابا أكثر منه واقعا، ولو اقتصر صاحب الأمر على جلب الطاعة، لوجد صعوبة جمة في كسبها. وإذا كان من الجيد أن يُستخدم الناس على نحو ما هم عليه، فمن الأفضل كثيرا جعلهم على نحو ما يُحتاج أن يكونوا عليه ؛ إن السلطة المطلقة الأشد هي التي تلج باطن الإنسان وتؤثر في إرادته بقدر ما تؤثر في أفعاله. ولا ريب أن الشعوب تصبح على مرّ الأيام ما يريد لها الحاكم أن تكون : محاريين ومواطنين ورجالا إذا أراد، ورعا وأباشا إذا طاب له ذلك ؛ وكلّ راع يحقر رعاياه إنما هو يلحق بنفسه العار، إذ بذلك يكشف أنه لم ينجح في جعلهم جديرين بالتقدير. فاصنعوا رجالا إن كنتم تريدون قيادة الرجال ؛ وإن كنتم تريدون طاعة القوانين، فاجعلوهم يحبونها، واجعلوا القيام بما يجب متوقفا على مجرد التفكير في وجوب القيام به. هكذا كان فن الحكم لدى القدامى، في تلك العصور الغابرة حيث كان الفلاسفة يمدّون الشعوب بالقوانين ولا يستعملون سلطتهم إلا لجعلهم حكماء وسعداء. وإذا كثرت القوانين المقيّدة للنفعات المفرطة، والأحكام المتعلقة بالأخلاق، والقواعد العمومية المقبولة أو المرفوضة بكامل العناية. وحتى الطغاة أنفسهم لم يفهموا هذا الجانب الهام من التدبير، فكنت تراهم يدأبون على إفساد أخلاق عبيدهم دأب الحكّام على إصلاح أخلاق مواطنيهم. إلا أن حكوماتنا الحديثة، إذ تعتقد أنها أتمت كلّ شيء عندما تكون استخلصت الأموال، لا تتصوّر حتى أنه من الضروري أو الممكن السير حتى هذه النقطة.

II - القاعدة الجوهريّة الثانية للاقتصاد العمومي، وهي لا تقل أهمية عن الأولى. أتريدون للإرادة العامة أن تتحقّق ؟ اجعلوا كلّ الإرادات الفردية تنتمي إليها ؛ وبما أن الفضيلة لا تعدو أن تكون إلا في هذا التطابق بين الإرادة الفردية والإرادة العامة، فإنّه يمكن اختصار القول كما يلي : اجعلوا الفضيلة تسود.

مقال في الاقتصاد السياسي

لو أغشى الطموح على بصر رجال السياسة بصورة أقل، لتبينوا مدى امتناع تدبير شؤون أي إدارة وفق روح مؤسستها، ما لم يكن ديدنها هو قانون الواجب؛ ولأحسوا بأن أعظم حافز للسلطة العمومية إنما يوجد في قلوب المواطنين، وأنه لا شيء يمكن أن يعوّض الأخلاق في المحافظة على الحكم. وإذا كان الرجال الصالحون دون سواهم هم الذين يُجيدون سنّ القوانين، فالحقيقة أنّ الرجال الصالحين دون سواهم هم الذين يحسنون طاعتها أيضاً. إنّ الذي ينجح في إسكات ضميره، سرعان ما يستخفّ بالعقاب؛ فقد يكون العقاب أقلّ صرامة، وقد لا يستمرّ، وقد يؤمّل الإفلات منه؛ ومهما كانت الاحترازات، فإنّ الذين ما أن يتحقّقوا من عدم القصاص حتّى يأتوا السيئات، لا تعوزهم الطرق لتفادي القانون أو الإفلات من العقاب. وعلى ذلك فبما أنّ كلّ المصالح الفردية تتحدّ ضدّ المصلحة العامة إذ لم تعدّ مصلحة أحد، فإنّه يكون للردائل العمومية من القوة لاستفزاز القوانين أكثر ممّا يكون للقوانين لقهر الرذائل؛ فينتقل أخيراً فساد الشعب والقادة إلى الحكومة، مهما كانت حكمتها؛ إنّ أبشع تجاوز هو التظاهر بطاعة القوانين من أجل خرقها بأمان. فسرعان ما تصبح أفضل القوانين أشدها وبالأحرى: كان من الأفضل مائة مرّة ألا توجد، إذ تبقى هي الحيلة الأخيرة في غياب كلّ حيلة. في وضع كهذا، لا فائدة ترجى من إصدار القرارات والأحكام الواحدة تلو الأخرى، إذ كلّ ما سيحدث هو تسريب تجاوزات جديدة دون إصلاح القديمة. فكلّما أكثرتم من القوانين، جعلتموها عرضة للاحتقار؛ وكلّ المراقبين الذين تُنصّبون إنما هم مخالفون جدد مصيرهم أن يقاسموا القدامى أو أن ينهبوا على انفراد. وسرعان ما يصبح جزاء الفضيلة جزاءً للصوصية، ويغدو أحطّ الناس أعظمهم شأنًا؛ وكلّما عظم شأنهم، زادت دناءتهم؛ فتتلطّخ مراتبهم بالعار وتتهكّ أعراضهم. فإذا ابتاعوا أصوات القادة أو وصاية النساء، فلكي يبيعوا بدورهم العدالة والواجب والدولة؛ وإنّ الشعب الذي لا يرى أنّ رذائله هي السبب الأوّل في مصائبه يهمس ويصرخ بأنين: «إنّ مصدر بلائي كلّهُ أولئك الذين أدفع لهم ثمن وقايتي منه».

آنذاك يضطرّ القادة إلى الاستعاضة عن صوت الواجب الذي لم يعدّ يخاطب القلوب، بصيحة رعب أو خديعة مصلحة وهميّة يخاتلون بها بربايهم. وأنذاك يلجؤون إلى كلّ تلك الحيل الصغيرة الحقيرة التي يُستونها مبادئ

الدولة وأسرار الديوان. فيستخدم أعضاء الحكومة كل ما تبقى من بأسها في تدمير وإزاحة بعضهم بعضا، بينما يقع إهمال المصالح العامة أو لا يقع تحقيقها إلا بقدر ما تقتضيه المصلحة الشخصية أو بحسب توجهها لها. وأخيرا فإن السياسيين الكبار يبذلون كل حذقهم في افتتان من يحتاجون من الناس، حتى أن كل واحد من هؤلاء يظن أنه بصدد خدمة مصلحته الشخصية بينما هو في الواقع يخدم مصلحتهم؛ قلت مصلحتهم، سيما أن مصلحة القادة الحقيقية تتمثل في قهر الشعوب من أجل إخضاعها، وفي إتلاف ثرواتها من أجل الاستحواذ عليها.

أما إذا أحب المواطنون واجبهم، وعكف أرباب السلطة العمومية بإخلاص على إنماء هذا الحب، قدوة لهم ورعاية، فإن كل المصاعب ستضمحل، وستيسر إدارة الأمور بما يُغني عن ذلك الفن المدلهم المُلغز بسواده. لن يتحسر أحد على تلك العقول الرحبة، الخطرة جدا والمعجب بها جدا، وعلى كل أولئك الوزراء الكبار الذين اختلط مجدهم بأحزان الشعب؛ ستغدو الأخلاق العامة بديلا عن عبقرية القادة؛ وكلما سادت الفضيلة، تقلصت الحاجة إلى المواهب. وحتى الطموح فإنه سيتحقق بالواجب أكثر مما بالاغتناب؛ فالشعب، إذ هو واثق من أن قادته لا يسهرون إلا على سعادته، يُغنيهم مراعاة لهم، عن السهر على توطيد نفوذهم؛ ويبين التاريخ، في ألف موضع، أن السلطة التي يمنحها الشعب لأولئك الذين يحبهم ويحبونه، إنما هي سلطة مطلقة مائة مرة أكثر من كل طغيان المغتصبين. ليس معنى هذا أنه على الحكومة أن تخشى استعمال نفوذها، وإنما أن تستعمله على وجه الشرع ليس إلا. ونجد في التاريخ ألف مثال عن قادة جبناء أو طموحين، أهلكهم كبرياؤهم أو رشاوتهم، لكن لا نجد أحدا لحقه ضرر لكونه كان منصفًا. لكن لا يجب الخلط بين الإهمال والاعتدال، ولا بين اللطف والضعف. لا بد أن يكون المرء قاسيا، حتى يكون عادلا؛ فأن تتحمل الشر الذي يحق لك قمعه وتقدر على قمعه، معناه أنك شرير أنت نفسك.

لا يكفي أن نقول للمواطنين كونوا طيبين؛ يجب أن نعلمهم كيف هكذا يكونون؛ ولئن كانت القدوة هي الدرس الأول، فهي ليست الطريقة

الوحيدة التي ينبغي استخدامها؛ إنَّ حبَّ الوطن لهو أنجع الطرق، إذكما سبق أن قلْتُ، يكون الإنسان فاضلا عندما تتفق إرادته الجزئية في كلِّ أمر مع الإرادة العامة، وأنا بطيبة خاطر نريد ما يريده النَّاس الذين تحبُّ.

يبدو أنَّ العاطفة الإنسانية تضعف وتبتَّخر عندما تشمل كامل الأرض، وأننا لا نتأثَّر بمصائب اليابان أو بلاد التَّار مثلما نتأثَّر بمصائب شعب أوروپي. فلا بدَّ من الحدِّ والتقليص بوجه ما من دائرة الاهتمام والرحمة كي تنشط هذه العاطفة. لكن لما كان ميلنا هذا لا يعود بالفائدة إلَّا على أولئك الذين نتعايش معهم، فطِبُّ أن تحصل الإنسانية المحصورة بين المواطنين على قوَّة جديدة بفضل التعوُّد على رؤية بعضهم بعضا والفائدة المشتركة التي تجمعهم. وبالتأكيد فإنَّ أعظم أعمال الفضيلة قد نتجت عن حبِّ الوطن: فهذا الشعور الحارَّ اللطيف الذي يقرن قوَّة حبِّ الذات بجمال الفضيلة، يمنح العاطفة الإنسانية من الطاقة ما يجعلها، دون أن يفسدها، أعظم العواطف بطولة. هذا الشعور هو الذي أنتج الأعمال الخالدة التي يبهزُّ بريقها بصرنا الضعيف، وأنتج الرجال العظام الذين تُعدُّ فضائلهم العريقة من قبيل الأساطير مُذْ غدا حبَّ الوطن موضوع سخريه. لا تتعجَّبوا؛ فإنَّ قوَّة القلوب الرقيقة تبدو من قبيل الوهم لكلِّ من لم يشعر بها؛ وإنَّ حبَّ الوطن، إذ هو مائة مرَّة أحرَّ من حبِّ العشيقه وألذَّ، لا يُدرك أيضا إلَّا باختباره: لكن من السهل أن نلاحظ في كلِّ القلوب التي يُلهبها، وكلِّ الأعمال التي يُلهمها، تلك الحميَّة الجليلة الجيَّاشة التي بدونها تفقد أنقى الفضائل بريقها. لتتجرَّأ على المقابلة بين «سقراط» نفسه و«كاتون»¹؛ فأحدهما كان فيلسوفا أكثر، والآخر مواطنا أكثر. وعلى إثر سقوط أثينا، لم يجد «سقراط» وطنا آخر غير العالم كله؛ أمَّا «كاتون» فقد حمل وطنه باستمرار في عمق فؤاده، فلم يكن ليحيا لغيره ولم يكن ليبقى من بعده. إنَّ فضيلة «سقراط» فضيلة أكثر النَّاس حكمة؛ أمَّا «كاتون»، فهو يبدو، بين «قيصر» و«بومبي»²، كالإله

1- كاتون، Caton: رجل دولة وكاتب روماني، عاش من 234 ق.م. إلى 149 ق.م.؛ شغل خطة مراقب عام سنة 184 ق.م. وكان جادا وقاسيا حتَّى أنه رُفِع له تمثال نُقش عليه: «إلى «كاتون»، الذي هذب الأخلاق».

2- يوليوس قيصر، Jules César: إمبراطور روماني عظيم، عاش من سنة 100 ق.م. إلى سنة 44 ق.م.

بين الكائنات الفانية. أحدهما يعلم نفرا من الأفراد ويحارب السوفسطائيين ويموت في سبيل الحقيقة، والآخر يدافع عن الدولة والحرية والقوانين ضد غزاة العالم ثم يغادر الحياة عندما لا يبقى له وطن يخدمه. قد يكون التلميذ الجدير بـ«سقراط» أفضل أهل عصره، وقد يكون المنافس الجدير بـ«كاتون» أعظم الناس في عصره. قد تُحقّق فضيلة الأول سعادته، بينما يبحث الثاني عن سعادته في سعادة الجميع. وقد نتعلّم من أحدهما، بينما نفتاد بالآخر. ويكون اختيارنا على هذا الأساس لا غير، إذ لئن كان من المحال أبداً أن نكوّن شعباً من الحكماء، فليس من المحال أن نكوّن شعباً من السعداء.

أريد أن تكون الشعوب فاضلة؟ لنبدأ بتلقينها حب الوطن. لكن أتني لها أن تحبّه إن كان لا يمثل في نظرها أكثر ممّا يمثل في نظر الأجانب، وإن كان لا يمنحها سوى ما لا يستطيع رفضه لأحد؟ وقد يكون الأمر أكثر سوءاً إذا كانت لا تتمتع حتّى بالأمن المدني، وإذا كانت أملاكها وحياتها وحرّيتها تحت تصرّف العظماء فلا تستطيع أو لا يحقّ لها الاستجداء بالقوانين. فإذا كان تراها تخضع لواجبات الحالة المدنية ولا تتمتع حتّى بحقوق الحالة الطبيعية ولا تستطيع استخدام قواها للدّود عن نفسها، بحيث تكون في أسوأ وضع يمكن أن يوجد فيه أناس أحرار، فلا يكون للفظ الوطن عندها غير دلالة بشعة أو مثيرة للسخرية. لا تظنّ أنّه يمكن جرح ذراع أو قطعه دون أن ينعكس الألم في الرّأس؛ وليس أقلّ عبثاً أن تسمح الإرادة العامة لأيّ كان من أفراد الدولة بأن يؤذي غيره أو يحطّمه، من أن يوجّه إنسان عاقل أصابعه نحو عينيه ليفقأهما. إنّ أمن الفرد يرتبط بالائتلافية العمومية لدرجة أنّ كلّ استخفاف بضعف الإنسان قد يؤوّل إلى انحلال الاتفاقية بموجب الحق، وذلك لو هلك في الدولة مواطن واحد كان بالإمكان إنقاذه، ولو سُجن واحد فقط تجنّباً، ولو خُسِر نزاعٌ واحدٌ جزراً صريحاً؛ لأنّه إذا تمّ خرق الاتفاقيات الأساسية فإنّنا لا نرى أيّ حقّ وأيّ مصلحة ستمسك على الشعب وحدته، اللهم إذا كان له ذلك بفضل القوّة فقط التي تتسبّب في انحلال الحالة المدنية.

«بومبي» Pompée : جنرال ورجل دولة روماني كبير، عاش من 106 ق.م. إلى 48 ق.م.؛ تقاسم السلطة مع «قيصر» و«كراشوس».

مقال في الاقتصاد السياسي

فعلا، أليس ما تتعهد به الأمة في مجموعها هو السهر على حفظ أسوأ أفرادها بنفس العناية التي تحفظ بها كل الآخرين؟ أليس خلاص المواطن غاية مشتركة، شأن خلاص الدولة؟ فلو قيل لنا إنه من المستحسن أن يفنى الواحد في سبيل الجميع، لأعجبت بهذه الحكمة إذا نطق بها وطني فاضل يضحي بحياته طوعا وبدافع الواجب من أجل خلاص بلده؛ أما إذا كان المقصود أنه يجوز للحكومة أن تضحي بإنسان بريء من أجل خلاص المجموعة، فإن هذه الحكمة في نظري كريهة أكثر من أي حكمة ابتدعها الطغيان، وهي أكثر بطلانا من كل ما يمكن عرضه، وأشد خطرا من كل ما يمكن التسليم به، والأكثر مناقضة، بصورة مباشرة، لقوانين المجتمع الأساسية. فبدل أن يكون من واجب واحد فقط أن يهلك في سبيل الجميع، يستخر الجميع أملاكهم وأرواحهم للدفاع عن كل واحد منهم، بحيث يكون ضعف الفرد دائما تحت حماية القوة العامة، وتكون الدولة وصية على كل فرد. وإذا طرحتم، جدلا، من الشعب فردا تلو الآخر، ألخوا على أصحاب هذه الحكمة كي يشرحوا بصورة أفضل ما يقصدونه بجسد الدولة، وسترونهم يختزلونه في آخر الأمر في نفر قليل من الناس ليسوا بالشعب، وإنما هم القائمون به الذين، بعدما تعهدوا فرادى بالتضحية في سبيله، أضحوا يزعمون أنه عليه هو أن يضحي في سبيلهم.

أتريدون أمثلة عما يجب على الدولة من حماية لأفرادها واحترام لأشخاصهم؟ لا تبحثوا عنها إلا عند أكثر أمم الدنيا مجدا وشجاعة، وإن قيمة المرء لا تدرك إلا لدى الشعوب الحرة. لكم كانت جمهورية إسبرطة تشعر بالحيرة كلما تعلق الأمر بمعاينة مواطن مذب. وفي مقدونيا، كان لحياة الإنسان من الأهمية بحيث لم يكن الملك «إسكندر العظيم» يجرؤ، رغم جبروته، على إعدام مجرم مقدوني بلا رحمة حتى يقف المتهم للدفاع عن نفسه أمام مواطنيه ويقاضونه بأنفسهم. أما الرومانيون فقد امتازوا عن كافة شعوب الدنيا بما كان يلقاه الأفراد من مراعاة الحكومة لهم، وبانشغالها الدقيق باحترام الحقوق المصونة لكافة أفراد الدولة. لا شيء كان أقدس من حياة بسطاء المواطنين؛ وكان الحكم على أحدهم يستوجب اجتماع كافة الشعب ليس إلا: فلا مجلس الشيوخ ولا القناصل، بسموهم وجلالتهم، كان

لهم الحق في ذلك، وكانت جريمة المواطن والحكم المسلط عليه، لدى أعظم شعب في العالم، مأساة عمومية؛ لذا كان من الصعب إراقة الدماء مهما كانت الجناية، حتى أن قانون بُرسيا (Loi Porcia) حوّل الحكم بالإعدام إلى حكم بالتغّي لصالح كلّ من يرغب في البقاء مع خسارته للوطن الوديع. كان حبّ المواطنين بعضهم لبعض يخيّم على روما وجيوشها، وكان اللّقب الروماني مصدر شرف واحترام لحامله إذ كان ينمّي شجاعته ويستحثّ فضيلته. كانت قُبعة المواطن المتحرّر من العبودية وكان الإكليل المدني لمن أنقذ حياة غيره أفضل ما يشدّ النظر في مواكب التّصر؛ ومما يلاحظ أنّ من بين الأكاليل التي كانت تُستعمل أّيّام الحرب تمجيذا للأعمال الجليلة، كان الإكليل المدني وإكليل التّصر فقط يتكوّنان من أعشاب وورق، بينما كانت الأكاليل الأخرى من مجرّد ذهب. هكذا كانت روما فاضلة، وهكذا أصبحت سيّدة على العالم. أيّها القادة الطموحين! إنّ الراعي يحكم كلابه وقطعانه، وهو لا يعدو أن يكون أخسّ النّاس. فإذا كان جميلا أن نحكم، فإنّ الذي يطيعنا هو الذي يمكن أن يمتدّنا. فاحترموا إذاً أهل وطنكم وستصبحون محلّ احترام؛ احترموا الحرّيّة وستزداد قدرتكم كلّ يوم: لا تتجاوزوا حقوقكم أبداً، وقرّبا تجدونها بلا حدود.

إذا فليكن الوطن أمّا مشتركة لكلّ المواطنين، لتكن المزايا التي ينعمون بها في بلدهم سبباً في ردّ الجميل له، لتسمح لهم الحكومة بتصيب كاف من التدبير العمومي حتّى يشعروا بأنّهم في وطنهم، ولتكن القوانين في نظرهم ضامنة للحرّيّة العامة لا غير. إنّ هذه الحقوق تنتمي إلى كافّة النّاس؛ ولئن كانت إرادة القادة السيّئة لا تجهر باعتدائها عليها، إلّا أنّها قد تُبطل مفعولها تماما. وإنّ القانون الذي يُستخدم بتعسف يكون بين أيدي القويّ سلاحاً للمهجوم ودرعاً ضدّ الضعيف، وتظلّ حجة المصلحة العامة أخطر وباء قد يصيب الشعب. ولعلّ أكثر ما يجب وأشدّ ما يعسر في مجال الحكم إنّما يتمثّل في توخّي النزاهة الشديدة في نشر العدل، وخاصة في حماية الفقير من طغيان الغنيّ. ويكون معظم الشرّ قد حصل بعدّ عندما يبدأ التفكير في الدّفاع عن الفقراء وردع الأثرياء. إنّ القوانين لا حول لها ولا قوّة إلّا في الأحوال المتوسطة؛ إذ تكون عاجزة سواء ضدّ كنوز الثريّ أو ضدّ

مقال في الاقتصاد السياسي

عَوَزَ الفقير ؛ فالأول يتحاشاها، والثاني يفلت منها ؛ أحدهما يحطّم التسيج، والآخر يتخلّله.

ينبغي إذاً أن يكون شغل الحكومة الشاغل الوقاية من حصول تفاوت مفرط بين الثروات، ليس بافتكاك الأملاك من أصحابها، وإنما بمنع الجميع من وسائل تكديسها، ولا ببناء المستشفيات للفقراء، وإنما بحفظ المواطنين من الفقر. أن يتم توزيع المتساكنين بصورة غير متكافئة على تراب الدولة، فيُحشرون في مكان بينما تبقى الأماكن الأخرى مهجورة، وأن يتم تشجيع الفنون الترفيحية والصناعية على حساب الحرف الشاقة المفيدة، وأن يقع التخلي عن الفلاحة لصالح التجارة، وأن تصبح الجباية ضرورية بسبب سوء التصرف في أموال الدولة، وأخيراً أن يبلغ الارتشاء أقصاه، حتى أنّ الإجلال يقاس بالدراهم والفضائل نفسها تباع بالمال : تلك هي أبرز أسباب الرخاء والفاقة، والأخذ بالمصلحة الخاصة قبل المصلحة العامة، والكراهة المتبادل بين المواطنين، وعدم مبالاتهم بالمصلحة المشتركة، وفساد الشعب، ووهن كلّ دواليب الدولة. وتلك هي بالتالي الأمراض التي يصعب الشفاء منها متى ظهرت، والتي ينبغي اتّقاؤها بفضل التدبير الحكيم، في سبيل الجمع بين الأخلاق الحميدة واحترام القوانين وحبّ الوطن والإرادة العامة الحازمة.

لكن قد تكون كلّ هذه الاحتياطات غير كافية إن لم تؤخذ من الأول. وأقل هذا الباب من الاقتصاد العمومي بتناول ما كان عليّ تناوله في البدء. فالوطن لا يتستى له البقاء بدون الحرّية، ولا الحرّية بدون الفضيلة، ولا الفضيلة بدون المواطنين ؛ سيكون لك الحظّ في كلّ شيء إن أنشأت مواطنين، وإلاّ فلن تحصل إلّا على عبيد أشرار، أولهم قادة الدولة. بيد أنّ تنشئة المواطنين ليست شغل يوم واحد ؛ ولإتمام تنشئتهم كباراً، لا بدّ من تعليمهم صغاراً. لينطق أحدكم ويقول إنّ كلّ من يحكم الناس ليس عليه أن يبحث خارج طبيعتهم عن كمال ليس في متناولهم، وليس عليه أن يسعى إلى إبادة أهوائهم، وأنّ برنامجاً كهذا لا تكون الرغبة فيه أكثر من إمكانية تحقيقه. قد أوافق على كلّ هذا، سيّما أنّ إنساناً بلا أهواء يكون بالتأكيد مواطناً فاشلاً ؛ لكن لا بدّ من التسليم أيضاً أنّنا، إذ لا نعلّم الناس عدم المحبّة، يمكن أن

نعلّمهم حبّ شيء بدلا من آخر، وحبّ الجميل حقّا بدلا من الدميم. فمثلا لو تمّ تدريبهم باكرا على عدم اعتبار شخصهم إلّا في علاقته بشخص الدولة، وعلى اعتبار كيانهم جزءا من كيانهها، لاستطاعوا في الآخر أن يتماهوا بوجه ما مع ذلك الكلّ الأعظم، وأن يشعروا بأنّهم أعضاء من الوطن، وأن يشعروا تجاهه بذلك الحبّ اللطيف الذي يشعر به كلّ امرئ متوحد تجاه نفسه، وأن يرفعوا نفوسهم باستمرار إلى ذلك الشيء العظيم، وأن يحولوا هكذا ذلك الاستعداد الخطير، الذي تنشأ فيه كلّ رذائلنا، إلى فضيلة سنّية عالية. وإذا كانت الفلسفة تثبت إمكان هذه التوجهات الجديدة، فإنّ التاريخ يقدّم على ذلك ألف مثال ساطع؛ وإذا كانت الأمثلة نادرة عندنا، فلائّه لا أحد يعبأ بوجود مواطنين، بل لا أحد يفكر مبكّرا في تنشئتهم. يكون قد فات الأوان كي نغيّر من ميولنا الطبيعية بعدما جرت مجراها واقرنت العادة بحبّ الذات؛ ويكون قد فات الأوان كي ننفلت من ذواتنا بعدما يتمركز الأنا الإنساني في قلوبنا ويتعاطى ذلك النشاط الحقيق الذي يمتصّ كلّ فضيلة ويكوّن حياة النفوس الدنيئة. كيف يمكن لحبّ الوطن أن يترعرع بين هذا الكمّ من الأهواء التي تضيق أنفاسه؟ وماذا يبقى لأهالي الوطن من قلبٍ تقاسمه البخل بعد الغرور والعشيقّة؟

يجب أن نتعلّم كيف نستحقّ العيش منذ اللحظة الأولى في الحياة؛ وبما أنّنا نشارك في حقوق المواطنين منذ أن نولد، فلا بدّ أن تكون لحظة ميلادنا هي بداية ممارسة واجباتنا. وإذا كان هناك قوانين لسنّ الرشد، فلا بدّ من قوانين للطفولة، تُعلّم إطاعة الآخرين؛ ولما كان لا يُترك عقل كلّ إنسان حكما وحيدا لواجباته، لا يجب أن تُترك تربية الأطفال لعقول آبائهم وأحكامهم المسبقة، سيّما أنّها تهّم الدولة أكثر ممّا تهّم الآباء؛ ذلك أنّ موت الأب، وفقا لمجرى الطبيعة، يختلس منه في الغالب آخر ثمار هذه التربية، بينما يشعر الوطن بآثارها أجلا أو عاجلا؛ فالدولة تبقى، والعائلة تزول. ولئن أحلتّ السلطة العمومية محلّ الآباء وتكفّلت بهذه الوظيفة الهامة وأوفت بواجباتهم فكسبت حقوقهم، فإنّه لا داعي لهم للتشكّي، سيّما وأنّهم بهذه الصورة لا يغيّرون إلّا لقبهم، بحيث يصبح لهم معاً، تحت لقب المواطنين، نفس السلطة على أبنائهم التي كانوا يمارسونها على انفصال تحت لقب الآباء، ولن تكون إطاعتهم،

مقال في الاقتصاد السياسي

متى تحدثوا باسم القانون، أقلّ ممّا كانوا يتحدثون باسم الطبيعة. وعلى ذلك فإنّ التربية العمومية التي تخضع لقواعد تقرّها الحكومة، ولحكّام ينصبّهم صاحب المُلْك، إنّما هي أحد المبادئ الأساسية للحكومة الشعبية أو الشرعية. فلو تربى الأطفال في كنف المساواة معاً، ولو تشبّعوا بقوانين الدولة ومبادئ الإرادة العامة وتعلّموا احترامها فوق كلّ شيء، ولو كانت تحيط بهم أمثلة وأشياء لا تنفكّ تخاطبهم عن الأمّ الحنون التي تطعمهم، والحبّ الذي تكتنه لهم، والخيرات التي يتلقّون منها ولا تقدّر بثمن، والمعروف الذي ينبغي أن يشعروا به حيالها، فلا شكّ أنّهم بهذه الصورة سيَتعلّمون حبّ بعضهم بعضاً كالإخوة، وآلّا يريدوا أبداً إلّا ما يريده المجتمع، وأنّ يستعوضوا عن لغو السوفسطائيين الباطل العقيم بأعمال رجالٍ ومواطنين، وأنّ يصبحوا يوماً ما حُماة الوطن وأربابه بعدما كانوا طويلاً أبناءه.

لن أتحدّث عن الحكّام الذين يسهرون على هذه التربية، إذ هي بالتأكيد أهمّ شغل بالنسبة إلى الدولة. ونستشفّ أنّ علامات الثقة العمومية هذه لو مُنحت بلا تروٍّ، ولو لم تكن هذه الوظيفة الجليلة، بالنسبة إلى من أوفوا بكلّ الوظائف الأخرى بجدارة، مكافأة لأعمالهم ومنصباً للراحة الكريمة الناعمة في شيخوختهم وقمة للمجد، لكان المشروع كلّه لا طائل تحته وباءت التربية بالفشل؛ إذ حيثما يفتقر الدّرس إلى حُجّة، والأمر إلى قُدوة، لا يأتي التعليم ثمرته، والفضيلة نفسها تفقد معناها إذا نطق بها من لا يمارسها. لكن لئِلْقَن أفذاذ المحاربين الذين يرزحون تحت ثقل أكاليلهم معنى الشجاعة، وليعلّم القضاة النزهاء الذين برؤّت ذمتهم في المحاكم والأرجوان¹ معنى العدل، وسيكون لأولئك وهؤلاء ورثاء فضلاء، وسينقلون عصرا بعد عصر إلى الأجيال اللاحقة خبرة القادة ومهارتهم، وشجاعة المواطنين وفضيلتهم، وتنافس الجميع على العيش والموت في سبيل الوطن.

1- الأرجوان (La pourpre) مادة يستخلص منها اللّون الأرجواني، وهو لون ذو جمال ورونق جعل الملوك والحكّام (في يونان وروما العريقتين كما في بلدان وأزمنة أخرى) يحتكرونه لأنفسهم زينةً لثيابهم وبيوتهم إلخ...

لا أعرف سوى ثلاثة شعوب مارست في الماضي التربية العمومية، الكريتيون والمقدونيون والفرس القدامى ؛ كان نجاحها عظيما لدى الشعوب الثلاثة، وأتت بالمعجزات لدى الشعبين الأخيرين. ولما انقسم العالم إلى أمم عظيمة لدرجة أنّ حكمها بصورة جيّدة لم يعد ممكنا، لم تعد هذه التربية متاحة ؛ هذا زيادة على عوامل أخرى، يسهل على القارئ أن يدركها، حالت دونها عند أيّ شعب من الشعوب الحديثة. وأشدّ ما يلفت الانتباه هو أنّ الرومانيين لم يحتاجوا إليها ؛ بيد أنّ روما بقيت طوال خمسمائة سنة عبارة عن معجزة مستمرة، لا أمل للعالم في مشاهدتها مجددا. إنّ فضيلة الرومانيين، إذ تولدت عن مقتهم للطغيان وجرائم الطغاة وعن حبّهم الفطري للوطن، قد جعلت من كلّ ديارهم مدارس للمواطنين ؛ وإنّ سلطة الآباء اللاّ محدودة على أبنائهم قد خلقت من القسوة في تدبير الشؤون الفردية ما جعل الأب، إذ كان مهابا أكثر من القضاة، مراقبا للأخلاق في محكمته المنزلية وذائدا عن القوانين.

هكذا تستطيع الحكومة اليقظة وخالصة النية، إذ لا تنفك تحضّ الشعب على حبّ الوطن وعلى الأخلاق الحميدة أو تذكره بها، أن تحمي مبكرا من الشرور التي تترتب، طال الزمان أو قصر، عن عدم اكتراث المواطنين بمصير الجمهورية، وأن تمسك في حدود ضيقة بتلك المصلحة الشخصية التي تغزل الأفراد لدرجة أنّ الدولة تضعف جرّاء قوّتهم ولا يبقى لها ما يُرجى من طيب إرادتهم. فحيثما وُجد شعبٌ محبٌ لبلده، شعبٌ يحترم القوانين ويعيش ببساطة، كان الطريق سهلا لجعله سعيدا ؛ وفي الإدارة العمومية، حيث يكون للحظّ دور أقلّ ممّا يلعبه في مصير الأفراد، تكون الحكمة على مقربة من السعادة حتّى أنّهما تختلطان.

III - لا يقف الأمر عند وجود المواطنين وحمائهم، بل يجب التفكير أيضا في معاشهم ؛ وإنّ توفير الحاجات العمومية إنّما هو استجابة بديهية للإرادة العامة، وهو الواجب الأساسي الثالث للحكومة. وكما يجب أن نفهم، فإنّ هذا الواجب لا يتمثّل في ملء مخازن الخواص وإعفاثهم من العمل، وإنّما في إبقاء الوفرة في متناولهم حتّى يكون العمل دائما ضروريا للتمتّع بها

مقال في الاقتصاد السياسي

ولا يكون بلا فائدة أبداً. وهو يمتد أيضاً إلى كلّ العمليات المتعلقة ببيت المال ومصاريف الإدارة العمومية. وهكذا بعدما تطرّقنا إلى الاقتصاد العام في علاقته برعاية الأشخاص، بقي أن نتناول علاقته بإدارة الأملاك.

ولا يقدّم هذا الباب من الصعوبات التي ينبغي حلّها والتناقضات المطلوب رفعها أقلّ ممّا في الباب السابق. ولا شكّ أنّ حقّ المِلْكِيّة إنّما هو أكثر حقوق المواطنين قداسة، بل إنّّه بوجه ما أهمّ حتّى من الحرّية نفسها؛ وذلك إمّا لارتباطه الشديد بحفظ الحياة، أو لكون الأملاك إنّما اغتصابها يكون أسهل وحمايتها أصعب من اغتصاب شخص أو حمايته، بحيث ينبغي أن يكون احترامنا أكثر لما يمكن سلبه بسهولة أكثر، أو أخيراً لكون المِلْكِيّة هي الأساس الحقيقي للمجتمع المدني والضامن الحقّ للالتزامات المواطنين: إذ لو كانت الأملاك ليست ضامنة للأشخاص، لما وُجد أهوّن من تحاشي الواجبات وازدراء القوانين. ومن جهة أخرى، فمن الثابت أنّ حفظ الدولة والحكومة يتطلّب نفقات ومصاريف؛ ولَمّا كان كلّ من يريد الغاية لا يمكنه أن يرفض الوسيلة، فإنّه يترتّب أنّه لا بدّ لأعضاء المجتمع من الإسهام بأرزاقهم في حفظها. ثمّ إنّّه يصعب ضمان ملكيّة الأفراد من جهة دون مهاجمتها من جهة أخرى، ومن المحال أن تكون كلّ القوانين المتعلقة بنظام التّركّات والوصايا والعقود غير مضجرة بوجه ما للمواطنين بشأن ممتلكاتهم الخاصة، وبالتالي بشأن حقّهم في المِلْكِيّة.

لكن فضلاً عمّا قلته آنفاً عن التوافق السائد بين سلطة القانون وحرّية المواطن، هناك ملاحظة هامة لا بدّ من ذكرها، تتعلّق بأحكام الأملاك، ومن شأنها أن ترفع صعوبات جَمّة. ذلك أنّ حقّ المِلْكِيّة، كما بين «بوفندورف»¹، لا يتواصل بطبعه بعد حياة المالك، إذ حالما يتوفّى تخرج أملاكه من حوزته. وعلى ذلك فإنّ إقرار شروط تصرّفه فيها إنّما هو توسيع لحقه وليس تشويهاً كما يبدو في الظاهر.

1- «بوفندورف» Samuel von Pufendorf: فيلسوف ومؤرّخ ورجل قانون ألماني، عاش من 1632 إلى 1694، وهو أحد أقطاب مدرسة الحق الطبيعي. أممّ كتاب ألفه هو: الحق الطبيعي وحقّ الناس . De jure naturae et gentium (1672)

ورغم أنّ سنّ القوانين المنظّمة لحقّ الأفراد في التصرف في أملاكهم الخاصة يكون من مشمولات صاحب السلطة، فعموما ما تفيد روح هذه القوانين التي ينبغي أن تسهر الحكومة على تطبيقها بأن تبقى الممتلكات، خلفاً عن سلف، في دائرة العائلة قدر الإمكان وألاً تُترهّن. ويوجد لذلك سبب ملموس يخدم صالح الأبناء، إذ يكون حقهم في التملك بلا جدوى إن كانوا لا يرثون شيئاً عن أبيهم، ولأنهم فضلاً عن ذلك غالباً ما يسهمون بعملهم في كسب أرزاق الأب فيكونون شركاء معه في حقه. لكن هناك سبب بعيد آخر لا يقلّ أهميّة، وهو أنّه لا شيء يكون أشدّ وبالاً على الأخلاق وعلى الجمهورية من التغيرات المستمرة التي قد تطرأ على أحوال المواطنين وثرواتهم؛ وتكون هذه التغيرات حجة ومصدراً للشكّ والبلابل القالبة والمشوشة لكلّ الأوضاع، فإذا بالذين تربّوا لأجل غاية يجدون ضالّتهم في غاية آخر، فلا الذين يصعدون ولا الذين ينزلون يستطيعون السير على مقتضى القواعد والأضواء الملائمة لوضعهم الجديد، ولا حتّى أن يلتزموا بواجباته. أنتقل إلى موضوع الماليّة العمومية.

لو حَكَم الشعب نفسه بنفسه ولم يوجد أيّ وسيط بين إدارة الدولة والمواطنين، لكان عليهم أن يسهموا فقط في النفقات المشتركة متى اقتضى الحال، حسب الحاجات العمومية وحسب قدرات الأفراد الماليّة؛ وبما أنّه لن يغرب عن بال أيّ واحد أبداً استرجاع الأموال العامّة واستخدامها، فإنّها لن يطالها لا تحيّل ولا تجاوز؛ لن تصبح الدولة أبداً مثقلة بالديون، ولا الشعب منهكاً بالضرائب، أو على الأقلّ سيجد في الشغل القارّ مواساة على قساوة الضريبة. إلّا أنّ الأمور لا تجري بهذه الصورة، ومهما كانت الدولة محدودة فإنّ المجتمع المدني يكون على درجة من الكثرة بحيث لا يمكن أن يحكمه كلّ أفرادهِ. فلا بدّ أن تمرّ الأموال العمومية بالضرورة بين أيدي القادة، الذين يملكون جميعاً، فضلاً عن مصلحة الدولة، مصلحة شخصية، وهي ليست آخر ما يُنتصت إليه. وأمّا الشعب من جهته، إذ يدرك جشع القادة ونفقاتهم المفرطة أكثر ممّا يدرك الحاجات العمومية، فهو يتدمّر ممّن يُجرّدونه من الضروريات ويزيدون إلى كماليات غيره؛ وبعدما يقتاظ إلى حدّ ما من هذه التصرفات، لن تسترجع ثقته أيّة إدارة مهما كانت نواها. وبالتالي

مقال في الاقتصاد السياسي

فإذا كانت المساهمات نابعة من الإرادة، كان إنتاجها صفرا، وإذا كانت إجبارية، كانت غير شرعية؛ إن معضلة تأسيس إقتصاد حكيم وعادل تتمثل في هذا الخيار الأليم: إما أن نترك الدولة تهلك، أو أن نتعدى على حق الملكية المقدس إذ هو عمدها.

أول ما ينبغي أن يقوم به مؤسس الجمهورية، بعد أن يضع القوانين، هو البحث عن رصيد مالي كاف للإنفاق على القضاة وغيرهم من أصحاب الرتب والمناصب، كما للنفقات العمومية. يُطلق على هذا الرصيد إيراروم (rarium) أو بيت المال إذا كان يتألف من المال، وأملاكا عمومية إذا كان يتألف من الأراضي؛ وهذا أفضل كثيرا من الآخر لأسباب يسهل فهمها. وكل من يفكر مليا في هذا الموضوع لا يسعه إلا أن يشاطر رأي «بودان»¹، الذي كان يرى في الأملاك العمومية أفضل الطرق نزاهة وأمانة لتدبير حاجيات الدولة؛ وتجدر الإشارة إلى أن أول ما راعاه «روميليس»² في تقسيم الأراضي هو تسخيرها لهذا الغرض. أعترف بأن الأملاك، إذا ساءت إدارتها، قد لا تُنتج شيئا يُذكر، لكن ليس من طبيعة الأملاك أن تُساء إدارتها.

قبل أي استعمال، يجب أن يقرر الرصيد أو يصادق عليه من قبل مجلس الشعب أو مجلس ولايات البلد، وأن يحدد المجلس بعد ذلك سبل استعماله. وعلى إثر هذه الاحتفالية التي تجعل الرصيد غير قابل للتصرف فيه، تتغير هكذا طبيعته وتصبح محاصيله مقدسة لدرجة أن تحويل أدنى قدر منه على غير مجراه إنما ذلك يُعدّ، لا فقط أكثر السرقات شناعة، بل أيضا جناية على الملك. عازّ كبير لحق روما يوم كانت نزاهة مراقب المالية «كاتون»³

1- «جان بودان» Jean Bodin: فيلسوف ورجل سياسة وقانون فرنسي، عاش من 1529 إلى 1596، وأصدر سنة 1577 كتاب سمة مباحث في الجمهورية (Les Six Livres de la République) حيث ينظر للحكم الملكي المطلق ويدعو للفصل بين الدين والدولة.

2- «روميليس» Romulus: مؤسس مدينة روما في القديم، ولعله مجرد شخصية أسطورية.

3- «كاتون» Caton: رجل دولة وكاتب روماني، عاش من 234 ق.م. إلى 149 ق.م.؛ شغل خطة مراقب عام سنة 184 ق.م. وكان جازا وقاسيا حتى أنه رُفِعَ له تمثال نُقش عليه: «إلى «كاتون»، الذي هذب الأخلاق».

موضوع تعليق، ويوم احتاج إمبراطور، كان بصدد مكافأة مطرب ماهر ببعض الريالات، أن يضيف أن هذا المال من خزينة عائلته وليس من خزينة الدولة. لكن إذا كان أمثال «غالبا»¹ قلّة، فأين سنبحث عن أمثال «كاتون»؟ وإذا كُفّت الرذيلة عن أن تكون مصدر عار، فمن هم القادة الذين سيمنعهم ضميرهم من التهل من المداخليل العمومية المتروكة تحت تصرّفهم، والذين لن يوظّفوا منها لأنفسهم نصيبا، مازجين بين تبذيرهم الباطل الفاضح ومجد الدولة، بين وسائل توسيع نفوذهم ووسائل توسيع عظمتها؟ ففي هذا الفرع الحساس من الإدارة تكون الفضيلة وحدها الأداة الناجعة، وتكون نزاهة الحاكم الحائل الوحيد دون وقوعه في التقتير. إنّ دفاتر وكلاء الأعمال وكلّ سجلات حساباتهم لا تصلح لفضح خيانتهم بقدر ما تصلح لسترها؛ ولا يكون الإنسان الحذر أسرع أبدا في تصوّر احتياطات جديدة، ممّا يكون المحتال في مراوغتها. أتركوا إذاً الدفاتر والأوراق، وضعوا المالتية بين أيادي آمنه؛ فتلک هي الطريقة الوحيدة لإدارتها بإخلاص.

وبعدما يتم رصد الأموال العمومية، يتولّى رؤساء الدولة إدارتها بصورة قانونية؛ ذلك أنّ إدارتها جزء لا يتجزأ من الحكم، وجزء جوهري مع أنّه دائما متغيّر؛ فتأثيره يزداد طرّداً مع تناقص تأثير الذرائع الأخرى؛ ويجوز القول إنّ الحكومة تكون قد بلغت أقصى درجة من الفساد عندما لا يبقى لها محرّك آخر غير المال؛ ولما كانت كلّ حكومة تميل باستمرار إلى الارتخاء، فإنّ هذا السبب وحده يبيّن لماذا يتعذّر على كلّ دولة البقاء ما لم تتطوّر مداخلها دون انقطاع.

ويكون أول إحساس بضرورة هذا التطوّر علامة أولى على الاضطراب الداخلي للدولة؛ ولا يفوت المدير الحصيف، إذ يفكر في إيجاد المال لسدّ الحاجة الحاضرة، أن يتقصّى السبب البعيد لهذه الحاجة الجديدة؛ شأن البحار الذي يرى المياه تغمر سفينته فلا ينسى، بينما يشغل المضخّات، أن يبحث أيضا عن الثقب ويسدّه.

1- «غالبا، Galba»: إمبراطور روماني عاش من سنة 3 ق.م. إلى سنة 69 بعد الميلاد.

مقال في الاقتصاد السياسي

ويترتب على هذه القاعدة أهمّ مبدأ للإدارة الماليّة، وهو السّهر بعناية أكثر على تحسّب الحاجات بدلا من مضاعفة المداخل؛ إذ مهما بلغ الجهد، فإنّ التجارة إذ تحلّ ببطء بعدما يحصل الشرّ، تترك الدولة دائما في وضع أليم: فبينما يقع التفكير في معالجة عيب، يظهر عيب آخر في الحال، وتنتج الموارد نفسها عيوباً جديدة، فتثقل الديون في الآخر كاهل الأمتة، ويداس الشعب، وتفقد الحكومة كامل حيويّتها فتصبح لا تأتي إلاّ القليل بالمال الكثير. وأعتقد أنّ هذا المبدأ العظيم هو مصدر الخوارق التي شهدتها الحكومات القديمة، إذ كانت تأتي الكثير بشحّها وتقتيرها ممّا تأتيه حكوماتنا بكلّ ثرواتها؛ ولعلّ من هنا يشتقّ المعنى العامّي للفظ الاقتصاد، إذ يُقصد به التدبير الحكيم لما نملكه، أكثر منه وسائل كسب ما لا نملكه.

وبقطع النظر عن الأملاك العمومية التي تعود بالتفع على الدولة بقدر ما يتحلّى مديروها بالنزاهة، فلو كانت لنا معرفة كافية بكامل قوّة الإدارة العاقبة، سيّما عندما تقتصر على الطرق الشرعية، لاندھشنا ممّا للرؤساء من حيل لسدّ كلّ الحاجات العمومية دون المسّ بممتلكات الأفراد. فيما أنّهم أرباب التجارة في الدولة، فلا شيء أهون عليهم من تسييرها بما يستجيب لكلّ شيء، وفي الغالب دون أن يظهر تدخّلهم في الأمر. إنّ توزيع الموادّ الغذائية والأموال والسّلع بمقادير عادلة، حسب الزمان والمكان، إنّما ذلك هو سرّ الماليّة الحقيقي، وهو مصدر ثرائها، شريطة أن يشيّع مديروها نظرهم بعيدا، وأن يقبلوا أحيانا بخسارة ظاهرة قريبة من أجل أرباح طائلة حقيقية في زمن لاحق بعيد. وعندما نرى حكومة تدفع معاليم بدلا من قبضها، في سبيل تصدير القمح أعوام الوفرة وتوريده أعوام القحط، نكاد لا نصدّق بذلك ما لم نشهد الأمر بأعيننا، وقد نعزوه إلى الرومانيين لو كان حدث في القديم. لنفرض أنّه يتمّ، تحسّبا للمجاعة أعوام القحط، إقامة مخازن عمومية، فكم هو عدد البلدان التي لن تصبح فيها صيانة مثل هذه المؤسسات النافعة جدّا تعلّة لإقرار ضرائب جديدة؟ ففي جنيف، تمثّل هذه المخازن، القائمة على إدارة حكيمة تصونها، موردا عموميا في سنوات القحط، ومورد الدولة الرئيسي في

كلّ زمان. أليت وديتات¹، ذاك هو التّقش العادل الجميل الذي نقرأه على واجهة المبنى. فللحديث هنا عن النظام الاقتصادي لحكومة جيّدة، غالباً ما صوّبت نظري تجاه هذه الجمهورية : سعيداً بأن وجدت هكذا في وطني مثال الحكمة والسعادة اللّتين أوّد رؤيتهما سائدتين في كلّ بلد.

لو تأملنا كيف تزداد حاجيات الدولة، لتبيّننا أنّ شأنها في الغالب هو شأن الأفراد تقريباً، أي أنّ ذلك لا يحدث بموجب ضرورة حقيقية بقدر ما يحدث بسبب تفاقم الرغبات الباطلة، وأنّ في الغالب لا تتمّ الزيادة في المصاريف إلاّ تعلّة للزيادة في المحاصيل ؛ حتّى أنّ الدولة قد تجني ربها أحياناً متى لم ترغب في الإثراء، وحتّى أنّ ثراءها الظاهر قد يكلفها في الواقع أكثر ممّا يكلفها الفقر ذاته. صحيح أنّ ما يتمناه بعضهم هو إبقاء الشعوب في تبعيّة أكثر، وذلك بإعطائهم باليد اليُمْنى ما أخذ منهم باليسرى، فهذه السياسة هي التي توخاها «يوسف» مع المصريين ؛ إلاّ أنّ هذه السفسطة الباطلة تعود بالويل على الدولة باعتبار أنّ المال لا يعود إلى نفس الأيدي التي خرج منها، وباعتبار أنّ مثل هذه المبادئ لا تُثري إلاّ الكسالى الذين يسلبون الرجال الصالحين.

ومن أشدّ أسباب هذه الزيادة بروزاً وخطورة، الميل إلى الغزو. فهذا الميل، إذ يتولّد عادة عن طموح آخر غير الذي يُعلن عنه، لا يكون على نحو ما يبدو عليه دائماً، كما أنّ سببه الحقيقي ليس هو الرغبة الظاهرة في توسيع الأمة بقدر ما هو الرغبة الخفّية في الزيادة من سلطة الرؤساء بالداخل، بالزيادة في عدد الجنود وبمناسبة انشغال أذهان المواطنين بشؤون الحرب.

لكن ما يبدو مؤكّداً جدّاً على الأقلّ هو أنّه لا يوجد شعبٌ بائس مُداس أكثر من الشعوب الغازية، وأنّ نجاحاتها لا تزيد إلاّ في بؤسها ؛ وإن لم يعلمنا التاريخ ذلك، فإنّ العقل يكفي لإثبات أنّ الدولة كلّما عظمت أصبحت نفقاتها طرديّاً مرتفعة وباهظة ؛ لأنّه يجب على كلّ المقاطعات أن تساهم بوحداتها العسكرية، على حساب الإدارة العامة، فضلاً عمّا تنفقه كلّ مقاطعة على إدارتها الخاصة كما لو كانت مستقلة. زد أنّ كلّ الثروات تنشأ في

1- أليت وديتات Alit et Ditat : «يُعْذِي ويُثْري».

مقال في الاقتصاد السياسي

مكان وتستهلك في آخر، ممّا يُفقد التوازن بين المنتج والمستهلك ويُفقر العديد من البلدان ليُثري مدينةً واحدةً.

ويوجد سبب آخر، مرتبط بالسابق، لتزايد الحاجيات العمومية. فقد يحدث في فترة من الفترات أن يعرض المواطنون عن المصلحة المشتركة ويكفّوا عن الدّود عن الوطن، وأن يركن الحكّام إلى تسيير رجال من المرتزقة بدلا من الأحرار، وإن كان ذلك لمجرّد استخدام الأولين، في الظرف المناسب، لإخضاع الآخرين. هكذا كانت دولة روما في أفرول الجمهورية وتحت حكم الإمبراطورين؛ ذلك أنّ كلّ انتصارات الرومانيين الأوائل، كما انتصارات الإسكندر¹، قد تحقّقت بفضل مواطنين باسليين كانوا على استعداد لبذل دمايتهم في سبيل الوطن، لكن ليس لبيعها أبدا. كان «ماريوس» أوّل من جلب العار للفيالق في حرب «يوغرة»²، إذ أدمج فيها المعتقدين والمتشرّدين ومرترقة آخرين. أضحى الطغاة أعداء للشعوب التي كانوا تكفّلوا بإسعادها، فكوّنا فرقا منظّمة للحماية من الأجانب في الظاهر، لكن لقهر أهل البلد في الواقع. ولتكوين هذه الفرق، كان لا بدّ من إخلاء الأراضي من فلاحيها، ممّا أثر على جودة الحاصلات الزراعية، وممّا جعل صيانتها تستوجب من الضرائب ما زاد في سعرها. كان هذا الاختلال الأوّل دافعا لتذمّر الشعوب، فكان لا بدّ من مضاعفة فرق الجنود لقمعها، ومن تعميق البؤس بالتالي؛ وكلّما زاد اليأس، كان لا بدّ من الإضافة إليه، درءا لاستتبعاته. ومن جهة أخرى فإنّ هؤلاء المرتزقة، إذ كانوا يُقدّرون على أساس الثمن الذي يبيعون به أنفسهم، كانوا يفخرون بمذلتهم، ويحتقرون القوانين التي كانت تحميهم وإخوتهم الذين كانوا يطعمونهم، فظنّوا أنفسهم أقرب إلى المجد بالحووم حول «قيصر» ممّا بالدفاع عن روما؛ كانوا يطيعون طاعة عمياء، رافعين خناجرهم على

1- «الإسكندر»؛ هو «إسكندر المقدوني» أو «إسكندر العظيم»، أحد أشهر الغزاة الذين شهدهم التاريخ، عاش من 356 ق.م. إلى 323 ق.م.

2- «كابوس ماريوس»؛ Marius Caius: جنرال ورجل دولة روماني، عاش من 157 ق.م. إلى 86 ق.م. وعُرف بالإصلاحات التي قام بها في صلب الجيش الروماني.
يوغرة، Jugurtha: ملك نويميدي، حفيد «ماسينيسا»؛ وُلد في 160 ق.م. ومات في 104 ق.م.؛ عُرف بمقاومته الشديدة للرومانيين.

جان جاك روسو

مواطنيهم، رهن الإشارة لذبحهم جميعا. قد لا يصعب أن نبيّن أنّ ذلك كان أحد الأسباب الرئيسية في خراب الإمبراطورية الرومانية.

إنّ اختراع المدفعية والحصون قد أرغم ملوك أوروبا، في أيامنا هذه، على إعادة استخدام فرق الجنود المنظّمة للمحافظة على مواضعهم؛ وحتى لو كانت الدوافع تسم بمشروعية أكثر، فإنّ ما يُخشى هو أن تكون النتيجة على نفس الدرجة من الشؤم؛ إذ لا بدّ في كلّ الحالات من إخلاء الأرياف من سكّانها من أجل تكوين جيوش وحاميات؛ ولا بدّ، لرعايتها، من الدّوس على الشعوب؛ ومنذ زمن، أخذت هذه المنشآت الخطيرة في التكاثر السريع في كلّ ربوعنا، حتّى أنّ كلّ ما يمكن توقّعه هو إقفار أوروبا قريبا، وهلاك شعوبها عاجلا أو آجلا.

ومهما كان الأمر، فإنّ ما تجدر ملاحظته هو أنّ مثل هذه المنشآت تقلب بالضرورة النظام الاقتصادي الحقيقي الذي يستمدّ مدخول الدولة الرئيسي من الأملاك العمومية، ولا تترك سوى المورد الوحيد للجبايات والضرائب، وهو ما بقي لي تناوله.

يجب أن نتذكّر هنا أنّ أساس الميثاق الاجتماعي إنّما هو الملكية، وأنّ شرطه الأوّل هو أن يظلّ كلّ واحد ينعم في سلام بما يملكه. لا شك أنّ العهد نفسه يُلزم كلّ فرد، على الأقلّ بصورة مضمرة، بأن يُسهم في الحاجات العمومية؛ لكن لما كان هذا الالتزام لا يضرّ بالقانون الأساسي، وعلى اعتبار أنّ الذين يدفعون الضرائب يعترفون بصدق الحاجة إليها، فإنّا نرى أنّ هذا الإسهام، كي يتّصف بالشرعية، لا بدّ أن يكون إراديا، ليس بصورة فردية كما لو كان يجب الحصول على موافقة كلّ مواطن وكما لو كان عليه أن يسهم فقط بما يحلو له (فهذا يناقض مباشرة روح الحلاف والاتحاد)، وإنّما بناء على إرادة عامّة وعلى تعدّد الأصوات، كما على تعريفه تناسبية لا تترك مجالا لتعسف الضريبة.

مقال في الاقتصاد السياسي

هذه الحقيقة التي تنصّ على أنّ الضرائب لا يمكن أن تقرّر بصورة شرعية إلاّ بعد مصادقة الشعب أو ممثليه، إنّما أقرّها عموماً كلّ الفلاسفة وفقهاء القانون الذين اشتهروا بعلمهم في مجال الحقّ السياسي، دون استثناء «بودان» نفسه. ولئن وضع بعضهم مبادئ مخالفة في الظاهر، إلاّ أنّهم، فضلاً عما يسهل أن نراه من دوافع شخصية حملتهم على ذلك، يضعون من الشروط والقيود ما يجعل الأمر لا يختلف بتاتا في الواقع: إذ كون الشعب يستطيع أن يرفض، أو كون الملك ليس عليه أن يفرض، فهذا الأمران سيّان بالنظر إلى الحقّ؛ وإذا كان الأمر يتعلّق بالقوة لا غير، فلا جدوى إطلاقاً من تأمل ما يكون مشروعاً وما لا يكون.

وإنّ الضرائب التي تُجبي من الشعب نوعان: بعضها عينيّة تُجبي على الأشياء، وبعضها شخصية تُفرض على كلّ فرد. ويطلق على هذه وتلك الجباية أو الإتاوة: تُسمّى إتاوة عندما يحدّد الشعب مقدار ما يُخرجه، وتُسمّى جباية عندما يُخرج كامل مبلغ الضريبة. ونقرأ في كتاب روح الشرائع¹ أنّ الضريبة على الأفراد أخصّ بالعبودية، والضريبة العينية أكثر مواءمة للحرية. وقد لا نرتاب في ذلك إذا كانت حصص الأفراد في الضريبة متساوية، إذ تكون مثل هذه الضريبة في غاية عدم التناسب؛ فروح الحرية إنّما تكمن في احترام النّسب بكامل الدقّة. وتكون الضريبة على الأفراد مناسبة تماماً لمواردهم، شأن الضريبة التي يطلق عليها في فرنسا اسم الضريبة الرأسيّة، باعتبارها هكذا ضريبة عينيّة وشخصيّة معاً؛ فهي أكثر الضرائب عدلاً، وبالتالي أكثرها ملاءمة لأناس أحرار. ويبدو احترام هذه النّسب، أوّل الأمر، في غاية السهولة، إذ لما كانت تتعلّق بالمهنة التي يقوم بها كلّ واحد في الدّنيا، فإنّ البيانات تكون دائماً عمومية؛ غير أنّه، فضلاً عن التملّص ممّا لا مناص منه، بدافع الشّخّ والدّين والتزوير، فإنّه يندر أن تُحسب في تلك البيانات كلّ العناصر التي ينبغي احتسابها. أوّلاً، يجب اعتبار نسبة المقادير إذ تفرّض، عند تكافؤ الأمور، أن يدفع من كان يملك عشرة أضعاف ما يملكه غيره، عشرة أضعاف ما يدفعه. وثانياً، لا بدّ من اعتبار نسبة الاستعمال،

1- هو كتاب «متسكيو» Montesquieu, De l'esprit des lois (1748)

أي التمييز بين ما هو ضروري وما هو من الكماليات. فمن كان لا يملك سوى الضروري، لا واجب عليه بالدفع إطلاقاً؛ أما الذي يملك ما يزيد عن حاجته، فقد تطلّ ضروريته، إذا اقتضى الأمر، كلّ ما يزيد على الضرورة. لعلّه سيقول، بالنظر إلى منصبه، إنّ ما يكون زائداً على الحاجة عند الإنسان الأدنى إنّما هو ضروري بالنسبة إليه؛ لكن هذه أكذوبة؛ لأنّ شريف القوم يملك ساقين اثنتين، شأنه شأن راعي البقر، ويملك بطناً واحداً، ليس أكثر منه أيضاً. ثم إنّ ما يراه ضرورياً إنّما هو يفيد في منصبه بدرجة قليلة جداً حتّى أنّه لو تنازل عنه لغرض شريف لزاد احترام الناس له. قد يسجد الشعب أمام وزير يذهب إلى المجلس على قدميه بعد ما باع عربته الفاخرة بدافع ملجّ من الدولة. وأخيراً فإنّ الدولة لا تطلب البهاء من أحد، ولا تكون اللياقة حجة ضدّ الحقّ أبداً.

هناك نسبة ثلاثة يقع إهمالها دائماً، مع أنّها ينبغي أن تكون الأولى في الحسبان، هي نسبة الفوائد التي يجنيها كلّ واحد من الكنفدرالية الاجتماعية، التي تحمي جدّاً أملاك الثريّ الشاسعة، وتكاد لا تترك الشقيّ يتمتّع بالكوخ الذي بناه بيديّه. أليست مزايا المجتمع كلّها من نصيب العظماء والأثرياء؟ أليسوا وحدهم من يشغل الوظائف المربّحة؟ أليسوا وحدهم دون سواهم موضوع كلّ عطف وكلّ استثناء؟ أليست السلطة العمومية كلّها في خدمتهم؟ وإذا احتال رجل ذو شأن على دائته أو قام بأعمال نصب أخرى، ألا يكون دائماً بمأمن من القصاص؟ وإذا أشبع غيره ضرباً بالعصا واقترف أعمال عنف، بل إذا اغتال وقتل، ألا يقع إخماد هذه الأمور، فإذا مرّت ستّة أشهر دخلت طيّ النسيان؟ أمّا إذا تمّ سلبه هو بالذات، تحرّكت في الحال الشرطة برمتها، ويا ويل الأبرياء الذين سيشتبه فيهم. أيمرّ بمكان غير آمن؟ ها أنّ الحرس يحيطون به من كلّ جانب. أينكسر جُزء كرسيّته؟ ها أنّ الجميع يهرعون لنجدته. أيحدث ضجيج أمام بيته؟ ينطق بكلمة واحدة فيسود الهدوء. أنزعجه الزحمة؟ يقوم بإشارة فيصطفّ الجميع. أيسدّ طريقه سائق عربة؟ ها أنّ رجاله يبرحونه ضرباً؛ فإنّ يُسحق خمسون من المترجلين الصالحين القاصدين إلى شؤونهم أهون من أن يتأخّر موكب شخص تافه فارغ. كلّ هذه المراعاة لا تكلفه فلساً واحداً، فهي حقّ الإنسان الثريّ،

مقال في الاقتصاد السياسي

وليست جزاء الثراء. أما الفقير، فما أبعد صورته عن هذه ! فعلى قدر ما تدين له الإنسانية، ييخل عليه المجتمع : توصل في وجهه كل الأبواب، وإن كان من حقه أن يفتحها جميعا ؛ وإذا تم إنصافه أحيانا، كان ذلك بمسقة أكثر من مسقة غيره الذي يفوز بالعفو ؛ وإذا وُجد عمل مرهق، أو كان لا بد من اقتراع جيش وقتي، وقع الاختيار عليه ؛ فضلا عما يحمله من عبء، تراه يحمل دائما عبء جاره الثري الذي يحظى بالإعفاء منه ؛ إذا أصابه أقل حادث، ابتعد عنه الجميع ؛ وإذا انقلبت عربته المسكينة، فعوض أن يلقي المساعدة، تراه محظوظا لو نجا من إهانات عملاء دوق¹ شاب وتهافتهم عليه ؛ وباختصار فإنه لا يلقي أي مساعدة مجانية متى احتاج لها، لأنه لا يملك ما يدفعه في المقابل ؛ وقد يُكتب له الضياع لو شاء حفظه التحس أن يكون طاهر الذئيل، وأن يكون له جارٌ واسع الذراع وابنة حسناء.

ولا بد من الانتباه إلى أمر آخر لا يقل أهمية، وهو أن تعويض خسائر الفقراء يكون أصعب من تعويض خسائر الأثرياء، وعناء الكسب يشتد طردًا مع شدة الحاجة. إننا لا نأتي شيئا من لا شيء ؛ ويصدق ذلك في الأعمال مثلما يصدق في الطبيعيات ؛ فالأموال تولد الأموال، وقد يكون ربح البستول² الأول أشق أحيانا من ربح المليون الثاني. وهناك ما هو أدهى ؛ وهو أن كل ما يدفعه الفقير لا يسترجعه أبدا، بل يعود إلى الغني ويبقى عنده ؛ ولما كانت حصيلة الضرائب تعود، إن عاجلا أو آجلا، إلى الأشخاص الذين يشاركون في الحكم أو المقرّبين منه دون سواهم، فإن مصلحتهم تكون في مضاعفتها، وإن كانوا يدفعون حصّتهم.

لنلخص في أربع كلمات التعاقد الاجتماعي بين كلا الطرفين. فأنت تحتاج لي، لكوني غنيا ولكونك فقيرا ؛ فلنتفق إذا على أمر : سأسمح بأن ينالك شرف خدمتي، بشرط أن تقدّم لي القليل الذي بقي لك، مقابل العناء الذي سأتكبّده في تولّي أمرك.

1- دوق Duc : لقب شرف في فرنسا وبعض بلدان أوروبا.

2- بستول Pistole : عملة ذهبية أوروبية.

جان جاك روسو

لو ربّنا كلّ هذه الأمور جيّداً، لتبيّن أنّ تقسيط الضرائب بطريقة عادلة ومتناسبة حقّاً يفترض ألا يكون دفع الضريبة فقط على أساس أملاك المكلفين، بل أيضاً على أساس اختلاف أوضاعهم وزيادة أملاكهم على الحاجة. عمليّة جدّ هامة وجدّ شاقّة يقوم بها كلّ يوم عددٌ من الموظّفين التّزهّاء العارفين بالأرثمطيقا، لكن ما كان لـ«أفلاطون» و«متسكيو» أن يقوموا بها دون أن يرتعدوا ويطلبوا من السّماء مزيداً من العلم والنزاهة.

وهناك عيبٌ آخر للضريبة الشخصية، يتمثّل في شدّة وطأتها وقسوة جبايتها، ممّا يحول دون جدواها، لأنّه أهون على المرء أن يتملّص من جدول المكلفين وأن ينجو بنفسه من التّبعات، من أن يفعل ذلك بممتلكاته. ومن بين كلّ الجبايات الأخرى، كانت الجباية على الأراضي أو الجباية العينيّة تُعتبر دائماً الأكثر إفادة في البلدان التي تُعنى بموفور الإنتاج وضمان التغطية أكثر ممّا بأقلّ مضايقة للشعب. ولم يخش بعضهم حتّى أن يقول إنّّه لا بدّ من إئثار كاهل الفلاح كي ينهض من كسله، وإنّّه لن يحرك ساكناً ما لم يكن مطالباً بدفع أيّ شيء. إلّا أنّ التجربة تكذّب هذه القاعدة السخيفة لدى كلّ شعوب العالم: إذ في هولندا وإنجلترا، حيث يدفع المزارع القليل جدّاً، وفي الصّين حيث لا يدفع شيئاً يُذكر، تتمّ زراعة الأرض على أحسن وجه. وعلى العكس، كلّما أثقل كاهل الفلاح طرداً مع ما أنتجه حقله، تركه باثراً أو وقر منه بالضبط ما يقيم أوّده. ذلك أنّ الذي يخسر ثمرة جُهدّه، يكون رابحاً متى لم يجتهد؛ ووضع غرامة على العمل إنّما هذه طريقة جدّ غريبة للقضاء على الكسل.

وينتج عن الضريبة على الأراضي أو على القمح، سيّما إذا كانت مفرطة، ضرران فظيعان لدرجة أنّهما يتسببان، مع مرور الزمن، في خراب كلّ البلدان التي تُجبى فيها وفي إخلالها من سكّانها.

يترتّب الضرر الأوّل عن عدم تداول النقود، لأنّ التجارة والصناعة تجلبان للعواصم كلّ أموال الرّيف؛ وبما أنّ الضريبة تقضي على التّسبة التي قد لا تزال بعدّ موجودة بين حاجيات الفلاح وسعر القمح عنده، فإنّ المال يأتي

مقال في الاقتصاد السياسي

دائماً ولا يعود أبداً ؛ وكلّما زادت المدينة ثراء، زاد البلد بؤساً. وتتقلّ حصيلة الضرائب من أيدي الأمير أو المُتاجر بالأموال إلى أيدي الفئتين والتجار؛ أمّا المزارع، إذ لا يغم منها أبداً سوى مقدار ضئيل، فهو ينهك من دفع نفس المعلوم دائماً وقبض الأقلّ باستمرار. كيف تريدون أن يعيش إنسانٌ يملك أُرودة ولا يملك شرايين، أو تحمل شرايينه الدّم إلى القلب وتتوقّف قبل بلوغه بمسافة قليلة ؟ قال «شردان»¹ إنّ حقوق الملك على المؤونة، في بلاد فارس، كانت تُدفع له من ذات المؤونة ؛ وعلى حدّ شهادة «هيرودوت»²، لقد جرت هذه العادة في نفس البلد حتّى «دarius»³، وهي قد تساعد على اتّقاء الشرّ الذي تحدّث عنه. لكن أكاد لا أصدّق أنّ الملك يصله أدنى جزء من الحاصلات، وأنّ القموح لا تتعفن في المطامير، وأنّ التار لا تتلف معظم المخازن، اللهمّ إذا كان الأمناء والمديرون والموظفون وحرّاس المخازن في بلاد فارس نوعاً آخر من البشر غير الذين يوجدون في كلّ مكان.

ويترتب الضرر الثاني عن فائدة وهميّة تترك الشرّ يتفاقم قبل أن يقع التفتّن فيه. وهي أنّ القموح مادة غذائية لا ترفع الجباية من سعرها في البلد الذي يُنتجها، ورغم أنّها مادة ضرورية تماماً إلّا أنّ كمّيتها قد تنقص دون أن يرتفع ثمنها ؛ ممّا يجعل الكثير من الناس يموتون جوعاً بينما لا يزال ثمن القموح رخيصاً، وممّا يترك عبء الضريبة على كاهل الفلاح وحده إذ لا يستطيع أن يطرحها من سعر البيع. ولا بدّ أن نحذر من الخلط بين الضريبة العينيّة، والحقوق المسجّلة على كلّ البضائع إذ هي التي ترفع في سعرها، وهي تُدفع من طرف الشاري، لا من طرف التاجر. ذلك أنّ هذه الحقوق، مهما ارتفعت، إنّما هي مع ذلك إرادية، ولا يدفعها التاجر إلّا على قدر ما يشتريه من البضائع؛ وبما أنّه لا يشتري إلّا على قدر ما يبيعه

1- «جان شردان» Jean Chardin : عاش من 1643 إلى 1713، وهو كاتب ورخالة فرنسي معروف خاصّة بما رواه عن رحلاته إلى بلاد فارس وإلى غيرها من بلدان المشرق.

2- «هيرودوت» Hérodote : مؤرّخ يوناني عاش من 484 ق.م. تقريباً إلى حوالي 425 ق.م.، وينظر إليه على أنّه المؤرّخ الأوّل.

3- «دarius» Darius : كان ملكاً عظيماً للإمبراطورية الفارسية. عاش من حوالي 550 ق.م. إلى حوالي 486 ق.م.

بالتفصيل، فهو الأمر والنّاهي. أمّا الفلاح، إذ يكون مرغما، سواء باع أو لم يبيع، على دفع معاليم ثابتة الآجال على الأرض التي يزرعها، فهو لا يستطيع انتظار أن تُحدّد لمواذّه الأسعار التي يُريد؛ وحتى إن لم يبيعها ليقوم بأوّده، فهو سيضطرّ لبيعها كي يدفع الضريبة، بحيث أنّ ضخامة الضريبة هي التي تجعل أحيانا سعر الموادّ بخسّا.

لاحظوا أيضا أنّ موارد التجارة والصناعة، عوض أن تساعد أكثر على تحيّل الضريبة بما توفّره من المال، فهي تجعلها مكلفة أكثر. ولن أوكد قط على أمر بديهيّ جدّا، هو أنّ كمّية المال في الدولة، إن قلت أو عظمت، وإن جعلت الدولة محلّ ثقة أقلّ أو أكثر في الخارج، لا تتغيّر مع ذلك بأيّ حال من الأحوال من ثروة المواطنين الحقيقية ولا تزيد أو تنقص من راحتهم. غير أنّي سأقدّم هاتين الملاحظتين الهامتين: الأولى هي أنّه، باستثناء الحالة التي يكون فيها للدولة سِلْع فوق الحاجة وتكون وفرة المال ناجمة عن تصديرها إلى الخارج، تكون المدن التجارية هي وحدها التي تنعم بهذه الوفرة، بينما يزداد الفلاح فقرا؛ والثانية هي أنّه، لما كان ثمن كلّ الأشياء يرتفع طرّدّا مع تكاثر الأموال، كان لا بدّ أيضا أن ترتفع الضرائب بالمقارنة معها، بحيث يثقل كاهل الفلاح دون أن تزداد موارده.

ولا بدّ أن نفهم أنّ الضريبة على الأراضي إنّما هي ضريبة حقيقية على محاصيلها. ولكن كلّ واحد يُسلم بأنّه ليس أخطر من ضريبة يدفعها الشاري على القمح: فكيف لا نرى أنّ الشرّ يكون أعظم مائة مرّة إذا كان المزارع نفسه هو الذي يدفع هذه الضريبة؟ أليس هذا تهجّما على أسباب عيش الدولة؟ أليس هو العمل على إفقار البلد عاجلا، وبالتالي على خرابه أجلا؟ إذ لا تشكو الأمة قط جذبا أسوأ من جذب الناس.

إنّ من مشمولات رجل الدولة الحقيقي دون سواه، عندما يعتبر قاعدة الضرائب، أن يرقى بنظره إلى ما هو أرفع من مرام المالّية، وأن يحوّل الأعباء المكلفة إلى لوائح من التدابير المفيدة، وأن يجعل الشعب يتساءل ما إذا كانت مثل هذه الإنشاءات لا ترمي إلى خير الأمة أكثر منها إلى جبي الضرائب.

مقال في الاقتصاد السياسي

وإنّ الرسوم المفروضة على توريد السلع الأجنبية التي يرغب فيها السكّان دون أن يكون البلد بحاجة إليها، وعلى تصدير سلع من نوابت البلد ليس له منها ما يزيد على الحاجة، غير أنّ الأجانب لا يمكنهم الاستغناء عنها، وعلى ما تُنتجه الفنون غير النافعة والمُربحة جدًّا، وعلى النشاطات الترفيهية الصّرفة التي تقام في المدن، وعموماً على كلّ الكماليات، إنّما هي تفي بكامل هذا الغرض المزدوج: فمثل هذه الضرائب التي تخفّف عن الفقير وتُثقل على الثري هي التي ينبغي أن تمنع التفاوت المتفاقم بين الثروات، واستعباد الأثرياء لحشود من العَمّال والخُدّام بلا فائدة، وتكاثر العاطلين في المدن، وهجر الأرياف.

ويجدر أن تكون المعادلة بين سعر الأشياء والرسوم المفروضة عليها بما يجعل الأفراد لا يتغلب عليهم الجشع ولا يتحيّلون طمعاً في الأرباح الطائلة. ويجب أيضاً الحؤول دون سهولة التهريب، وذلك بتفضيل السلع التي يكون إخفاؤها أصعب. وأخيراً ينبغي أن يدفع الضريبة الشخص الذي يستعمل الشيء الذي فرض عليه رسم، لا بائع الشيء، وإلاّ كان حجم الرسوم التي يتولّاها هذا الأخير سبباً في إغرائه ودافعا للتحيل. هذا ما جرت به العادة في الصين، هذا البلد من العالم حيث توجد أكثر الضرائب ارتفاعاً وأفضلها إيفاءً: فالبائع لا يدفع شيئاً، والشاري وحده يفي بمعلوم الرسم، ولا يترتب على ذلك لا تدمر ولا تمرد؛ وبما أنّ الموادّ الضرورية للحياة، كالأرز والقمح، معفاة تماماً من الضريبة، فإنّ الشعب لا يشعر بالضّيم إطلاقاً، والضريبة لا ترصد إلاّ ميسوري الحال. ثمّ إنّ كلّ هذه الاحتياطات لا يجب أن يُملّوها الخوف من التهريب، وإنّما سعي الحكومة إلى حماية الأفراد من إغراءات الأرباح اللاّ مشروعة التي، بعد أن تجعل منهم مواطنين فاشلين، سرعان ما تحوّلهم إلى أناس لثام.

لنُفرض ضرائب مرتفعة على الكسوة والعُدّة والمرايا والثّريات والأثاث والمُماش والمُذهبات، وعلى ساحات القصور وحدائقها، وعلى العروض بكلّ أنواعها، وعلى المِهَن عديمة الفائدة كالبهلوان والمُغني والمُهرّج، وباختصار على جُملة موضوعات الترف واللّهو والفراغ التي تجلب الأنظار، والتي يتعذّر عليها أن تتحقّق في الخفاء إذ يقتضي استعمالها الظهور والجلّاء، وإذ تكون

بلا فائدة لو كانت لا تقبل المشاهدة. ولا تقلقوا من كون هذه الأمور تعود إلى اختيارات اعتباطية ولا تقوم على حاجة ضرورية قطعاً: إذ تكون معرفتنا بالناس ضيقة للغاية إذا اعتقدنا أنهم، متى أغراهم الترف مرةً، لن يستطيعوا أن يتخلّوا عنه أبداً؛ بل تراهم يزهدون في الضروري مائة مرةً ويفضّلون الموت جوعاً على أن يلحقهم العار. وتصبح الزيادة في الإنفاق سبباً جديداً لدعمه عندما يغدو التباهي بالشراء يستمدّ مكسبه من سعر الشيء ورسوم الضريبة. طالما وُجد أثرياء، فإنهم سيرغبون في التميّز عن الفقراء، ولن تجد الدولة مؤرداً أقلّ تكلفة ولا أكثر أماناً من الذي يقوم على هذا التمييز.

ولنفس السبب، لن تتأدّى الصناعة من نظام اقتصادي يُثري مالىّة الدولة، ويُنشط الفلاحة مع التخفيف عن الفلاح، ويُقرّب رويدا رويدا كلّ الثروات من ذلك الكفاف الذي يمثل القوّة الحقيقية للدولة. لا أنكر أنّ الضرائب قد تجعل بعض العادات الوقتية تمرّ بسرعة، لكن لن يكون ذلك أبداً إلّا لتعويضها بأخرى تكون مُربحة للعامل وغير مُفلسة لخزينة الدولة. وباختصار، فعلى افتراض أنّ توجّه الحكومة المستمرّ يتمثّل في فرض كلّ الضرائب على فائض الثروات، فإنّ الحاصل لا يتجاوز أحد أمرين: إمّا أنّ الأثرياء سيكفّون عن نفقاتهم الزائدة ويقتصرون على نفقات مفيدة تعود بالربح للدولة؛ وهكذا يكون لقاعدة الضرائب وقعٌ هو وقع أفضل القوانين المُقيّدة للنفقات المفرطة؛ وينقصان نفقات الأفراد تنقص نفقات الدولة بالضرورة؛ ومع أنّ خزينة الدولة ستري مداخيلها هكذا تقلّ، إلّا أنّ دفوعاتها ستقلّ أكثر؛ وإمّا أنّ الأثرياء لا يضعون حدّاً لتبذيرهم، فتجد خزينة الدولة في الجباية المورد الذي تريده للقيام بحاجات الدولة الحقيقية. في الحالة الأولى، تغتنى خزينة الدولة بسبب ما تشهده من نقص في نفقاتها؛ وفي الحالة الثانية، تزداد غنى بسبب نفقات الأفراد الباطلة.

نضيف إلى كلّ هذا تمييزاً هاماً في مادة الحقّ السياسي، ينبغي على كلّ حكومة أن تعيره اهتماماً شديداً وآلاً تبقى حريصة على أداء كلّ شيء بنفسها. لقد قلتُ إنّ الضرائب التي تُفرض على الأشخاص وعلى الأشياء الضرورية إطلاقاً، إذ تمسّ مباشرة بحقّ الملكية وبالتالي بالأسّ الحقيقي

مقال في الاقتصاد السياسي

للمجتمع السياسي، تكون مصدرا دائما لتناج وخيمة، إن لم يقع فرضها بموافقة الشعب أو ممثليه موافقة صريحة. لكن يكون الأمر مختلفا بالنسبة إلى الرسوم التي تُفرض على الأشياء التي يمكن الامتناع عن استعمالها؛ ذلك أن الفرد لا يكون مرغما تماما على الدفع، وبالتالي يكون إسهامه إراديا؛ بحيث يكون الرضاء الفردي لكل واحد من المكلفين بديلا للرضاء العام، بل يفترضه حتى بوجه من الوجوه؛ إذ لماذا سيعارض الشعب ضريبة تُفرض فقط على من يريد دفعها؟ يبدو لي من الثابت أن كل ما لا تبطله القوانين ولا تحرمه الأخلاق، ويمكن مع ذلك للحكومة أن تمنعه، فإنه يمكنها السماح به مقابل رسم معين. فعلى سبيل المثال، لو كان بإمكان الحكومة أن تمنع استعمال العربات الفاخرة، فإنه يمكنها من باب أولى أن تفرض ضريبة على العربات الفاخرة، وهذه طريقة حكيمة ومفيدة لدم استعمالها دون منعه. وبالتالي يمكن أن يُنظر إلى الضريبة على أنها نوع من الغرامة، تعويضا عن التجاوز الذي تُعاقب عليه.

قد يعارضني بعضهم فيقول إن الذين يسميهم «بودان، دجالين، أي أولئك الذين يفرضون الضرائب أو يختلقونها، بما أنهم يتمون إلى طبقة الأثرياء فإنهم لن يعملوا على مراعاة الآخرين على حساب مصالحهم الخاصة ولن يتكلفوا الضرائب تخفيفا عن الفقراء. لكن لا بد من الضرب بمثل هذه الأفكار عرض الحائط. إذ لو كان الملك، في كل أمة، يفوض الحكم في الجماهير لأولئك الذين يكونون في وضع عداوة معها، فلا فائدة إذاك من البحث فيما ينبغي عليهم فعله لكي يجلبوا لها السعادة.

ج. ج. روسو

محاولة في أصل اللغات

ترجمة : محمد محبوب

« Tâchons de suivre dans nos recherches l'ordre même de la nature, j'entre dans une longue digression sur un sujet si rebattu qu'il en est trivial, mais auquel il faut toujours revenir, malgré qu'on en ait, pour trouver l'origine des institutions humaines »

« فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته. وإني لمقدم هنا على استطراد طويل في موضوع قد أكل عليه الدهر وشرب حتى صار مبتذلاً. ومع ذلك، فلا بد من الرجوع إليه دائماً، حتى نقف على أصل المؤسسات الإنسانية. »

ج.ج. روسو،
محاولة في أصل اللغات

تصدير المترجم

ما الذي يمكننا قوله في حدود التصدير الضيقة عن المقاربة الروسية لأصل اللغات في المحاولة التي نقترح اليوم تعريها لها؟ سنقتصر على نقطتين اثنتين، لعلهما تكونان مدخلا ييسر الولوج إلى نص «روسو» أو يخفف على الأقل مما يقارن الالتقاء الأول به من صدمة مضاعفة: التباس غرضه وغربة عبارته. فنسأل عن موضوع المحاولة وعن وحدة قصدها العام وذلك سعيا إلى إدراك مدى تأثير «التداخل المشكلي» على العلاقة بين مسألة «سلطان الموسيقى على القلوب» ومسألة «أصل اللغات»، ثم إدراك مدى تأثير التداخل المشكلي بين هاتين المسألتين باعتبارهما مسألتين تقنيتين، أو باعتبارهما مسألتين مختصتين، على الأقل، من جهة، والمسألة العام أو المسألة الفلسفية لأصل المجتمعات، ولمدى ارتباط بنياتها بلغتها.

ذلك أنه تأتلف في محاولة «روسو» في أصل اللغات أوجه عدة وأبعاد مختلفة من فكره: فهو الفيلسوف، متسائلا عن وضع اللغة وأصلها، وعن بنية المجتمعات وطبعتها، وهو كذلك الفنان المجادل في الرسم التصويري والمحاكاة الموسيقية من حيث إثر جمالها في القلوب: فكيف تتوحد هذه المقاصد إذن، بحيث تؤدي إلى طرح مشكل أصل اللغات في علاقة حميمة بأصل المجتمعات، وتؤدي إلى تصوّر التعبير اللغوي في علاقة حميمة بالتعبير الفني موسيقى ورسما؟

بين البحث عن وسائل تبليغ أفكارنا، كتخطّ لحدود العزلة وخروج من عدم الحاجة، والطفان على المجال الخاص الذي تتركه الحياة المدنيّة

لأآخر، من خلال الاقتناع كخلق للحاجة، تمتد المحاولة في أصل اللغات، حاكية بذلك قصة المجتمع وعارضة من مشاهد تكوّنه ما يكاد يلهيك عن اللغات وأصلها. فهلاً تكون إذن محاولة في أصل المجتمعات من خلال المنشور اللغوي؟ ولكن مثل هذا المسعى يستلزم أن يكون المنشور اللغوي قد ناله بعد من التحليل والتركيب ما حصل به على مشروعيته المرجعية التي يقدر بها على أن يمثل منظورا أو منظارا يمكن تسليطه على الموضوعات المختلفة. ولكن شيئا منكل ذلك لم يحصل بعد.

فهل يكون الكتاب إذن محاولة في النظر إلى أصل اللغات من خلال منشور أصل المجتمعات، مثل هذا المسعى يقتضي أن يكون المنشور المجتمعي قد ناله ما لم ينل المنشور اللغوي، بحيث أصبح له من التقاليد ما يؤهله لكي يكون منظارا يسلط على الظاهرة اللغوية، منشؤها وتاريخها ولعاقبتها بغيرها من الظواهر.

وإنّ المرء لا ميل إلى الانخراط في صفّ هذا الافتراض الثاني، إذ تؤكدّه عدّة إنباتات، لعل أهمها ذاك الذي يعمد به «روسو» إلى الإجابة عن السؤال المتعلق بأصل المؤسسات الإنسانية: «وإني لمقدم هنا على استطراد طويل، في موضوع قد أكل عليه الدهر وشرب حتى صار مبتذلاً؛ ومع ذلك فلا بدّ من الرّجوع إليه دائماً، حتى نقف على أصل المؤسسات الإنسانية».

يتحدّد هذا الموضوع إذن على أنه المرجع والشاهد والحكم، في كل ما يتعلّق بالمؤسسات الإنسانية عامّة، وبالمؤسسة اللغوية على وجه الخصوص. ولكنّ الاتصال بهذا المرجع والعودة إليه لا تتمّ ضمن المحاولة إلا على وجه الاستطراد. ولعل الشأن في الاستطراد أنّ ما له من الشرعية لا يفوق من بعض الوجوه ما للشّجون التي للحديث. فإن كان ذلك، فإن المرور بمنعطف «المجتمعات الأولى» لا يكون إلا اصطناعاً لا خير فيه. ولكنّ الأمر على خلاف ذلك. فلا ابتذال الموضوع ولا طول الاستطراد بمغنيين لنا عن الانصراف إلى أصل المجتمعات. بل يظلّ الوقوف على أصل المؤسسات

الإنسانية بما فيها المؤسسة اللغوية مرهونا بالتذكير بمعطيات قد «أكل عليها الدهر وشرب».

بذلك تنبني المحاولة في أصل اللغات قولاً يتضمن في كل أجزائه إشارة إلى منجز، ويتدرج شوقاً إلى أصل الأصل، من أجل المرور به. فيكون الفصلان التاسع والعاشر أولي الفصول وآخرها، ونقطة انطلاقها ومآلها، متوسطين بذلك مسار الفصول العشرين، لكأنهما من كل واحدة منها المدخل والمخرج. ولا يكون الاستطراد ساعتها شجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه، بل قصد شوق تنشّد إليه الرّحال:

فأولى المشاهد مشهد الشوق ومشهد الحاجة، إذ يطلّ منهما المتوحد على الغير إطلالة الذي «تملّكه الرّعب» فحاجته نفي الآخر، وهّمّه الابتعاد عنه، ولكنّ حدّه الطبيعة. لا تولّد اللغات إذن من الحاجات الطبيعية، «فمن غير المعقول أن يكون مما يفرّق بينهم ما يجمعهم».

وثاني المشاهد مشهد الشوق إلى الآخر، حبا أو كرها، شفقة أو غضبا. فحاجة الإنسان هي الآخر وهّمّه الفعل فيه. وما بغير هذا الوجه تولّد اللغات: «إن كلّ الأهواء تقرّب بين الناس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التبعاد. فلا الجوع ولا العطش انتزاعا منهم أوّل التصويتات، بل الحبّ والكراهة، والشفقة والغضب. إن الثمار لا تفلت من أيدينا، فيمكننا أن نتغذى بها من غير كلام، كما أننا في صمت نطارد الفريسة التي نفتاتها، ولكن، إذا ما أردنا التأثير في قلب شاب، أو صدّ معتد أثيم، فإن الطبيعة تملّي علينا نبرات وصرخات وآثات».

تبدو اجتماعية الإنسان إذن محدّدة لنطقه باللغة. ولكن هذه الاجتماعية لا تحقق من كل شروط اللغة إلا أحدها، بل تقتضي اللغة أن يصاحب اجتماع الناس تولّد للأهواء والعواطف. ذلك أنّ الحاجات الطبيعية، إذ ما افترضنا أنها قادرة على تجميع الناس، وهو ما ليس دائما مؤكّدا، لا تولّد من اللغات إلا لغة الإشارة. أما لغة الصوت فلا تتولد إلا متى فاض القلب بالعواطف. لذلك

يحكي تولد الكلام تولد الهوى، ولذلك أيضا يحكي تبدل الكلام تبدل الهوى: فإذا تاريخ اللغات تاريخ تضاؤل حيويتها وتناقض شاعريتها، وإذا المجاز الأخاذ الذي كان فيها قد أمسى حقيقة حادة، وإذا الفكر الحالم قد أضحى فكرا مستنيرا يحكم على أحلامه الأولى بأنها أخطاؤه الأولى.

ولعل هذا التبدل قد بلغ قراره في الكتابة، إذ تقلب على اللغات عبقريتها، فلا يبقى فيها من طاقة التعبير شيء، بل يتحول كل ذلك إلى وضوح في المعنى ودقة في الأفكار. هكذا ينتقل إحياء نبرة النطق إلى صمم نبرة الرسم وبكمتها، فما عادت تحمل من حياة اللغة إلا ذكراها، ولكنها ذكرى ميتة:

«إذا المرء أضحى كل شيء يقوله كما لو كان يكتبه، لم يغد إلا قارئا يتكلم».

هكذا آلت نغمية اللغات الحديثة إلى علامات نغمية منقطعة عن الواقع النغمي، وهو ما يدل على أنها قد أضحيت لغات مكتوبة، بل وأنها حتى في نطقها مكتوبة، «فلو تكلم يهود اليوم بالعبرية لما فهمهم أجدادهم».

ولكن تتبع أثر هذا الضياع التاريخي للغة لا يمكن أن يغني عن التساؤل عن أصلها بل لعل ذلك التساؤل هو وحده الكفيل بأن يهدينا إلى فهم آلية هذا الضياع. فالفصلان التاسع والعاشر، يتوليان تحديد التكون الطبيعي للغات الشمالية والجنوبية، وهو ما تعلن عنه نهاية الفصل الثامن عندما تؤكد: «فلنعمل على أن نسائر في بحوثنا نظام الطبيعة ذاته!» لذلك تحكي الفصول الثمانية الأولى قصة تباعد اللغة عن الطبيعة. وذلك هو بالذات ما قصدنا. عند بداية هذا التصدير إذ قدّمنا أن استطراد الفصلين التاسع والعاشر «ليس شجن حديث قد كان يمكن الاقتصاد فيه، بل قصد شوق تشدّ إليه الرحال». ذلك أن العود إلى أصل تكوّن اللغات شمالا وجنوبا قد ورد في المحاولة في وقت قد بلغ فيه وصف ضياع اللغة آخر ما آلت إليه هذه الظاهرة، فهل من الصدفة أن ينتهي الفصل السابع بالتلويح إلى أبرد اللغات كلّها؟ ان العود إلى الأصل الغابر قد تمّ في زمن سبّج فيه الحاضر من الحضور ما لم

يعد معه الماضي إلا أشلاء من الذكريات. فلعل كثافة هذا الغياب (الذي للماضي) قد شحذت من الشوق ما اشتدّ به عزمًا على الوجهة الأولى. فإذا «القول في الأصل» ينتظم ساعة الأصل بعيد عن الذكر، عظم ما كان دفينا عمل الشوق !

ولكن ما يصوّره القسم الثاني من الكتاب (الفصول من 12 إلى 19) هو تباعد الموسيقى عن الطبيعة، فنسأل: هل يتعلق الأمر بمجرّد سرد لحكاية الموسيقى؟ وما مدى العلاقة بين هذه الحكاية وحكاية ضياع اللغة؟

«إنّ القصص الأولى والخطب الأولى والتواميس الأولى قد كانت شعراء. فلقد وُجد الشعر قبل النثر. ذلك ما حدث فعلا لأنّ الأهواء تكلمت قبل العقل. وكذلك كان شأن الموسيقى. فلم يكن ثمة في البداية من موسيقى إلا التغم ومن التغم غير ما يحدثه الكلام من تنوّع الصّوت». فإذا كان القول في الموسيقى (أي في التغم وفي المحاكاة الموسيقية) قد ورد في عنوان المحاولة كمجرّد موضوع من موضوعاتها: (محاولة في أصل اللغات، وفيها يتحدث [أيضًا] عن التغم وعن المحاكاة الموسيقية)، فإنّ الفصل الثاني عشر يسوّي بينه وبين القول في اللغات، من خلال المماهة بين كيفية انحطاطهما. فإذا الموسيقى اللّغة واللّغة الموسيقى ! «هل كان من العجب أنّ أوّل النّحاة قد أخضعوا صناعتهم إلى الموسيقى، وأنّهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين؟ أنّ لغة ليست لها إلا المقاطع والتصويّات لا تملك إذن إلا نصف ثروتها. صحيح أنّها تؤدي أفكارًا ولكنها إذا ما أرادت أن تؤدي مشاعر أو صورًا احتاجت مع ذلك إلى إيقاع وأصوات أي إلى نغم».

هكذا تتوالى مشاهد قصّة الموسيقى عارضة تبدّد ثروتها من خلال انقطاعها عن التصوير والمحاكاة وانشغالها بالتصاوت والاصطناع. وذلك هو معنى الجدل العنيد بين «روسو» و«رامو» حول «سلطان الموسيقى على القلوب»، أنغمي هو أم تصاوئي. وراء ذلك الجدل جدلٌ في الطّبيعة الاصطناع، وبين حيوية العواطف وتلقائيتها من جهة وبرودتها القاتلة من جهة أخرى.

ولكن الأهم من كل ذلك، هو أنّ وراء قصة الأصل والضياع التي هي قصة اللغة والموسيقى، ثمة قصة «الإنسان» و«الجثة». فهلاًّ وجب ساعتها أن تكون المحاولة عرضاً لقصة الإنسان من خلال المنشور اللغوي أي من خلال منشور التعبير بوجوه التصويرية المختلفة، التصوير اللغوي، والتصوير الموسيقي، والتصوير بالرسم، إلخ؟

لا نريد أن نختم هذا التصدير السريع، قبل أن نذكر بأنّ كلّ ترجمة إنّما هي محاولة لا نطاق النصّ في لغة غير لغته، ولكن انطلاقاً من شيء يظنّ شيئه هو لا شيئاً آخر. ولذلك فهي عمل لا تنفكّ تنازعه مقتضيات الأمانة، وذلك لا للحفاظ على المعنى فحسب، فذلك أضعف الإيمان، ولكن للحفاظ كذلك على «المناخ» الأسلوبي وعلى «العوارض» التعبيرية التي قد لا يكون لها كبير أثر في المعنى المباشر، ولكن ما أعظم ما يكون أثرها وما أعظم ما تكون مناصرتها لمجهودات التّفاذ إلى بنية النصّ العميقة لذلك، فلقد يعمد البعض ممّن ألفوا التسرّع في الفتوى إلى أن يعيب على هذا النصّ لجوئه إلى تعابير قد لا تتماشى مع حقّة عبارة هذا العصر. ولكن، «على قدر أهل العزم تأتي العزائم...» فلقد كان علينا أن نختار بين أن نغالي في إخضاع «روسو» إلى مقتضيات عصرنا أو أن لا نغالي.

مهما يكن من أمر، فإنّنا لا نشكّ قطّ، في أنّ هذا العمل مُلاقٍ من لدن قرائه عينا وسطاً بين عين الرضى وعين السخط؛ فحسبه أن يحظى من تلك العين بما قد يصلح من شأنه أن قدّر له أن يتدارك أمره، أو من شأن صاحبه أن هو أقدم على مغامرة أخرى.

محمد محبوب

تنبيه خاص بهذه الطبعة

لقد صدرت هذه الترجمة مرّة أولى عن الدار التونسية للنشر، في تونس، سنة 1984، ونفدت من السوق نفاذا كاملا. ولذلك فالمركز الوطني للترجمة يعيد اليوم إخراجها للناس بناء على توصية فريق ترجمة الآثار الفلسفية وبعد أن تفضّل بمراجعتها الأستاذ القدير جلال الدين سعيد، وأن أصلحنا بعض ما اعترأها من الهنات الشكلية في طبعتها المشار إليها.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مقالة المحاولة ظلت في الأصل الفرنسي تكتب وتتعهد من سنة 1754 تاريخ وضع خطوطها العامة إلى سنة 1781 تاريخ صدورها ضمن المجلد الثالث من أعمال «روسو» المنشورة بعد مماته. ويكاد يجمع الدارسون على أنها اكتملت سنة 1761. وقد اعتمدنا نحن النشرات التالية :

- Rousseau : *Essai sur l'origine des langues*, éd. par Ch. Porset, Ducros, Bordeaux, 1968
- Rousseau : *Essai sur l'origine des langues*, Préface et commentaire par Jean-louis Schefer, Presses Pocket, 1990
- Rousseau : *Essai sur l'origine des langues*, Intr. Notes et bibliographie par Catherine Kintzler, GF- Flammarion, Paris, 1993.

محاولة في أصل اللّغات

(وفيها يتحدّث عن النّغم وعن المحاكاة الموسيقيّة)

الفصل الأول

في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا

يميز الكلام الإنسان عن الحيوانات. وتميّز اللّغة الأمم بعضها عن بعض، فلا تعرف نسبة إنسان ما إلّا بعد أن يتكلّم. ويحمل الاستعمال والحاجة كلّ امرئ على أن يتعلّم لغة بلاده. ولكن ما الذي يجعل تلك اللّغة هي لغة بلاده لا لغة بلاد أخرى؟ إنّ الإجابة عن ذلك تقتضي الرّجوع إلى سبب ما، يرتبط بالمكان، ويكون سابقاً على العادات عيناها: فالكلام بما هو أوّل مؤسّسة اجتماعيّة، إنّما يدين بشكله إلى أسباب طبيعيّة.

فما ان تعرّف بعضهم على بعض كائناتاً حاسّاً ومفكّراً وشبيهاً به حتّى دفعه الشّوق وحاجة إبلاغه مشاعره وأفكاره إلى البحث عن وسائل ذلك الإبلاغ. وهذه الوسائل لا تُستمدّ من غير الحواسّ، إذ هي الآلات الوحيدة التي يمكن بها للمرء أن يؤثّر في غيره. وهامي العلامات الحسية تُجعل إذاً للتعبير عن الفكر. إنّ الذين اخترعوا اللّغة لم يستخدموا هذا البرهان. ولكن حدسهم أوحى لهم بنتيجته.

إنّ عامّة الوسائل التي نقدر بها على التأثير في حواسّ الغير تنحصر في اثنتين هما الحركة والصّوت، ويكون فعل الحركة إمّا مباشراً باللمس أو غير مباشر بالإشارة. ولما كان حدّ الفعل الأوّل طول السّاعد، فإنّه لا يمكنه التّبلغ عن بعد، في حين يمتدّ الثّاني بقدر ما يمتدّ شعاع البصر. وهكذا لا يبقى إلّا البصر والسمع عضوين من أعضاء اللغة منفعلين بين أناس مشتين.

ولئن كانت لغة الإشارة ولغة الضوت طبيعيتين على حدّ سواء، فإنّ الأولى أيسر (من الثانية) وأقلّ خضوعاً للمواضعات. فإنّ ما يمثل إلى أبصارنا من الأشياء أكثر ممّا يبلغ منها إلى مسامعنا، والأشكال أشدّ تنوعاً من الأصوات، كما هي أشدّ تعبيراً وأكثر إحياء في أقلّ وقتاً. فمن الحب جاء الرسم كما يقال. ومنه الكلام أيضاً ولكن بأقلّ سعداً. وها هو مزدريه لفرط ما هو غير راض عنه. فإنّ له من أساليب التعبير ما هو أحياء؛ ألا فلکم شيئاً تقول لحبيبها تلك التي ترسم في لذة قصوى خياله ! ولكم كان يلزمها أن تستخدم من الأصوات لو عبّرت عن حركة العصا تلك !

إن إشاراتنا لا تعني غير حيرتنا الطّبيعيّة. ولكّني لا أريد أن أتحدّث عن تلك الإشارات. فالأوروبيون، دون سواهم، يوثقون عند الكلام: لكأنّ كلّ قوّة ألسنتهم قد آلت إلى سواعدهم. ويزيدون عليها قوّة الرّتين. وكلّ ذلك لا يجديهم نفعا. ففي حين يتخبّط الفرنسي ما أمكنه، ويشبع هامته تعذيباً بكثرة ما يقول من الكلام، ينخي التركي غليونه عن فمه هنيئة ثمّ يتمتم بكلمتين ويجهز عليه بجملة واحدة.

لقد نسينا فنّ الإشارات منذ أن تعلّمنا الإشارة: تماماً مثلما أنّنا بالكثير من كتب النحو الأنيقة لم نعد نفقه رموز المصريين. فإنّ القدماء لم يألّفوا التعبير بالألفاظ عن أحزّ ما كانوا يقولونه، بل بالإشارات : ما كانوا يقولونه ولكن كانوا يبدونه.

فلتفتحوا كتب التاريخ القديم، لتجدّتها تعجّ بهذه الأساليب من البرهنة التي تخاطب العيون فلا يفوتها أبداً أن تخلف من الآثار ما هو أوثق ممّا تخلفه الأقوال التي كان بالإمكان إبدالها بها. إن الشّيء، إذا ما عُرض علينا قبل التكلّم عنه، يهزّ الخيال هزّاً، ويشير حبّ الاطلاع ويستولي على القلب شوقاً وارتقاباً لما سيقال. ولقد لاحظت أنّ الايطاليين وسكان مستعمرات روما يجدون فيما تعوّدوه من سبق الإشارة عندهم على القول، وسيلة يجعلون بها الناس أحسن استماعاً إليهم بل وأشدّ التذاذاً بذلك. ولكن أبلغ اللغات هي تلك التي الإشارة فيها قد قالت كلّ شيء من قبل الكلام. أفلم يكن

محاولة في أصل اللغات

«تاركينوس» [Tarquin] و«ترازيبولس» [Trasibule] وهو يقطع رؤوس الخشخاش، و«الإسكندر» وهو يجعل ختمه على فم نديمه، و«ديوجينس» [Diogène] وهو يتجول أمام «زينون» [Zénon]، أفلم يكن هؤلاء يعتبرون بأحسن من الكلمات؟ فأني دور من الكلام قد كان يعتبر مثلما عبروا عن تلك الأفكار بعينها؟ وهاهو «داريوس» [Darius] وقد توغل بجيشه في اسكوثيا يصله من ملك الاسكوث ضفدعة وعصفور وفأر وخمسة سهام، هدية يسلمها الرسول في صمت ثم ينصرف. ولكن خطابه الفاجع قد فهم، فلم يزل أؤكد على «داريوس» من الرجوع إلى بلاده كييفا أمكنه. فلتعوضوا هذه الرموز برسالة: لَيْتُضَاءَلَنَّ هولها بقدر ما يتعالى تهديدها. إن هي إلا هذر، وما كان «داريوس» إلا مستخفاً بها.

عندما عزم «لاوي أفرائيم» [Le lévite d'Ephraïm] على أن يثار لموت زوجته، فإنه لم يكتب إلى قبائل بني اسرائيل؛ بل قسم الجثة إلى اثنتي عشرة قطعة وأرسل بها إليهم. فلما أن رأوا ذلك المشهد، أسرعوا إلى السلاح صراخا بصوت واحد: «كلاً، ما كان مثل هذا أبداً في اسرائيل، من يوم أن خرج أبائنا من مصر إلى اليوم». وأبيدت قبيلة بنيامين¹. فلو كان ذلك اليوم لتقلبت القضية بين المرافعات والمجادلات، وربما الفكاهات، ولتأجلت إلى غير نهاية، ثم لظل أبشع الأثام بدون جزاء. كذلك نذكر «شاول» [Saül] الملك حين عاد من الحرب، فقطع ثيران محراثه قطعاً عديدة، ثم استخدم رمزا مماثلاً ليحمل به بني اسرائيل على أن يخفوا لنجدة مدينة يابيش [Jabés]. إن أنبياء اليهود ومشرعي اليونان، قد كانوا بما يقدمونه غالباً من الأشياء المحسوسة للشعب، أبلغ مما لو خاطبوه بمقالات طويلة. وإن الأسلوب الذي يذكر به أثيني [Athénée] أن الخطيب «هيريدي» [Hypéride] برأ أفريني المومس من دون أن يحتاج للدفاع عنها بكلمة واحدة لهو كذلك فصاحة صامته ليس يندر أثرها في كل الأزمان.

وهكذا فإننا نخاطب العيون أحسن ممّا نخاطب الأذان. فليس ثمة من لا يشعر بصدق حكم «هوراسيوس» [Horace] في هذا الصدد. بل إننا نرى أن

1- لم يبق منها (على قيد الحياة) إلا ستمائة رجل، بلا نساء ولا أطفال.

أبلغ الخطب هي تلك التي نضمناها أكثر ما يمكن من الصّور، وأن ليس للأصوات من القوّة أكثر مما لها عندما تفعل فعل الألوان.

أما إذا ما تعلق الأمر بأن نؤثّر في القلب ونُلهبّ العواطف، فذلك شأن آخر تماما؛ إنّ الانطباع الذي يعقب الخطاب، فيكون له وقع مضاعف، ليخلّف في المرء أثرا مختلفا عن ذلك الذي تخلفه فيه رؤيته للشئ ذاته ماثلا لحما ودما فيحيط به المرء في طرفة عين : فلتتخللوا وضعا جدّ عاديّ من الألم؛ من الصعب أن يصل بكم التأثير من مجرد رؤية الشخص المصاب إلى حدّ البكاء. ولكن دعوا له من الوقت ما يكفي ليحدثكم بكل ما يحس، إذا لتجهشّس لتوكم بالبكاء. وما بغير هذا الوجه تفعل فينا مشاهد التراجيديات فعلها¹. ان التمثيلية الإيمائية التي لا كلام فيها، هي وحدها تتركنا في دعة. أما الخطاب الذي ليس فيه إيماء فيتزعج الدموع ممّا انتزعا. للعواطف إيماءاتها ولكن للعواطف أيضا نبراتها. وان هذه النبرات التي تزلزل علينا الأرض، والتي لا يمكن أن نصمّ عنها أذاننا لتسلّل منها إلى صميم القلب فتحمل إليه رغم أنفسنا الحركات التي تنتزعها وتجعلنا نحس بما نسمع. فلنستتج إذن أنّ ما نراه من الإشارات يزيد من دقّة المحاكاة، ولكن إثارة الاهتمام أنجع بالأصوات.

ذلك ما يجعلني أعتبر أنّه لو لم تكن لنا قطّ غير حاجات طبيعيّة لأمكننا جدّا أن لا نتكلّم أبدا وأن نفاهم على التّمام بمجرد لغة الإشارة، ولكان بمقدورنا أن نقيم مجتمعات لا تختلف كثيرا عمّا هي عليه اليوم أو هي أصوب تدرجا نحو هدفها وأن نؤسس قوانين ونختار قادة ونخترع فنونا ونقيم التجارة وباختصار أن نعمل من الأشياء بقدر ما نعمله منها بفضل الكلام. أن لغة رسائل «السلام»² لتحمل من دون ما خشية للرقب أسرار الغزل الشرقي عبر

1- لقد بينت في موضع آخر لماذا يؤثّر فينا التظاهر بالأحزان أكثر مما تؤثّر فينا الأحزان الحقيقيّة، كمثّل من يبكي أثناء عرض مسرحية مأسوية في حين أنّه لم يشفق في حياته على أي مسكين. ان اختراع المسرح لهو اختراع رائع يتفخ منه كبرياؤنا بكل الفضائل التي ليست لنا في الحقيقة أصلا.

2- «SALAM» هي ألوان عديدة من أبسط الأشياء، كبرقالة أو رداء أو فحم أو غيرها من الأشياء التي يكون لارسالها معنى معروف عند المحبّين داخل البلد الطي تتداول فيه هذه اللغة.

محاولة في أصل اللغات

أشدّ الأحاريم مناعةً. وإنّ بكم الرحمان يتفاهمون فيما بينهم كما يفهمون كلّ ما يقال لهم بالإشارة تماماً مثلما يمكن قوله بالكلام. فالسيد «بيرير» ومن مثله ممّن يعلمون البكم لا أن يتكلّموا فحسب ولكن أيضاً أن يعوا ما يقولون، إنّما هم مجبورون على أن يعلموهم قبل ذلك لغة أخرى، لا تقل تعقيداً، يمكنهم بواسطتها أن يفهموهم تلك اللغة.

ويذكر «شاردان» أن الباعة الدالّين في جزر الهند يمسك بعضهم بأيدي البعض ويغيرون من أساليب تلامسهم بحيث لا يتفطن إليهم أحد، فيعقدون بذلك كل صفقاتهم سرا على رؤوسي الملائ، ومن غير أن يتبادلوا كلمة واحدة. إن هؤلاء الدالّين، وإن فرضناهم عمياً، صمّاً، بكمّاً، لن يكونوا أقلّ تفاهماً فيما بينهم : وهو ما يبين أننا نقدر بالاقترصار على أحد الحسنيين اللّذين بهما فعاليّتنا، على أن نجعل لأنفسنا لغة.

ويظهر من الملاحظات عينها أن اختراع فن تبليغ أفكارنا ليس مديناً للأعضاء التي تخدم هذا التبليغ بقدر ما يرجع إلى ملكة تخص الإنسان هي التي تجعله يستخدم لتلك الغاية أعضاء بل تحمله، إذا ما انعدمت تلك الأعضاء، على أن يستخدم غيرها لعين تلك الغاية. هبوا للإنسان هيئة ماء، مهما كانت غير مكتملة. فإنه سيكتسب لا محالة أقلّ أفكاراً. ولكن يكفي أن يكون بينه وبين نظرائه وسيلة ما للتواصل يقدر بها بعضهم على الفعل وبعضهم على الأحاسيس، حتى يتمكنوا في النهاية من أن يتبادلوا من الأفكار بقدر ما عندهم منها.

ان الهيئة التي للحيوانات لتفي بأكثر مما يحتاجه هذا التواصل. ومع ذلك فلا واحد منها استعملها. فليت شعري، هو ذا فرق مميز حقاً! إنني لا أشك قط في ان التي تعمل من الحيوانات وتعيش معاً، لاسيما القنادس والنمل والنحل، تملك لغة طبيعية ما، تتواصل بها فيما بينها. بل ثمة حتى ما يدعو إلى الاعتقاد بأن لغة القنادس ولغة النمل إنما هي لغات إشارة ولا تخاطب إلا العيون. ومهما يكن من أمر فإن هذه اللغات وتلك، بما هي طبيعية، ليست مكتسبة. والحيوانات التي تتكلم بها إنما تملكها منذ الولادة. ولكن

جان جاك روسو

الحيوانات نفس اللغات في كل مكان، فلا تستبدّ لها ولا تحقق فيها أدنى تقدم. أما لغة التواضع فهي لغة الإنسان وحده. هو ذا ما يجعل الإنسان يحقق تقدما في الخير أو في الشر، وما يجعل الحيوانات لا تحقق منه شيئا. إن مجرد هذا التمييز ليبدو عميق الأبعاد؛ ويقال أن تفسيره يكون بالرجوع إلى اختلاف الأعضاء. لكم أودّ معرفة هذا التفسير العجيب.

الفصل الثاني

في أن أول اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء.

ثمة اذن ما يحمل على الاعتقاد بأن الحاجات قد أملت علينا أول الإشارات، وأن الأهواء قد انتزعت منا أول التصويتات. ولعلنا، اذا ما تتبعنا أثر الأحداث بالاعتماد على هذه التميزات، ملزمون بالتفكير في أصل اللغات بأسلوب مختلف جدًا عن الأساليب التي اتبعت إلى حد الآن. أن عبقرية اللغات الشرقية، وهي أقدم ما هو معروف لدينا من اللغات، تكذب تكذبا مطلقا ما نتخيله عن تكونها كتدرج في التعلم. فليست هذه اللغات من المنهج والمعقول في شيء، بل هي حية ومجازية يراد إقناعنا بأن لغة الأولين هي لغات هندسيين في حين نرى أنها لغات شعراء.

لا بد أن ذلك هو ما كان. فإنهم لم يبدأوا بالتفكير، بل بدأوا بالإحساس. ويدعي بعضهم أن البشر إنما اخترعوا الكلام للتعبير عن حاجاتهم. يبدو هذا الرأي غير مقبول. فإن المفعول الطبيعي للحاجات الأولى إنما كان تفريق الناس لا تقرب بعضهم من بعض. لقد كان ذلك ضروريًا لأن يمتد النوع وأن تعمر الأرض بسرعة، إذ لولاها لتكدس الجنس البشري في ركن من العالم وظل ما بقي منه مقفرا. ويتج بوضوح من مجرد ما ذكرناه أن أصل اللغات ليس سببه حاجات البشر الأولى. فمن غير المعقول أن يكون ممّا يفرّق بينهم ما يجمعهم. من أين يمكن أن يكون هذا الأصل إذن؟ هو من

جان جاك روسو

الحاجات الأخلاقية ومن الأهواء. إن كلّ الأهواء تقرب بين الناس الذين تجبرهم ضرورة البحث عن العيش على التّباعّد. فلا الجوع ولا العطش انتزعا منهم أوّل التّصويّات، بل الحبّ والكراهة والشفقة والغضب. إنّ الثمار لا تفلت من أيدينا، فيمكننا أن نتغذّى بهام نغير كلام. كما أنّنا في صمت نطارد الفريسة التي نريد أن نفتاتها. ولكن، إذا ما أردنا التأثير في قلب شاب، أو صّدّ معتد أثيم، فإنّ الطّبيعة تملي علينا نبرات وصرخات وأثبات. تلك هي أقدم الكلمات المخترعة، وذاك هو ما جعل اللّغات الأولى شادية عاطفيّة قبل أن تكون بسيطة منهجيّة. إنّ كلّ ما تقدّم لا يستقيم بدون تمييز. ولكّني سأعود إليه فيما يلي.

الفصل الثالث

لابد أن اللغة الأولى قد كانت مجازية.

لما كانت الأسباب الأولى التي دفعت الإنسان إلى التكلم هي العواطف، فإن تعابيرها الأولى كانت استعارات. لقد كانت اللغة المجازية هي أول ما تولد. أما الدلالة الحقيقية فكانت آخر ما اهتدي إليه. فإن الأشياء لم تسم باسمها الحقيقي إلا عندما تمت رؤيتها في شكلها الحقيقي. ففي البداية لم يتكلم الناس الا شعرا ولم يخطر ببالهم أن يفكروا إلا بعد زمن طويل.

ولكنني أحسّ ههنا أنّ القارئ يستوقفني ويلتمس أن أبين له كيف يمكن أن يكون التعبير مجازيا قبل أن تكون له دلالة حقيقية، إ المجاز انما يكون في تحوّل المعنى، وإني لمقرّ بذلك، غير أنّه يجب لفهمي أن تعوّض الكلمة التي ننقلها بالفكرة التي تقدّمها لنا العاطفة. فإننا لا ننقل الكلمات إلا لأننا ننقل الأفكار. فلو لم يكن ذلك لما كانت اللغة المجازية تعني شيئا. سأردّ إذن بمثال:

لو أنّ رجلا متوحّشا صادف غيره من المتوحّشين لفرع، ثم لحمله فزعه منهم على أن يعتبرهم أكبر منه وأقوى بحيث يطلق عليهم اسم العمالقة؛ ثم أنّه بعد عدّة تجارب سيجد أنّ هؤلاء العمالقة المزعومين لم يكونوا أعظم منه ولا أشدّ بأسا وأن قامتهم لا تتناسب والفكرة التي كانت مرتبطة في ذهنه بكلمة عملاق؛ إذ ذاك سيخترع اسما يجمع بينه وبينهم كاسم الإنسان مثلا، وسيترك اسم العملاق إلى الشئ الكاذب الذي أثار انتباهه طوال مدّة

جان جاك روسو

وهمه. تلك هي الكيفيّة التي يتولّد بها المجاز قبل الحقيقة، عندما تبهرنا الأحوال وتكون الفكرة الأولى التي تقدّمها لنا غير فكرة الحقيقة. إنّ ما قلته عن الكلمات والأسماء ينطبق بدون صعوبة على الجمل. لمّا كانت الصّورة الوهميّة التي يقدّمها لنا الهوى هي أوّل ما ظهر لنا فإنّ اللّغة التي تطابقها قد كانت أيضاً أوّل ما اخترع ثم أصبحت تلك اللّغة مجازيّة عندما تعرّف الفكر المستنير على خطئه الأوّل، فلم يستعمل تلك العبارات إلّا بصدد عين الأهواء التي أنتجتها.

الفصل الرابع

في الخصائص المميّزة للغة الأولى، وفي التغيرات التي لا بدّ أنّها مرّت بها.

تخرج الأصوات البسيطة من الحنجرة بالطّبع، ويكون الفم بالطبع مفتوحاً بقدر أو بآخر ولكنّ تغيرات اللّسان والحنك، وهي التّغيرات التي تحوّل النطق، تتطلّب شيئاً من الانتباه والدربة، فإنّنا لا ننجزها إذا ما لم نبتغ انجازها. إنّ كلّ الأطفال في حاجة إلى تعلّمها والكثير منهم لا يقدرّون على ذلك بسهولة. وفي كلّ اللّغات، فإنّ أحرّ مواضع التعجّب غير منطوق بها، والصراخات والآثات مجرّد تصويّات، أمّا البكم أي الصّم، فإنّهم لا ينطقون إلّا بأصوات غير متمفصلة. بل أنّ الأب «لامي» لا يتصوّر حتّى أنّ التّاس قد كانوا يقدرّون على اختراع غير تلك الأصوات لولا أنّ الله قد تعمّد تعليمهم الكلام. فالتمفصلات قليلة العدد ولكنّ عدد الأصوات غير محدود، ويمكن للنبرات التي تخصّها أن تتضاعف إلى ما لا نهاية له. أنّ كلّ الأصوات الموسيقية هي كذلك نبرات. صحيح أنّه ليس لنا منها في الكلام غير ثلاثة أو أربعة ولكنّ الصّينيين يملكون منها أكثر من ذلك بكثير. وفي مقابل ذلك فإنّ ما بهم من الحروف الصّوامت يقلّ عمّا لنا. فإنّ أنتم أضفتم إلى هذا المصدر من التّركيبات، مصدر الأزمنة أو الكميّة لم تحصلوا على المزيد من الكلمات فقط، بل كذلك على مقاطع متنوّعة تزيد عمّا تحتاجه أئري اللّغات.

لست أشكّ أبداً في أنّ أولى اللّغات لو أنّها مازالت حتّى لظلتّ بقطع النّظر عن مفرداتها وعن قواعد تركيبها -محفوظة بخصائص أصيلة تميّزها عن

كَلَّ اللّٰغَات الأخرى. فلا يكفي أَنَّ كَلَّ أساليب التعبير في هذه اللّٰغة لا بدّ لها أن تكون مجازات ومشاعر وصوراً، بل ينبغي لها أن تطابق في جزئها الآلي موضعها الأول، وأن تعرض على الحواس والذهن ما يكاد يكون محتوماً من انطباعات الهوى الذي يبتغي البلوغ إلينا.

لَمَّا كانت التّصويّات الطّبيعية غير متمفصلة، فإنّ الكلمات ستكون في تلك اللّٰغة قليلة التّفصل. فبضعة من الحروف الصّوامت أذ تتخلّل تلك التّصويّات، معمّرة بذلك فجوتها، تكفي لجعلها سلسلة سهلة التّطق. وفي مقابل ذلك فإنّ الأصوات ستكون شديدة التّنوع كما سيضاعف تنوّع الثّبرات من عدد الأصوات عينها. ستكون الكميّة والإيقاع مصدرين جديدين للتركيب بحيث أنّ الأصوات والتّصويّات والنبرة والعدد وهي من الطّبيعة لما كان فعلها يكاد يكفي فعل التّمفصلات وهي من التّواطؤ، فإنّنا سنغني عوضاً عن الكلام. أن أغلب الكلمات الجذرية ستكون أصواتاً تحاكي نبرة الأهواء أو مفعول الأشياء الحسيّة: فتظهر فيها الحاكية الحسيّة باستمرار.

سيكون لهذه اللّٰغة الكثير من المترادفات للتعبير عن الشّيء نفسه في نسبه المختلفة¹. ليكوننّ لها القليل من الصّيغ الظرفيّة ومن الكلمات المجرّدة للتعبير عن تلك النسب عينها. ولكن ليكوننّ لها من كثرة صيغ التّكبير وصيغ التّصغير ومن الكلمات المركّبة ومن أدوات التحسين الزوائد ما تمنح به من حسن الإيقاع للمقطوعات المتناغمة ومن التّصريح للجمل، ليكوننّ لها الكثير من مواضع اللّحن والشّدوذ. لتفرّطن في التّناسب التّحوي لتتمسّك بعذوبة الصّوت وبالعدد والتناغم وجمال الأصوات. ليكوننّ لها عوض الأدلّة حكم، ولتقننّ من دون أن تسعى غلى إقناع، ولترسمنّ من دون برهان، ولتشبهنّ اللّغة الصّينيّة من بعض الوجوه واليونانيّة من غيرها والعربيّة من غيرها. فلتوسّعوا هذه الأفكار إلى كلّ تفرّعاتها، ستجدون إذ ذاك أنّ كتاب اقراطيلوس لأفلاطون، ليس من السّخافة بالقدر الذي يبدو عليه.

1- يقال أن في العربية أكثر من ألف كلمة مختلفة للتعبير عن «الجمل»، وأكثر من مائة للتعبير عن «السيف»، إلخ.

الفصل الخامس

في الكتابة

إنَّ كلَّ من يدرس تاريخ اللّغات وتقدّمها واجد أنّه بقدر ما تزداد رتبة التّصويّات تتضاعف الحروف الصّوامت، وأنّنا نستعّض عمّا يمحى من الثّبرات وعمّا يتساوى من الكميّات بتركيّات نحويّة وتمفصّلات جديدة. ولكنّ هذه التّغيّرات لا تتمّ إلّا بمفعول الزّمن. فبقدر ما تنمو الحاجات وتتعدّد الأعمال وتمتدّ الأنوار تغيّر اللّغة من طابعها فتصبح أشدّ معقوليّة وأقلّ عاطفيّة، وتعوّض المشاعر بالأفكار وتكفّ عن مخاطبة القلب لمخاطبة العقل. ومن ثمّ بالذات تنطفئ الثّبرة وتتعدّد المقاطع؛ فتصير اللّغة أشدّ ضبطاً وأشدّ وضوحاً، ولكّنها تصير ايضاً أفتراً، وأصمّ وأبرد. يبدو لي هذا التدرّج طبيعيّاً جدّاً. ثمّة طريقة أخرى في المقارنة بين اللّغات وفي الحكم على قدمها، وهذه الطّريقة تؤخذ من الكتابة، وذلك بحسب تناسب عكسي مع مدى اكتمال هذا الفنّ. فبقدر ما تكون الكتابة خشنة تكون اللّغة قديمة. إنّ الأسلوب الأوّل في الكتابة لم يكن رسم الأصوات، بل كان رسم الأشياء نفسها، رسماً مباشراً مثلما كان يفعل المكسيكيّون، أو رسماً غير مباشر مثلما كان يفعل المصريّون قديماً. وتوافق هذه الحالة (زمن) اللّغة العاطفيّة، وهي تفترض أنّ المجتمع قد وجد بعدد، كما تفترض أنّ الأهواء قد ولدت بعد بعض الحاجات.

أمّا الأسلوب الثّاني فيكون بتمثيل الكلمات والقضايا بأحرف اصطلاحية، وهو ما لا يمكن أنجازه إلّا عندما يبلغ تكوين اللّغة كماله، وعندما يتحد

شعب برمته في ظلّ قوانين مشتركة: فقد توفّر بعدها هنا اصطلاح مضاعف: ذلك شأن الكتابة الصينيّة، وذلك هو بحق رسم الأصوات ومخاطبة العيون.

وأما الأسلوب الثالث فيكون بتقطيع الصّوت المتكلّم إلى عدد معيّن من الأجزاء الأساسيّة تصوّبيّة أو التّمفصليّة، بحيث يمكن استخدامها في تركيب كلّ ما يمكن تخيّله من الكلمات والمقاطع. إنّ هذا الأسلوب في الكتابة، وهو أسلوبنا - لا بدّ أنّه قد تخيلته شعوب تشغل بالتجارة، اضطّرها كونها تسافر إلى عديد البلدان وكونها ملزمة بالتكلّم بعدّة لغات، إلى اختراع أحرف تكون مشتركة بين كلّ اللّغات. ليس هذا بالذات رسماً للكلام، بل هو تقطيع له.

إنّ هذه الأساليب الثلاثة في الكتابة، توافق بمقدار من الدّقة مختلف الحالات الثلاثة التي يمكن أن نعتبر عليها الأفراد المجتمعين ضمن أمة: فرسم الأشياء يناسب الشعوب المتوحّشة، وعلامات الألفاظ والقضايا تناسب الشعوب الهمجيّة والأبجدية تناسب الشعوب المدنيّة.

لا يجب إذن أن نعتقد أن هذا الاختراع الأخير دليل على إغراق الشعب المخترع في القدم بل انه ليجوز على العكس من ذلك ان يكون الشعب الذي وجده إنّما قصد إلى تواصل أيسر مع شعوب تتكلّم لغات أخرى، وهي شعوب قد كانت على أيّ حال معاصرة له، وقد كان بإمكانها أن تكون أقدم منه. لا يمكننا أن نقول نفس الشيء عن الأسلوبين الآخرين، ولكنّي أعترف بأننا، إذا ما تقيدنا بما نعرفه من التاريخ والوقائع، فإنّ الكتابة الأبجدية تبدو متساوية في القدم مع أيّ كتابة أخرى. ولكنه من غير المستبعد أن يكون الأمر راجعاً إلى نقص في الآثار المتبقّية من الأزمنة التي لم توجد فيها الكتابة.

إنّه لما يقلّ احتمالاً أن يكون أوّل من فكّروا في تحليل الكلام إلى علامات أساسيّة قد حقّقوا منذ البداية تقسيمات تامّة الدّقة. وعندما تفتّنوا بعد ذلك إلى نقص تحليلهم، عمد بعضهم، مثل اليونانيّين، إلى مضاعفة أحرف أبجديّتهم، في حين اكفى البعض الآخر بتنويع معانيها أو أصواتها

محاولة في أصل اللغات

بواسطة أوضاع أو تركيبات مختلفة. إن نقوش آثار تشالمينار التي صمّم لنا منها «شاردان»، رسوما، لتبدو مكتوبة على هذا النحو. فإننا لا نتميّز ضمنها إلاّ شكلين أو حرفين¹. ولكنهما يتخذان أحجاما مختلفة وأوضاعا متعدّدة. لا بدّ أن هذه اللّغة المجهولة التي يكاد المرء يذهل من قدمها، قد بلغت آنذاك كمالها، خاصّة إذا ما اعتبرنا كمال الفنون التي يشهد لها جمال الأحرف، الصّروح الرّائعة التي توجد بها تلك الكتابات. وأتى لفي حيرة من فرط قلّة ما يذكر الناس هذه الآثار العجيبة: فأتى لأقرأ وصفها عند «شاردان»، فما أظنّني إلاّ قد انتقلت إلى عالم آخر. يبدو لي أنّ كلّ هذا يدعو بحدّة إلى التفكير².

لا يتبع فنّ الكتابة فنّ الكلام أصلا. بل هو يتبع حاجات من طبيعة أخرى، وقد تبكّر ولادتها عند الشعوب. ويحتمل أن لا تكون تلك الحاجات قد ظهرت أصلا لدى بعض الأمم المغرقة في القدم. إننا نجهل عدد القرون التي ظلّ خلالها فنّ الحروف الهيروغليفية هو الخطّ الوحيد تقريبا لدى المصريين. ولقد قام البرهان على أنّ مثل ذلك الخطّ يمكن أن يكفي شعبا متمدّنا، ويشهد على ذلك مثال المكسيكيين الذين كانت كتابتهم أقلّ يسرا من الكتابة الهيروغليفية.

1- يقول «شاردان»: «إن بعض الناس يندهشون من أنه يمكن بشكلين اثنين أن نعمل كل هذه الحروف. ولكني فيما يخصني لا أرى سببا لمثل هذا الاندهاش القوي، بما أن حروف أبجديتنا التي عددها ثلاثة وعشرون حرفا، ليست في الحقيقة مركبة إلا من خطين، المستقيم والذائري. ويعني ذلك أنه يمكننا أن نعمل كل الحروف التي تتكون منها كلمتنا بواسطة حرف «C» وحرف «I».

2- يبدو هذا الحرف شديد الجمال وليس فيه غموض أو همجيّة، لكن الحروف قد طليت ذهباً، إذ ما زال يظهر في الكثير منها، وخاصّة في الغليظة، أثر الذهب. وأكيد أن عدم اتّيان الهواء على ذلك التذهيب طيلة كل هذه القرون هو أمر عجيب لا يمكن تصوّره. وعلى كل فلا عجب في أن عجز كل علماء العالم على فهم هذه الكتابة فهي لا تشبه أيّة واحدة مما وقع بين أيدينا من الكتابات، في حين أن كل الكتابات المعروفة إلى اليوم تتشابه إلى حدّ ما، باستثناء الكتابة الصينية وتبدو كأنّها راجعة إلى نفس الأصل. ولعل الأغرب في ذلك هو المجوس، الذين تبقوا من الفرس القدامى، واحتفظوا بديانهم، ليسوا بأعرف منا بهذه الأحرف، وليس ذلك فقط بل أن حروفهم ليست بأشبه بتلك الحروف من حروفنا. فنتج عن ذلك أن هذه الحروف هي أما من رموز القبلانية، وهو غير محتمل فهذا الحرف هو الحرف المشترك والطبيعي لهذه الآثار في كل المواضع، في حين أن رمز القبلانية ليس ثمة غيره يعين ما له من النقش. أو أنها من القدم بحيث لا نكاد نجرؤ على قوله «وفعلا فلعل ما يجعلنا «شاردان» نفترضه من هذا المقطع هو أن هذه الحروف قد كانت منسية بعد في زمن قورش والمجوس، وأن ضالّة معرفتهم بها إذ ذاك كضالّة معرفتنا بها الآن.

أنه لمن اليسير علينا، عندما نقارن بين الأبجديات القبطية والسريانية أو الفينيقية أن نجزم بأن إحداها متأتية من الأخرى. وقد لا يكون من الغريب أن تكون الأبجدية الأخيرة هي الأصل أو أنّ أحدث الشعوب قد كان علّم في هذا الصّدّد أقدمها. وواضح أيضا أنّ الأبجدية اليونانية متأتية من الأبجدية الفينيقية بل أننا لنرى أنها لا بدّ قد صدرت منها. وسواء أكان كادموس هو الذي جاء بها من فينيقيا أو أنّ غيره هو الذي جاء بها، فإنّه يبدو مؤكّدا في كلتا الحالتين أن اليونانيين لم يسعوا إلى جلبها وأنّ الفينقيّين قد جاؤوا بها بأنفسهم ذلك أنّهم كانوا الأوائل من بين شعوب آسيا وإفريقيا، بل ورّما الوحيدين¹ الذين تاجروا في أوروتا، وقد جاؤوا إلى بلاد اليونان قبل أن يذهب إليهم اليونان: وهو ما لا يدل أبدا على أنّ الشعب اليوناني ليس كمثّل شعب فينيقيا في القدم.

لم يكتب اليونانيون في البداية بتبني أحرف الفينقيّين، بل تبّنوا حتّى اتّجاه السطر عندهم من اليمين إلى الشّمال ثمّ عنّ لهم من بعدد ذلك أن يخطّوا خطّ المحرّات أي أن يستأنفوا السّطر تناوبا من الشّمال إلى اليمين ثمّ من اليمين إلى الشّمال² وأخيرا كتبوا مثلما نكتب اليوم، أي باستثناف كلّ السّطور من الشّمال إلى اليمين. ليس في هذا التّقدّم من شيء إلّا وهو طبيعيّ. فإنّ الكتابة الحراثيّة هي من دون نقاش أيسر الكتابات قراءة. بل وإنّي لمندهش من عدم إقرارها مع الطّباعة. ولكن لما كانت عسيرة الكتابة باليد، فلا بدّ أنّها اضمحلت عندما تعدّدت المخطوطات. غير أنه ليس يلزم من أنّه إن كانت الأبجدية اليونانية متأتية من الأبجدية الفينيقية أن اللغة اليونانية متأتية من اللغة الفينيقية. فإن إحدى هاتين القضيتين ليست لازمة أصلا عن الأخرى. ويبدو أن اللغة اليونانية قد كانت بعد قديمة جدّا في حين أن فنّ الكتابة كان حديثا بل ناقضا عند اليونانيين. فلم يكن عندهم من الحروف، إن كان لهم منها، أكثر من ستّة عشر حرفا، وذلك إلى حدّ حصار «طروادة». ويقال إن «بالاماد» قد أضاف إليها أربعة وأن «سيمونيد» أضاف الأربعة الأخرى. إن

1- أعتبر القرطاجيّين فينقيّين، بما أنّهم قد كانوا مستعمرة من مستعمرات صور.

2- فوزانياس. لقد كتب اللاتينيون في البداية كذلك. ومن ثم جاءت كلمة «Versus» حسب «ماريوس فيكتورينوس».

محاولة في أصل اللغات

كل هذا قد جرّنا إلى ماضٍ بعيد بعض الشيء. وعلى العكس من ذلك فإنّ اللغة اللاتينية، وهي أحدث من اليونانية، قد حظيت منذ ولادتها تقريبا بأبجدية كاملة لم يستعملها الرومان الأول مع ذلك إلا نادرا، إذ أنهم لم يشرعوا إلا مؤخرا جدا في كتابة تاريخهم وأنهم لم يكونوا يسجلون خماسياتهم إلا بواسطة مسامير.

وعلى كلّ فليس ثمة من الحروف أو من عناصر الكلام محدّدة تحديدا مطلقا. فلبعضهم أكثر وللبعضهم أقلّ بحسب اللغات وبحسب مختلف التعديلات التي تدخلها على التصويّات وعلى الحروف الصّوامت. إن أولئك الذين لا يحسبون إلا خمسة تصويّات لمخطّثون كثيرا فقد كان لليونانيين منها سبعة، وللرومان الأول ستة¹. ويحتسب جماعة «بور رويال» عشرة منها، أمّا السيّد «دوكلو» فسبعة عشر. وأني لا أشكّ قطّ في أنّه قد كان يمكننا أن نجد منها أكثر ممّا وجدنا بكثير لو أنّ العادة كانت رَهفت الأذن ورَوّضت الفم على مختلغ ما في وسعهما من التّغايرات فعلى قدر رهاقة العضو يتفاوت ما نجده من التّغايرات بين التّصويّ «A» حادّا والتّصويّ «O» غليظا، أو بين التّصويّ «I» والتّصويّ «E» مفتوحا، الخ... ذلك ما يحسّ به كلّ واحد ممّا عندما يتّقل من تصويّ إلى آخر بصوت متّصل ومتدرّج. فإنّه يمكننا أن نضبط كثيرا أو قليلا من تلك الدّرجات، وإن رمز إليها بأحرف خاصة، وذلك بقدر ما يكون فعل العادة فينا قد جعلنا حساسين بها. وتخضع تلك العادة لما هو مستعمل في اللغة من أنواع الأصوات التي يألّفها العضو من حيث لا يشعر. ويمكن أن يقال نفس الشيء عن الحروف الممفصلة أو الصّوامت. لكن أغلب الأمم لم يكن ذلك هو فعلها بل أخذ بعضها أبجدية البعض الآخر ومثّل بنفس الأحرف تصويّات وتمفصلات مختلفة جدّا، ممّا يجعل المرء مهما بلغ من الدقّة في رسم الكلمات يقرأ دائما اللغة التي ليست لغته قراءة مضحكة، اللهم إلا أن يكون قد تدرب عليها كثيرا.

Vocales quas groece septem, Romulus sex, usus posterior quinque conmemorat, γ -1 velut groeca rejecta. Mart. Capel I . III.

إن الكتابة التي يبدو من مهامها تثبيت اللغة، هي عينها التي تغيّرها. فهي لا تغيّر كلماتها بل عبقريتها. إنها تعوّض التعبير بالدقة. فالمرء يؤدّي مشاعره عندما يتكلّم وأفكاره عندما يكتب. فهو عند الكتابة ملزم بأن يحمل كلّ الألفاظ على معناها العام، ولكنّ الذي يتكلّم ينوّع من الدلالات بواسطة النبرات، ويعينها مثلما يحلّو له. فما هو يكتب من تقلّص ما كان يعوقه عن وضوح العبارة، بل زاد ما يعطي متانتها. ولا يمكن للغة نكتتها فقط أن تحتفظ طويلا بحيويّة تلك التي نتكلمها فقط. فإنما يكتب المرء التصويّات لا النغم، غير أن النغم والنبرات ومختلف انعطافات الصوت في اللغة ذات النبر، هي التي تمنح التعبير أقصى ماله من الطاقة، وهي التي تقدر على تحويل الجملة من جملة شائعة الاستعمال إلى جملة لا تستقيم في غير الموضوع الذي هي فيه. أما الأسباب التي تتخذ للتعويض عن ذلك، فما هي إلّا توسيع من مجال اللغة المكتوبة وتمديد لها، وهي بانتقالها من الكتب إلى الخطاب تشنّج الكلام عينه¹. إذا المرء أضحى كل شيء يقوله كما لو كان يكتبه، لم يغد إلّا قارنا يتكلّم.

1- ولعلّ الوسيلة التي تكون أحسنها والتي لا يكون فيها هذا العيب، هي التقيط لو تركوه على حال أقل سواء مما هو عليه. فلماذا ليس لنا مثلا نقطة النداء، في حين أن نقطة الاستفهام التي لدينا أقل لزوما بكثير. فإن مجرد التركيب ينوّننا بما إذا كان ثمة سؤال أم لا، وذلك على الأقل في لغتنا. فعبارة «هل تأتي؟» وعبارة «أنت تأتي» ليستا نفس الشيء. ولكن كيف يمكن لنا أن نتميّز كتابتيّ بين إنسان نسقيه وإنسان نناديه. فهذا التباس قد كانت ترفعه نقطة النداء. وعين هذا الالتباس نجده في السخرية، عندما لا نشعرنا باللهجة بذلك.

الفصل السادس

هل من المحتمل أن «هوميروس» قد كان يعرف الكتابة.

ومهما قيل لنا عن اختراع الأبجدية اليونانية، فإنني لأظنها أحدث بكثير مما يظنون. وأقيم هذا الرأي أساسا على طبيعة اللغة. فكثيرا ما خطر ببالي أن لا أشك فحسب في أن «هوميروس» قد كان يعرف الكتابة، بل وحتى في أن الكتابة قد كانت معروفة في زمانه. ولشد ما يؤسفني ما تقطع به حكاية «بليروفون» ضمن الإلياذة من تكذيب لهذا الشك. ولما كان من سوء حظي أن أكون مثل الأب «هاردوين» عنيدا بعض الشيء بمفارقاتي، فإنني لو كنت أقل جهلا لوددت مدّ شكوكي إلى هذه الحكاية نفسها، واتهامها بأنها قد انتحلت من دون كبير فحص من قبل مصنفي «هوميروس». فلا يكفي أن المرء يكاد لا يرى في باقي الإلياذة آثارا لهذه الصناعة بل إنني لأجرؤ على القول بأن الأوديسة بأكملها ليست إلا نسيجاً من الحماقات والعبارات التي قد كان يكفيها حرف أو حرفان لتكون هباء منثوراً، وذلك بعكس ما يقدم لنا هذا النشيد كنشيد معقول بل وربما كنشيد حاذق النظم، بفرض أن أبطاله قد كانوا جاهلين الكتابة.

فلو أن الإلياذة قد كانت كتبت، لقلّ الترنّم بها ولقلّ البحث عن الرّياسدة¹، ولقلّ تكاثر هؤلاء. فليس ثمة من بين الشعراء من ترنّم بشعره مثلما ترنّم بشعر «هوميروس» اللهم إلا «تاس» بالبنديقية. وحتى هو فلم يتغنّ بشعره إلا العنادلة، وليسوا بقراء كبار. ثم إن اختلاف اللهجات التي يستخدمها «هوميروس»

1- الرّياسدة جمع رسود (rhapsode) وهو رواية محترف للقصائد الملحمية.

جان جاك روسو

يمثل أيضا قرينة متينة جدا؛ فإن اللهجات تتمايز ضمن الكلام، وتتقارب بل تندغم ضمن الكتابة، بحيث يرجع كل شيء من حيث لا ندري إلى نموذج مشترك. فإن الأمة بقدر ما تقرأ وتتعلم تذوب لهجاتها، فلا تبقى في الأخير إلا في شكل رطانة لدى الجمهور الذي يقرأ قليلا ولا يكتب أصلا.

ولكن لما كان هذان التشيدان متأخرين عن حصار طروادة، فإنه لا يجوز البتة أن الذين قاموا بهذا الحصار من اليونانيين قد عرفوا الكتابة وأن الشاعر الذي تغنى به لم يعرفها. لقد ظل هذان التشيدان طويلا مكتوبين في ذاكرة الناس فقط. ثم تدوينهما مؤخرا وبمشقة كبرى. فعندما بدأت بلاد اليونان، تعج بالكتب والشعر المكتوب، إذ ذاك شعر الناس بروعة شعر «هوميروس» بالمقارنة مع كل ذلك. لقد كان غيره من الشعراء يكتبون أمّا «هوميروس» فهو وحده قد تغنى ولم تزل أناشيده الإلهية ملذوذة السماع حتى امتلأت أوروبا بالهمج الذين أقبلوا يحكمون على ما لم يكن بوسعهم تذوقه.

الفصل السابع

في العروض الحديث

ليس لنا من تصوّر عن لغة رثانة متناغمة تتكلّم أنغاماً كما تتكلّم أصواتاً. ولعمري فإنّ المرء ليظنّ خطأ أنّ النّبرات تقوم مقام التّغم. فإنّا لا نخترع النّبرات إلّا وقد ضاع منّا التّغم وانتهى¹ وأبعد من ذلك في الوهم ما

1- يزعم بعض العلماء، خلافاً للرأي العام وخلافاً للدليل المستمد من كل المخطوطات القديمة، أنّ اليونانيين قد عرفوا في الكتابة تلك العلامات التي نسميها نبرات، وأنهم قد مارسوها. ويؤسسون هذا الرأي على مقطعين سأوردهما كما هما معاً، حتى يتمكن القارئ من الحكم على معناهما الحقيقي فيها هو المقطع الأول، وهو «شيشرون»، من كتابه في الخطيب الكتاب III، رقم 44:

Hane diligentiam subsequitur modus etiam et forma verborum, quod jam vercor ne huic Catulo Vidatur esse puerile. Versus enim veteres illi in hac soluta oratione propemodum, hoc est, numeros quosdam, nobis esse adhibendos putaverunt. Interspirationis enim non defatigationis nostrae, neque librorum notis sed verborum est sententiarum modo, interpunctas clausulas in orationibus esse voluerunt: idque princeps Isocrates instituisse fertur, ut inconditam antiquorum dicendi consuetudinem, delectationis atque aurium causa (quemadmodum scribit dis cipulus ejus Naucrates), numeris adstringeret. Namque hoc duo, musici, qui erant quondam iidemporetoe, machinati ad voluptatem sunt versum, atque cantum, ut et verborum numero, et vocom modo, delectatione vincerent aurium satietatem. Hoc igitur duo, vocis dico moderationem, et verborum conclusionem quoad vrationis seritas pati possit, a poetica ad eloquentiam traducenda duxerunt.

وها هو المقطع الثاني، وهو لا يزيدور، من مؤلفه الاصول الكتاب I، الفصل 20:

Proeterea quaedam sententiarum notae apud celeberrimos auctores fuerunt, quasque antiqui ad distinctionem scripturarum carminibus et hostorus apposuerunt/ Nota est figura propria in litterae modum posita ad demonstrandum unamquamque verbi sententiarumque ac versuum rationem. Notae autem versibus appennuntur numero XXVI, quoe sunt nominibus infra scriptis, etc.

وفيما يخصني فإنني أرى في ذلك ان الناسخين المهرة قد كانوا يمارسون زمن «شيشرون» فصلاً.

نعتقده من أنّ لنا في لغتنا نبرات في حين لا نملك منها شيئا. فليست نبراتنا المزعومة إلاّ مصوّتات أو علامات كمية، ولا تشكّل أي نوع من النغم. ويدلّ على ذلك ما يمكن من أدائها كلّها أمّا بأزمنة متفاوتة أو بتغايرات في قرع الشفاه واللسان أو الحنك، وعن كلّ هذه يكون تمايز الأصوات فليس ثمة نبرة واحدة يتمّ أدائها بواسطة تغايرات الحنجرة التي عنها يكون تمايز الأنغام. وهكذا فإن لم تكن نبرة المدّ عندنا مجرد صوت فهي مصوّت طويل أو هي لا شيء. ولننظر الآن في الكيفيّة التي كانت عليها نبرة المدّ لدى اليونانيين:

يقول دونسي الهليكرناسي أنّ رفع الصّوت عند النّبرة الحادّة وخفضه عند النّبرة الغليظة قد كانا فاصلة خماسيّة. وهكذا فإنّ النّبرة العروضيّة وخاصّة نبرة المدّ، قد كانت أيضا نبرة موسيقيّة يرتفع فيها الصّوت بفاصلة خماسيّة، ثمّ ينخفض فاصلة أخرى وذلك في نفس المقطع¹. فنحن نرى بما يكفي، في هذا النّص وفيما يتّصل به، أنّ السيّد «دوكلو»، ينكر وجود نبرة موسيقيّة في لغتنا، فلا يعترف إلاّ بالنّبرة العروضيّة ونبرة المصوّت. وتضاف إلى ذلك نبرة الرّسم التي لا تتغيّر من الصّوت شيئا ولا من النّغم ولا من الكميّة، ولكّنها تارة تشير على حرف مضمر كما هو الحال في نبرة المدّ وطورا تضبط ما يلتبس من معنى كلمات آحاديّة المقطع كما هو الحال في النّبرة الغليظة التي تميّز «Ou» ظرف المكان عن «OU» أداة الفصل، أو تميّز «à» كأداة عن «a» كفعل. أنّ هذه النّبرة لا تميّز بين هذه الكلمات الأحاديّة المقطع إلاّ بالعين، وليس ثمة ما يميّز بينها في النّطق. وهكذا فإنّ ما يعتمد عليه الفرنسيّون غالبا من تعريف للنّبرة لا يطابق آيّة نبرة في لغتهم.

الكلمات، وبعض العلامات التي تضاهي تنقيطنا، كما أرى فيه أيضا اختراع العدد وتفخيم النثر، المنسوب إلى ايزقراطس. ولكني لا أرى فيه أبدا العلامات المكتوبة، والنبرات: وحتى أن رأيتها، فغته لا يمكن أن نستنتج من ذلك إلاّ أمرا لا أناقش فيه، وهو يندرج بغير عناء ضمن مبادئ، وهذا الأمر هو أن الرومان عندما شرعوا في دراسة اليونانية، فإنّ النساخ قد عمدوا إلى اختراع علامات النبرات، والتشديد والغيقاع لكي يبينوا لهم وجه نطقها. ولا يتّجّن ذلك أبدا أن هذه العلامات قد كانت مستعملة لدى اليونان الذين لم تكن بهم أيّة حاجة إليها.

1- السيّد «دوكلو»، ملاحظات حول النحو العام والمعقول ص: 30

محاولة في أصل اللغات

وإنني لأتصور أن الكثير من النحويين الذين تعلّموا أن النبرات إنما هي علامات ارتفاع في الصّوت أو انخفاض فيه، سيضجّون هنا أيضا، تنديدا بالمفارقة. وهم لفرط ما لا يتجهون إلى التجربة، سيظنّون أنفسهم قادرين على أن يؤدّوا بتغيرات في الحنجرة عين تلك النبرات التي لا يؤدّونها إلا بتغير انفتاحات الفم وأوضاع اللسان¹. ولكن إليكم ما سأقوله لهم معاينة للتجربة وجعلا لحجتي مفحمة:

فلتناغموا بين صوتكم وتصادي بعض الآلات الموسيقية، ولتنطقوا على ذلك التصادي كلّ ما يمكنكم تجميعه من الكلمات الفرنسية المتتالية مهما اختلفت نبراتهما. ولما كان الأمر غير متعلّق هنا بالنبرة الخطائية ولكن بالنبرة التحوية، فليس حتّى من الضّروري أن تكون هذه الكلمات المختلفة متتابعة المعنى. ولتنظروا فيما أنتم تتكلّمون هكذا أن لم تكونوا تؤدّون على نفس ذلك الصّوت كلّ النبرات، وذلك بنفس القدر من الوضوح والجلء الذي قد كان يكون لكم لو أنكم كنتم تنطقون بدون قيد وأنكم كنتم تغايرون طبقتم الصّوتية. فإنّي أقول، إذا سلّمنا بهذا الأمر وهو أمر لا يقبل النقاش لما كانت كلّ النبرات تؤدّي على نفس الطّبعة، فإنّها لا تشكّل أصواتا مختلفة. ولا أتصوّر ما يمكن الردّ به على هذا القول.

إن كلّ لغة يمكن لنا فيها أن نخلع عدّة ألحان موسيقية على نفس الكلمات، فليس لها آية نبرة موسيقية محدّدة إذ لو كانت النبرة محدّدة لكان اللّحن كذلك. فما إن يصبح الغناء تحكّما حتّى تصير النبرة زائدة لا طائل من ورائها.

إنّ كلّ اللّغات الأوروبية الحديثة هي في نفس الحالة تقريبا وحتّى الإيطالية، فإنّي لا أستثنيها من بينها. فإنّ اللغة الإيطالية، كاللغة الفرنسية،

1- وقد يظن أن الإيطاليين يميزون بتلك النبرة عنها مثلا e الفعل من e أداة الربط. ولكن الأول يتميز في الأذن بصوت أقوى وأشد، مما يجعل النبرة التي تطبعه نبرة صوتية. وهذه ملاحظة ما كان لكتاب بونماتي حق في أن لا يديها.

ليست موسيقى في حد ذاتها أصلاً. ولا يرجع الفرق بينهما إلا إلى كون إحدهما قابلة للموسيقى وأن الأخرى غير قابلة لها.

ويؤدّي كلّ ما تقدّم إلى إثبات هذا المبدأ: أنّ كلّ اللّغات الأدبيّة لا بدّ لها بموجب تقدّم طبيعيّ أن تغتير من طبعها، فتتضاءل قوّتها ليتزايد وضوحها وأنّا بقدر ما تتعلق همّتنا بتحسين التّحو والمنطق، نزيد من سرعة هذا التقدّم، وأنّه لا يلزمنّا لكي نسرع في جعل لغة ما لغة باردة ورتيبة إلّا إقامة أكاديمية لدى الشعب الذي يتكلّمها.

تعرف اللّغات المشتقّة بما فيها من الفرق بين الرّسم والنطق. فيقدر ما تكون اللّغات قديمة وأصلية يقلّ التحكّم عن أسلوب نطقها، فيقلّ بالتالي تعقيد الحروف المحدّدة لهذا النطق ويقول السيد «دوكلو»، "إنّ كلّ ما كان لدى القدماء من العلامات العروضيّة حتّى إذا ما افترضنا أنّه قد وقع ضبط مواطن استخدامها لم تكن تضاهي الاستعمال". أمّا أنا، فسأقول أكثر من ذلك: لقد عوّضت تلك العلامات الاستعمال. فلم يكن للعبرانيين نقط أو نبرات، ولم يكن لهم حتّى مضوّات. وعندما أرادت الأمم الأخرى أن تشتغل بتعلّم العبريّة، وعندما تكلم اليهود لغات أخرى، فقدت لغتهم رتبتها. فكان لا بدّ لضبطها من التّقط والعلامات. ولكن ذلك أثبت معاني الكلمات من جديد أكثر ممّا أثبت نطق اللّغة. فلو تكلم يهود اليوم بالعبريّة لما فهمهم أجدادهم.

وتقتضي معرفة اللّغة الانقليزية أن تتعلّمها مرّتين: إحداها قراءة والأخرى نطقاً. هب أنّ انقليزيّاً كان يقرأ ما كان شخص آخر غريب عنه يتابع (ما كان يقرأ) في الكتاب. فإن هذا الأخير لن يجد أيّة علاقة بين ما يراه وما يسمعه. لم ذلك؟ لأنّه لمّا كانت انقلترا قد تعاقبت على احتلالها شعوب مختلفة، فقد ظلّت الكلمات تكتب بنفس الرّسم في حين تغتير أسلوب نطقها كثيراً. فتمّة فرق حقيقيّ بين العلامات التي تحدّد معنى الكتابة والعلامات التي تضبط النطق. وقد يكون من اليسير جدّاً أن نضع بالصّوامت وحدها لغة جدّ واضحة في الكتابة ولكّنه لا يكون بوسعنا التكلّم بها. ولعلّ في الجبر

محاولة في أصل اللغات

بعضاً من هذه اللّغة. فعندما تكون لغة ما أوضح برسمها ممّا هي بنطقها، فتلك شهادة على أنّها مكتوبة أكثر ممّا هي منطوقة. ولعلّ لغة العلماء المصريين قد كانت على هذه الحالة. كذلك اللّغات الميتة بالنسبة لنا. أمّا اللّغات التي تشحن بما لا يلزم من الصّوامت، فربما بدت الكتابة سابقة فيها على الكلام. ومن لا يظن اللغة البولونية في هذا الوضع؟ وإذا صح ذلك، فلا بد أن تكون البولونية ساعتها أبرد اللغات كلها.

الفصل الثامن

إختلاف أصل اللّغات عموما ومحليّا.

إنّ كلّ ما قلته إلى هذا الحدّ ينطبق على اللّغات البدائية عامّة وعلى ما يحصل في خلال مدّتها من تقدّم. ولكنّه لا يفسد أصلها ولا اختلافاتها. فإنّ السبب الرئيسي الذي يميّز بينها محليّ. فهو آت من المناخات التي تتولّد فيها ومن الأساليب التي تتكوّن بها. فإلى هذا السبب يجب الرجوع إذا رمنا تصوّر ما نلاحظه بين لغات الجنوب ولغات الشّمال من اختلاف عامّ وخصوصيّ. إنّ عيب الأوروبيين الكبير هو أنّهم يتفلسفون دائما في أصول الأشياء بحسب ما يحدث حولهم. فلا يقعدون أبدا عن أن يقدموا لنا مشهد الناس الأوّلين إذ يسكنون أرضا قاسية قاحلة ويموتون برّدا وجوعا، ويتعجّلون في أن يصنعوا لأنفسهم غطاء ولباسا. وأهمّ لا يرون -أيّنا رفعوا أبصارهم- إلا جليد أوروبا وثلوجها، فلا يخطر ببالهم أنّ التّوع البشري ككلّ الأنواع الأخرى إنّما تولّد في البلاد الساخنة وأنّ ثلثي الكرة الأرضية لا يكادان يعرفان الشّتاء. لا بدّ من أن ننظر حولنا عندما نريد أن ندرس الناس. ولكنّا عندما نريد أن ندرس الإنسان مطلقا، لا بدّ أن نشيّع بصرنا إلى بعيد. لا بدّ من أن نلاحظ الفروق أولا حتّى نكتشف الخصائص.

إنّ الجنس البشري الذي تولّد في البلاد الساخنة يمتدّ من بعد ذلك إلى البلاد الباردة. فهناك يتكاثر ثمّ ينسحب إلى البلاد الساخنة. وعن هذا الوضع من الامتداد والانسحاب، تكون انقلابات الأرض ويكون اضطراب سكّانها المتواصل. فلنعمل على أن نساير في بحوثنا نظام الطّبيعة ذاته. وائي

جان جاڪ روسو

لمقدم هنا على استطراد طويل في الموضوع قد أكل عليه الدهر وشرب
حتى صار مبتذلاً ومع ذلك فلا بدّ من الرجوع إليه دائماً حتى نقف على أصل
المؤسسات الإنسانيّة.

الفصل التاسع

تكوّن اللغات الجنوبيّة

لم يكن للبشر المشتتين على وجه الأرض في الأزمنة الأولى¹ من مجتمع إلا مجتمع الأسرة، ولم تكن لهم من القوانين إلا قوانين الطبيعة ومن اللغة إلا لغة الإيماء، وبضعة أصوات غير متمفصلة² لم تكن تربط بينهم أية فكرة للأخوة المتبادلة. ولما لم يكن لهم في ما عدا القوة من حكم فقد كانوا يظنون بعضهم أعداء للبعض. فضعفهم وجهلهم هما اللذان كانا يعطيانهم هذه الفكرة. ولما كانوا لا يعرفون شيئا، فقد كانوا يخافون كلّ الأشياء. لقد كانوا يهاجمون غيرهم للدّفاع عن أنفسهم. إنّ الإنسان الذي ندعه وحده على وجه الأرض تحت رحمة الجنس البشري لا بدّ أنّه قد كان حيوانا شرسا. لقد كان مستعدّا لأن يلحق بالآخرين كلّ الشرّ الذي كان يخشاه منهم. فإنّ الخوف والضعف هما أصل القساوة.

لا تنمو الأهواء الاجتماعية فينا إلا بقدر استنارتنا. فلو لا الخيال الذي يحرّكها لظلت الشفقة على كونها طبيعيّة في قلب الإنسان جامدة إلى الأبد.

1- أطلق عبارة «الأزمنة الأولى» على أزمنة تفرق الناس، بقطع النظر عن العصر البشري الذي نضبط فيه فترة ذلك التفرق.

2- ليس أصل اللغات الحقيقية أصلا منزليا. فلا يمكن أن تناس هذه اللغات إلا على تواطؤ أعم وأدوم. أن متوحشي أمريكا يكادون لا يتكلمون إلا خارج بيوتهم. فكل واحد منهم يلازم الصمت في كوجه، ويتحدث إلى عائلته بالإشارات. وهذه الإشارات قليلة التردد لأن المتوحش أقل حيرة وأقل تلهفا من الأوروبي، ولأنه ليس له مثل الأوروبي من الحاجات، وأنّه يعمل على تحقيقها بنفسه.

كيف يبلغ بنا التأثر إلى حدّ الشفقة؟ إنّ ذلك يكون بانتقالنا خارج أنفسنا وتماهينا مع الكائن الذي يتألم. فإنّنا لا نتألم إلا بمقدار ما نعتبر أنّه يتألم. وما في أنفسنا نحسّ بالألم بل في نفسه هو نحسّ به. فليتأمل المرء فيما يتطلبه هذا الانتقال من المعارف المكتسبة: كيف يمكنني أن أتخيّل ألا ما ليس لي أيّ تصوّر عنها؟ كيف أتألم لرؤية غيري يتألم أن لم أكن أعرف على الأقلّ أنّه يتألم، وكيف ان كنت جاهلا بما هو مشترك بينه وبينني؟ فمن لم يفكر أبدا لم يمكنه أن يكون رحيمًا ولا عادلا ولا عطوفا، بل لم يمكنه حتّى أن يكون قاسيا وحقودا. من لا يتخيّل شيئا لا يحسّ بغير نفسه، وهو وحيد وسط الجنس البشري.

يتولّد التفكير عن الأفكار إذ نقارن بينها، وكثرة الأفكار هي التي تحملنا على ذلك. فليس بوسع من لا يرى غير شيء واحد أن يقارن. والذي لا يرى إلا عددا سيرا منها، لم يزل هو هو منذ صباه، فإنّه لا يقارن بينها أيضا، لأنّ تعوذه رؤيتها يجزّده ممّا يلزمه من الانتباه لتفحصها. ولكننا على قدر ما يسترعي انتباهنا شيء جديد، نروم معرفته، ونروم أن نقف له على علاقات بما نعرفه من الأشياء.

فإنّنا هكذا نتعلّم اعتبار ما هو واقع تحت أنظارنا، وهكذا أيضا تحملنا رؤية ما هو غريب عتّا على أن نتلقّت إلى فحص ما هو قريب متّا.

فلتطبّقوا هذه الأفكار على الناس الأولين، سترون إذ ذاك علّة همجيتهم. فلاّتهم لم يروا أبدا غير ما كان محيطا بهم، فقد جهلوا حتّى إيتاءه، بل لم يعرفوا بعضهم بعضا. لقد كان في أذهانهم صورة عن الأب أو عن الابن أو عن الأخ، أما عن الإنسان فلا. وكانت أكوأخهم تؤرى كلّ نظرائهم. وفي حسابهم أنّ الغريب والذّابة والغول هي كلّها سواء، وما كان الكون بأسره عندهم شيئا غير ما كانوا وما كانت عائلاتهم.

من هنا يأتي ما نراه من التناقضات الواضحة بين أولياء الأمم: كلّ تلك الفطرة مع كلّ تلك الوحشيّة، كلّ تلك الشراسة في العادات

محاولة في أصل اللغات

مع كل تلك الرقة في القلوب، كل ذلك الحب لعائلاتهم مع كل ذلك البغض لنوعهم. لقد ازدادت مشاعرهم قوة باستقرارها في أقربائهم: إذ كان كل ما يعرفونه عزيزا عليهم. ولما كانوا أعداء لبقية العالم الذي لم يكونوا يرونه، والذي كانوا يجهلون، فإنهم لم يكونوا يكرهون إلا ما لم يكن بوسعهم معرفته.

لقد كانت أزمدة الهمجية هذه هي القرن الذهبي لا لأن الناس كانوا متحدين ولكن لأنهم كانوا متفرقين. لقد كان كل واحد منهم، على ما يقولون، يعد نفسه سيد كل شيء. ربما! ولكن لم يكن منهم من كان يعرف أو يشتهي غير ما كان في حوزته. فلقد كانت حاجاته تبعه عن نظرائه عوضا عن أن تقر به منهم. وإن شئتم، فإن الناس كانوا يهاجم بعضهم بعضا عند اللقاء ولكنهم نادرا ما كانوا يلتقون، لقد كانت حالة الحرب تسود كل مكان ومع ذلك فقد كانت كل الأرض في سلام.

لم يكن الأولون حراثين، بل كانوا صيادين ورعاة، ولم تكن الثروات الأولى حقولا بل كانت قطعانا. وقبل أن يتم تقسيم ملكية الأرض لم يكن يدور بخلد أمرى أن يفلحها. فلا فلاحه صناعة تتطلب أدوات. والزرع القاصد إلى الحصاد يسعى يحتاج إلى بصيرة. أن الإنسان في المجتمع يسعى إلى التوسع، أما الإنسان المنعزل فينطوي على نفسه، فلا يكاد يتجاوز المدى الذي يمكن لعينه أن تبصر فيه، ويمكن ليد أن تبلغه حتى ينقطع حقه وتنقطع ملكيته. فإن العملاق لا يدحرج الصخرة إلى ولجة كهفه حتى يبيت آمنا هو وقطعانه. ولكن من ذا الذي سيرعى حصائد من لا تسهر عليه القوانين.

لسوف يعترض عليّ بأن قايين قد كان حراثا وأن نوحا قد تعاطى غرس الكروم. وما العجب في ذلك؟ لقد كان كلاهما وحيدا. فما الذي كانا يخشيان؟ ومن جهة أخرى، فإن هذا الاعتراض لا يزعزعني أصلا. فلقد بينت فيما تقدم ما أعنيه بالأزمة الأولى. وعندما أصبح قايين هاربا فلقد اضطرّ فعلا إلى ترك الفلاحة. كذلك فلا بد أن حياة التيه التي عاشها أبناء نوح قد أنستهم الفلاحة. لقد كان ضروريا أن تعمّر الأرض قبل أن تفلح. فهذان أمران

جان جاك روترو

لا ينقضيان معا. لقد انقطعت الفلاحة خلال التشتت الأول للجنس البشري. وظلت كذلك إلى أن ظهرت الأسرة وتم للإنسان أن يأوي إلى مسكن قاز. إن الشعوب التي لا تستقر أبدا لا يمكنها أن تغلح الأرض. ذلك هو ما كان من أمر الرّحل والعرب إذ يعيشون تحت الخيام، وذلك ما كان من أمر السيث على عرباتهم. وكذلك ما يزال اليوم يعيش التتر التائبون، ومتوحشوا أمريكا.

وبصفة عامة، فإننا نجد لدى كلّ الشعوب التي نعرف أصلها أن أول الهمج قد كانوا شرهين ولا حمين أكثر ممّا كانوا فلاّحين وأكلة حبوب ويذكر لنا اليونانيون اسم أول من علّمهم حراثة الأرض، ويبدو أنّهم لم يعرفوا هذه الصّناعة إلّا مؤخرا جدّا. ولكنّهم عندما يضيفون أنّهم لم يكونوا يقتاتون قبل تريفتو ليموس إلّا من البلوط، فإنّهم يقولون أمرا عديم الاحتمال ويكذّبه تاريخهم بالآات. ذلك أنّهم إنّما كانوا يقتاتون من اللحم قبل تريفتو ليموس، إذ هو منعهم من أكله. ولكنّا لا نرى مع ذلك أنّهم قد حسبوا لهذا التّحريم كبير حساب.

فلقد كانوا فيما يصفه «هوميروس» من ولائهم، يصرعون لإطعام ضيوفهم ثورا كما نصرع اليوم خنوصا، وأنّه ليمكننا أن ندرّك مدى ما كان أهل تلك الأزمنة مفترسي لحوم عندما نقرأ أنّ ابراهيم قد قدّم عجلا لثلاثة أشخاص وأنّ أومي قد أمر بطبخ جديين لعشاء أوليس، وأنّ ريبكا قد أمرت بمثل ذلك لعشاء زوجها. فإن نحن رمنا أن نتصوّر أكلات القدامى لم يكلفنا ذلك أكثر من أن ننظر إلى ما يأكله المتوحشون: وقد كدت أقول ما يأكله اليوم الانقليز.

إن أول ما أكل من الحلوى قد كان أول اندماج للجنس البشري. فعندما بدأ التّاس يستقرون، كانوا يستصلحون شيئا من الأرض حول أكوأخهم. لقد كان ذلك بستانا أكثر ممّا كان حقلا. فكانت الحبوب القليلة التي

محاولة في أصل اللغات

يصيبنها تطحن بين حجرين ثم يصنعون منها بعض الحلويات يطبخونها تحت الرماد أو الجمر أو فوق حجر حام ولا يأكلون منها إلا في الولائم. إن هذه العادة القديمة التي احتف طبها لدى اليهود من خلال عيد الفصح مازال يحتفظ بها اليوم في بلاد فارس وجزر الهند. فلا يأكل المرء فيها إلا خبزاً بدون خمير وهذه الرفاقات من الخبز تطهى وتستهلك عند كل وجبة. فلم يخطر ببال الناس أن يخمروا الخبز إلا عندما احتاجوا إلى المزيد من: ذلك أن التخمير لا يكون جيداً عندما تكون كمية الخبز صغيرة.

وأنني أعلم أننا نجد أن الفلاحة قد انتشرت بعد منذ زمن البطاركة. ولا بد أن جوار مصر قد حمل الفلاحة إلى فلسطين منذ زمن مبكر. فإن كتاب أيوب ولعله أقدم ما يوجد من الكتب يتحدث عن فلاحه الحقول، ويقدر خمسمائة زوج من الثيران ضمن ثروات أيوب. فكلمة الزوج هذه توحى بمشهد الثيران مقرونة أزواجاً في العمل، بل وثبت الكتاب أن هذه الثيران قد كانت تحرق ساعة اختطفها السبثيون. ومن الميسور أن يقدر المرء مدى اتساع الرقعة التي كان يحرقها خمسمائة زوج من الثيران.

كل هذا صحيح. ولكن لا يجب أن نخلط بين الأزمان. فإن زمن البطاركة الذي نعرفه، بعيداً جداً عن الزمن الأول. فالكتاب المقدس يحتسب عشرة أجيال بين هذين الزمنين، في تلكم القرون التي كان الناس يعمرون فيها طويلاً. فما الذي تراه فعلوه خلال هذه الأجيال العشرة؟ أننا لا نعرف عن ذلك شيئاً. فإن ما كانوا يعيشون فيه من التشتت ومن انعدام المجتمع قد جعلهم لا يكادون يتكلمون. فأتى لهم أن يكتبوا؟ ومن لهم - مع رتابة حياتهم المنعزلة - بأحداث يدونونها لنا؟

لقد كان آدم يتكلم، وكان نوح يتكلم. فليكن ! أما آدم فقد علمه الله ذاته. وأما أبناء نوح، فقد تركوا الفلاحة عندما تفرقوا، فاندثرت اللغة المشتركة باندثار المجتمع الأول. ولقد كان ذلك حادثاً حتى ولو لم يوجد برج بابل أبداً. فأننا قد رأينا الأفراد المتوحشين في الجزر الخاليات ينسون عين

جان جاك روسو

لغتهم. وقلّما احتفظ أناس أقاموا بغير أرضهم بلغتهم الأولى وقد مضت عليهم أجيال عديدة، وإن كانت لهم أعمال مشتركة وحياة اجتماعية.

ولما تشبّت الناس في هذه الصّحراء الشّاسعة من العالم، سقطوا من جديد في الهمجية الحمقاء التي لو أنّهم ولدوا من التراب لوجدوا أنفسهم فيها. فإذا ما تتبّعنا هذه الأفكار الشّديدة التساوق، تيسّر لنا أن نوفق بين سلطة الكتاب المقدّس والصّور القديمة، ولم نضطرّ إلى أن نعتبر أن تقاليد لها من القدم ما للشعوب التي خلّفتها لنا هي خرافات.

لم يكن للناس بدّ من أن يعيشوا في تلك الحالة من التّوحش. فأما أنشطهم وأمتنهم عضلات، أولئك الذين اعتادوا أن يتقدّموا غيرهم دوما، فما كان بوسعهم إلّا أن يقتاتوا من الثّمار ومن الصّيّد. فأصبحوا بذلك صيّادين غلاضا وسفاكي دماء، ثمّ تحوّلوا بمرور الزّمن إلى محاربين وغزاة ونهبة. لقد دّس التاريخ صروحه بجرائم هؤلاء الملوك الأوّل. فليست الحرب والغزوات إلّا تصيّدا للناس يغزونهم ثمّ لا يبقى لهم من بعد ذلك إلّا افتراسهم. ذلك هو ما تعلّمه خلفاؤهم.

وأما السّواد الأكبر من النّاس، فقد كانوا أقلّ نشاطا وأكثر وداعة، فتوقفوا بأسرع ما أمكنهم وجمعوا بعض الماشية فروّضوها وآلفوها صوت الإنسان ليتغذّوا بها. كما تعلموا أن يرعوها وأن يجعلوها تتكاثر: وهكذا بدأت الحياة الرّعوية.

إن صناعة الإنسان تمتدّ بامتداد الحاجات التي تولّدها. ومن بين الأساليب الثّلاثة التي مكن للإنسان أن يعيش بها، وأعني الصّيّد ورعاية قطعان الماشية والفلاحة فإنّ الأوّل يعود البدن على القوة والمهارة والعدو كما يعود النّفس على الشّجاعة والحيلة. فهو يجعل الإنسان صلبا شرسا. إنّ بلاد الصّيّادين لا تظلّ طويلا بلاد الصّيّد¹. لا بدّ من مطاردة الفريسة بعيدا. لا بدّ إذن من استخدام

1- ان مهنة الصياد ليست مواتية أصلا للسكان، وأن هذه الملاحظة التي أبدت عندما سكن القراصنة جزرسان دومانغ. والسلاحفة، قد دعمتها حالة أمريكا الشمالية، فغتنا لم نر أبدا أن مؤسس أمة كبيرة قد كان صيادا بصفة قارة. بل كانوا كلهم فلاحين أو رعاة. فلا بدّ إذن أن لا ننظر إلى

محاولة في أصل اللغات

الأسلحة الخفيفة كالـمقلّاع والسهم والرّمح. أمّا الفنّ الرعوي، وهو أبو الرّاحة وأبو العواطف المتبلّدة، فهو أشدّ الصّناعات اكتفاء بنفسه، إذ يوفّر للإنسان من غير مشقّة تقريباً، عيشه ولباسه، بل يوفّر له، حتّى مأواه؛ فلقد قدّت خيام أوّل الرّعاة من جلود الماشية. وما كان سقّف عرض موسى وتابوته من غير هذا الجلد. أمّا الفلاحة، وهي أبطأ في الولادة، فتتصل بكلّ الفنّون؛ فهي تجلب الملكيّة والحكم والقوانين، كما تجلب بالتدريج الشّقاء والجرائم التي لا يمكن عندنا فصلها عن علم الخير والشرّ. لذلك لا يعتبر اليونانيون أن تريفوليموس قد كان فقط مخترعاً لفنّ نافع، بل يعتبرون أيضاً أنّه قد كان معلّماً وحكيماً أخذوا عنه أوّل ما كان لهم من النّظام والقوانين وعلى العكس من ذلك يبدو أنّ موسى لا يبارك الفلاحة وذلك لأنّه يجعل مخترعها ضالاً ويجعل قرايينها غير مقبولة عن الله. فكأنّ أوّل الحرائين قد أعلن في طباعه عن التّائج السيّئة لصنّاعته. لقد كان نظر مؤلّف سفر التّكوين أبعد من نظر «هيرودوتس».

وتتّصل بالتقسيم السّابق الحالات الثلاث للإنسان من حيث علاقته بالمجتمع. فالمتوحّش صياد والهمجّي راع والإنسان المدني حرّاث.

وسواء أسعينا على الكشف عن أصول الفنّون أو عمدنا إلى ملاحظة أولى العادات، فإنّنا نرى أنّ كلّ ذلك راجع في مبدئه إلى وسائل تحقيق العيش. فما كان من بين هذه الوسائل جامعاً للنّاس، فهو محدّد بالمناخ وبطبيعة الأرض. فبهذه الأسباب أيضاً يتعيّن تفسير اختلاف اللّغات وتعارض خصائصها.

لقد كانت البلاد ذات المناخات المعتدلة والأراضي الدّسمة والخصبة هي الأولى من حيث عمرانها والأخيرة من حيث تكوّن الأمم بها، وذلك لأنّه قد كان أيسر على النّاس في هذه الأماكن أن يستغنى بعضهم عن البعض، ولأنّ الإحساس بالحاجات التي يتولّد عنها المجتمع لا يظهر فيها إلا بعد ذلك.

الصيد كمورد عيش، بقدر ما ننظر إليه كمكمل ثانوي للحالة الرعوية.

فلتفترضوا أنَّ الأرض قد خيَّم عليها فصل ربيع دائم؛ ولتفترضوا في كلِّ مكان ماء وماشية ومراعي؛ ولتخيّلوا حالة النَّاس إذ سوّتهم يد الطَّبيعة، وقد انتشروا في كلِّ ذلك. لا أتصوّر كيف يمكنهم أبداً أن يتنازلوا عن حرّيتهم الأولى، وأن يغادروا الحياة المنعزلة والرَّعوية، وهي على مثل هذا القدر من التَّلاؤم مع لا مبالاتهم الطَّبيعية¹، لكي يلزموا أنفسهم بما لا يلزم من العبوديّة والأشغال والشَّقاوات التي لا تنفك عن الحالة الاجتماعية.

ما كان على الذي أراد للإنسان أن يكون اجتماعياً إلا أن يجعل أصبعه على محور الكرة الأرضيّة، ثم أن يميله على هذا الكون. ها أتني أرى الأرض قد تغيّرت وجهها بفعل هذه الحركة الخفيفة: وها أتني أرى الجنس البشري قد تقزّر قدره وأتني لسامع صيحات الفرحة يرسلها جمع ممّن لا رشد لهم. وها أنا أرى النَّاس يقيمون الصور والمدن. وهاهي الفنون تولد والقوانين والتَّجارة. وهاهي الشُّعوب تتكوّن وتمتدّ وتحلّ وتتوالى كما تتوالى سيول البحر. وأتني لأرى النَّاس وقد احتموا في بعض التقاطع من منازلهم، يتآكلون، ويحوّلون، ما بقي من العالم إلى صحراء موحشة، صرحا يشهد على وحدة المجتمع وعلى منفعة الفنون.

فإذا ما سعيتم إلى تحديد الأماكن التي ولد فيها آباء الجنس البشري والتي نشأت منها الشُّعوب الأولى وجاءت منها الهجرات الأولى، فإنّكم لن تنطقوا بأسماء المناخات المعتدلة لآسيا الصّغرى أو صقلية أو إفريقيا أو حتّى مصر، بل ستذكرون رمال كلدان وصخور فينيقيا. وستجدون الأمر نفسه في كلِّ الأزمان. فإنّ الصّين مهما عمرها الصّينيّون، فإن التّتر يعمرونها أيضاً. وقد غمر السيّث أوروبا وآسيا، وتصبّ الآن جبال سويسرا في مناطقنا الخصبة سيلا غير منقطع من المعتمّرين يظهر أنّه لن ينصب أبداً.

1- ان الإنسان كسول بالطبع إلى حدّ لا يتصور. لكنّه لا يعيش إلا للنوم والخمول والجمود، ولا يكاد يخطر بباله أن يحرك نفسه لكي لا يموت جوعاً. وليس ثمة ما يستديم حب المتوحشين لحالهم تلك أكثر من حلاوة ذلك الخمول. فلان الأهواء التي تجعل الإنسان حائراً، حذراً وناشطاً، لا تتولد إلا في المجتمع. فأول ما يهواه الإنسان بعد بقائه إنّما هو أن لا يعمل شيئاً. وإذا ما تأملنا جيداً، فغفنا نجد الأمر كذلك حتى عندنا. فكل من يعمل إنّما يتغني الحصول على الراحة. فالكسل هنا أيضاً هو الذي يجعلنا مجتهدين.

محاولة في أصل اللغات

طبيعي، على ما يقولون، أن يغدر سكان أرض قاحلة تلك الأرض ليستقروا بأحسن منها. هذا حسن جدًا، ولكن، لم كانت هذه الأرض الأحسن، عوضاً عن أن تعج بأهلها هي، تتسع لغيرهم؟ إن الخروج من أرض قاحلة يقتضي أننا نكون فيها، لم يفضل كل هؤلاء الناس إذن أن يولدوا فيها؟ يكاد المرء يظن أن الأراضي القاحلة لا يجب أن تعمر إلا بما يزيد عن طاقة الأراضي الخصبة. ولكنا نرى أن الأمر هو عكس ذلك. إن أغلب الشعوب اللاتينية كانت تعتبر نفسها شعوباً أصيلة¹، في حين أن بلاد اليونان الكبرى وهي أخصب بكثير، لم يكن يقطنها إلا الغرباء عنها، لقد كانت كل الشعوب اليونانية تعترف أنها ترجع في أصلها على قرى مختلفة، باستثناء الشعب الذي كانت أرضه أسوأ الأراضي، ألا وهو الشعب الأتيكي. فقد كان يقول عن نفسه أنه شعب أصيل أو ابن نفسه. وأخيراً، فمن دون أن ننفذ إلى غابر الأزمان، تمكنا القرون الحديثة من ملاحظة حاسمة: فأي مناخ في العالم أشد بؤساً من ذلك المناخ الذي أطلقوا عليه اسم مصنع الجنس البشري؟

إن التجمعات البشرية هي في الغالب من عمل الطوارئ الطبيعية كالطوفان المحلي أو كاندفاع سيول البحر وانفجارات البراكين وهزات الأرض الكبرى والحرائق التي تضرمها الصواعق والتي كانت تهلك الغابات، إن كل ما كان أخاف السكان المتوحشين لأرض ما وشتمهم، قد جمعهم من بد ذلك لكي يتحدوا في جبر ما اشتركوا فيه من الخسائر. فأخبار مصائب الأرض التي كانت رائجة جدًا في الأزمان السابقة، تبين لنا ما هي الأدوات التي استخدمتها العناية الإلهية لحمل البشر على التقارب. ولقد انقطعت هذه الحوادث الكبرى وقلت منذ أن أقيمت المجتمعات. ولعل هذا الوضع ما يزال قائماً، فعين المصائب التي كان جمعت الناس المشتتين، قد تشتت اليوم أولئك الذين هم مجتمعون.

إن تداول الفصول سبب آخر أعم وأدوم لا بد أنه قد كان له نفس المفعول في البلاد ذات المناخات المعوضة لهذا الاختلاف. فهاهم السكان وقد

1- إن عبارات «الأصل» هذه لا تعني إلا أن أول من يسكن البلاد قد كانوا متوحشين، لا مجتمع لهم ولا قوانين ولا تقاليد وأنهم قد عمروا الأرض قبل أن يتكلموا.

اضطروا إلى التزوّد بالمؤونة، تحسّبا للشتاء، يلجؤون إلى التعاون وعلى إقامة ضرب من الاتفاق فيما بينهم، فعندما يتعدّر عليهم التّجوال، وتوقفهم عنه صرامة البرد، إذ ذاك يجمعهم القلق بقدر ما تجمعهم الحاجة. فقد كان اللاّبونيون المندفنون في ثلوجهم، والاسكيمو وهم أشدّ الشعوب توخّشا، يجتمعون في كهوفهم شتاء ثم ينقطع تعارفهم صيفا. فلتزيدوهم في تقدّمهم درجة وفي استنارتهم درجة، إذن لسوف ترونهم يجتمعون إلى الأبد!

ليست معدة الإنسان ولا أمعاؤه معدّة لهضم اللّحم التي. فإنّ ذوق الإنسان لا يتحمّله عموما. وفي ما عدا الاسكيمو وحدهم تقريبا، وقد كنت أتحدّث عنهم، فإنّ المتوحّشين أنفسهم يشوون لحومهم، فينضاف إلى استعمال النار الضروريّة لطبخها، اللّذة التي تعطيها النار للبصر والحرارة التي يلتذّ بها الجسم. إن مشهد النار، الذي ينفر الحيوانات، يجلب الإنسان¹، فيجتمع الناس حول موقف مشترك، وقيمون الولاثم ويرقصون: هناك تقرب روابط العادة العذبة الإنسان من نظرائه من دون أن يشعر، وعلى ذلك الموقد الغابي تشتعل النار المقدّسة التي تحمل أول مشاعر الإنسانيّة إلى أعماق القلوب.

إن العيون والأنهار التي يتفاوت انتشارها في البلاد الساخنة هي نقاط أخرى للاجتماع، زاد في ضرورتها كون الناس أعجز عن الاستغناء عن الماء ممّا هم عن النار. فالهملج خاصة، وهم أولئك الذين يعيشون من قطعانهم، يحتاجون إلى موارد مائيّة مشتركة، ويخبرنا تاريخ أقدم الأزمنة بأنّ معاهداتهم وخصوماتهم قد بدأت هناك². إن سهولة الحصول على المياه يمكن أن تعطل تكوّن مجتمع السّكان في الأماكن المرويّة جيّدا. وعلى العكس من ذلك فقد

1- إن النار تمنح الحيوانات كما تمنح الإنسان سعادة كبرى، عندما تكون قد تعودت رؤيتها وقد تذوّقت حرارتها الحلوة. بل ولعل حاجتها إليها لا تكون في بعض الأحيان بأقل من حاجتنا نحن إليها، على الأقل لتدفئة صغارها.

ولكننا لم نسمع قط من يقول أن حيوانا منزليا ما، بريّا كان أو أهليا، قد اكتسب من الحيلة ما يمكنه من أن يصنع نارا ولو بتقليدنا. ها هي إذن تلك الكائنات المتعلقة التي تكون أمام الغنسان مجتمعا هاربا، على ما يقولون، والتي لم يرتفع ذكاءها - مع ذلك - إلى أن تستخرج شرارات من النار من حصاة، وأن تحتفظ بها أو أن تحف على الأقل ببعض النيران المتروكة. ليت شعري، إن الفلاسفة ليسخرونا منا بكل وضوح. وأنا لنرى أنّهم بما يكتبون يعتبروننا من البهائم.

2- انظر مثال هذه وتلك في الفصل XXI من سفر التكوين بين ابراهيم وابي مالك، فيما يتعلق بالبشر.

محاولة في أصل اللغات

كان لابد، في الأماكن الجافة، من التعاون على حفر آبار، وعلى مد قنوات لسقي الماشية. فانت ترى أن الناس في هذه الأماكن مجتمعون منذ زمان لا نكاد نذكر بدايته، إذ لم يكن للأرض بد من أن تظل مقفرة أو أن يحولها عمل الإنسان إلى أرض يأوي عليها. ولكن ميلنا إلى ردّ كل الأمور إلى ما ألفناه يقتضي أن نتأمل فيما قلناه بعض الشيء.

لقد كانت الحالة الأولى للأرض تختلف كثيرا عن الحالة التي هي عليها اليوم، سواء أنظرنا إليها وقد زينت يد الإنسان أو وقد قبحتها. فإن ما زعمه الشعراء من عماء في العناصر، إنما كان سائدا فيما تنبت الأرض. ففي تلك الأزمان البعيدة، حيث كانت الانقلابات كثيرة الوقوع وحيث كانت طبيعة التربة، وحيثات الأرض يغيرها ألف طارئ وطارئ، كان كل شيء ينمو بشكل فوضوي: الأشجار والخضر والشجيرات والحشائش. فلم يكن أي نوع من هذه الأنواع يجد من الوقت ما يسعه ليستولي على أنسب الأراضي له فيضيق فيها الخناق على ما سواه من الأنواع. بل كان الأنواع كلها تتفارق ببطء رويدا رويدا، ثم كان يطرأ انقلاب يخلط كل الأشياء من جديد.

إن العلاقة التي بين حاجات الإنسان وما تنبت الأرض لهي من الوثاقة بحيث يكفي أن تكون الأرض أهلة حتى يستمر كل شيء. ولكن، قبل أن يتم للأفراد المجتمعين أن يقيموا بأعمالهم المشتركة توازنا بين نباتات الأرض، فقد كان استمرار تلك النباتات كلها يقتضي أن تتولى الطبيعة وحدها إقامة ذلك التوازن الذي تحفظه اليوم يد البشر. ولقد كانت تحافظ على ذلك التوازن أو تعيده بواسطة انقلاباتها مثلما أن البشر يحافظون عليه ويعيدونه بواسطة تقلباتهم. أن ما لم يكن بعد سائدا بينهم من الحرب، إنما كان يبدو سائدا بين العناصر. فإن البشر لم يعتادوا إحراق المدن، ولا حفر المناجم ولا اقتلاع الأشجار؛ ولكن الطبيعة كانت تشعل البراكين وتشير ارتجاجات الأرض؛ كما كانت نار السماء تلتهم الغابات. لقد كانت الصاعقة أو الطوفان أو التبخر تفعل في بضع ساعات ما يفعله اليوم مائة ألف ساعد من الرجال في مدة قرن. لا أستطيع أن أفهم -على غير هذا الوجه- كيف كان يمكن لهذا النظام أن يبقى ولهذا التوازن أن يثبت. فلو لا ذلك

لابتلعت بطول المدة أكبر الأنواع في النظامين العضويين أصغرها، ولما أضحت الأرض بعد ذلك مكسوة بغير الأشجار والحيوانات المفترسة ولباد كل شيء في النهاية.

ولولا ذلك لفقدت المياه رويدا رويدا من دورانها الذي يحيي الأرض ولا تحطت الجبال وانخفضت ولأجحفت الأنهار رملا ولا متلات البحار وامتدت ولمالت كل الأشياء من حيث لا تدري إلى الاستواء. إن يد الناس توقف هذا الانحدار وتعطل هذا التطور. فلولاهم لتزايدت سرعته ولربما كانت الأرض الآن تحت المياه. لقد كانت عيون الماء (قبل أن يتولأها) العمل البشري أشد تفاوتا في انتشارها وأقل إخصابا للأرض وأعسر إرواء للسكان. وغالبا ما كانت كذلك تخرج عن مجاريها لأن صناعة الإنسان لم تكن تحبسها فيها، فتندفق ذات اليمين وذات الشمال وتغير من وجهتها ومن مجاريها وتتفرع إلى عدّة فروع. فكنت تارة تجد أنها قد نضبت وطورا تجد أنّ الأوعاس تحول دون اقترابك منها. فكانت كما لو لم تكن أبدا، وكان الناس يموتون من العطش وهم وسط المياه.

فكم من بلد جاف لم يكن يسكن إلا بفضل ما جلبه الناس من مجاري وقنوات من الأنهار: تكاد بلاد الفرس بأكملها لا تعيش إلا بهذا الاصطناع. وشعوب بلاد الصين كالنمل (في كثيرتهم) بفضل ما فيها من القنوات العديدة. ولولا ما في هولندا من القنوات لغمرت مياه الأنهار الناس، تماما كما كانت تغمرهم سيول البحر لولا (ما يقيمونه من) السدود. وكذلك مصر، أصحب بلاد الأرض، فإنها لا تسكن لولا العمل الإنساني: فسهولها الكبرى التي تنعدم فيها الأنهار، والتي ليس في أرضها ما يكفي من

1- يزعم بعضهم أن مختلف أنواع الحيوان تظل من تلقاء نفسها في تآرجح دائم يمثل توازنها، وذلك بموجب ضرب من الفعل ورد الفعل الطبيعيين. فعندما يكون النوع المفترس قد تكاثر بما يتجاوز المطلوب، على حساب النوع المفترس، إذ ذاك فإن النوع الأول مضطر إلى التناقص، لأنه لم يجد قوته، فيترك بذلك للنوع الثاني من الوقت ما يكفي للتوالد من جديد، ويستمر ذلك إلى أن يتوفر من هذا النوع قوت كثير للنوع الآخر، فيتضاءل النوع المفترس من جديد في حين يتكاثر النوع المفترس مرة أخرى. ولكن مثل هذا التآرجح لا يبدو محتملا، لأنه لا بدّ إذ ذاك أن يوجد في هذا النسق وقت يتزايد فيه النوع الذي يلعب دور الفريسة، ويتناقص فيه النوع الذي يقتات منه. وهو ما يبدو مناقضا لكل معقول.

محاولة في أصل اللغات

المنحدرات، لا تملك من الموارد إلا الآبار. فإذا كان أول ما يذكر في التاريخ من الشعوب لم يسكن في الأراضي الدسمة أو على الشواطئ السهلة، فليس ذلك لأن هذه المناخات الطيبة كانت مقفرة ولكن لأن سكّانها المتعدين، لما كان يمكنهم أن يستغنوا عن بعضهم، فقد عاشوا مدة أطول وهم منعزلون في عائلاتهم، وبدون تواصل. أمّا في الأماكن الجافة التي لم يكن بالإمكان الحصول فيها على الماء إلا بواسطة الآبار فقد كان من الضروري التّجمع لحفرها أو على الأقلّ الاتفاق على استعمالها. ذلك هو أصل المجتمعات وذلك هو أصل اللغات في البلدان الساخنة.

هناك انعقدت أولى الروابط بين العائلات، وهناك تواعد الجنسّان أول ما تواعدا. لقد كانت الفتيات يأتين لورد الماء للعائلة، وكان الفتيان يأتون لسقي قطعانهم. هناك طففت العيون التي قد كانت تعودت رؤية نفس الأشياء منذ الصّبي، ترى من الأشياء ما هو أحلى. فتأثر القلب لرؤية هذه الأشياء الجديدة، وإذا بميل لم يعهده من قبل جعله أقلّ توحّشاً، وإذا به يحسّ بلذّة أن لا يكون وحيداً. لقد أصبح الماء وهم لا يشعرون أشدّ ضرورة، وتكاثر عطش الماشية فأضحوا يتعجلون الذهاب وأمسوا يأسفون للأوبة. لم يكن ثمة في ذلك الزمن السعيد ما يشير إلى الساعات ولم يكن ثمة ما يدعو لحسابها. لم يكن للزمن من مقياس إلا المرح أو القلق. هناك تحت شجرات سنديان عجائز قهرت السنين، شباب متلهف راح يتنسى وحشيته رويدا رويدا. لقد كانوا يتراوضون شيئاً فشيئاً. فتعلموا الإفصاح عن مقاصدهم لأنهم سعوا إلى أن يفهموها. هناك انعقدت أولى الاحتفالات فكانت الأرجل تنطّ من الفرحة. لم تعد الإشارة العجلى تكفيها، فرافقها الصوت بنبرات هائلة، وامتزاج الشوق باللذة عندهم: ها هنا كان مهد الشعوب الحقيقي، ومن صفاء مياه العيون النقية سرت نيران الحب الأولى.

ولكن: هل كان الناس قبل هذا الزّمان يولدون من التّراث؟ وهل كانت الأجيال تتوالى من دون أن يجتمع الجنسّان ومن دون أن يتفاهم الناس؟ كلا: فقد كان ثمة عائلات ولكن لم يكن ثمة أمم أبداً. كان ثمة لغات أهليّة ولكن لم يكن ثمة أبداً لغات شعبية، كان ثمة زواج ولكن لم يكن

ثمة حبّ أبدا. لقد كانت كل عائلة تكتفي بنفسها، وتبقى من دون أن تختلط بغير دمه. فالأطفال اللذين يولدون من نفس الآباء، كانوا ينمون معا ويهتدون رويدا رويدا إلى طرق في التفاهم. لقد كان الجنسان يتمايزان بتقدّم العمر وكان الميل الطبيعي كافيا لجمعها. كانت الغريزة تحلّ محلّ التفضيل وكان الناس يتحوّلون إلى زوج وزوجة من دون أن ينقطع كونهم أخا وأختا¹. لم يكن في كلّ هذا من متوقّد المشاعر ما يكفي لحلّ عقال اللسان ولا من يستحثّ نبرات الأهواء المتلهّفة ليجولها إلى مؤسسات. وعلى هذا فليُقَسّ ما يمكن أن نقوله عن الحاجات النادرة والمتأنيّة التي قد كان يمكنها أن تحمل بعض الناس على الإسهام في أعمال مشتركة. فهذا يشرع في بناء حوض لعين الماء وذاك يكمله من بعده. وغالبا ما كان ذلك يتمّ من دون أن يحتاج إلى أيّ اتفاق، بل وأحيانا من دون أن يرى بعضهم بعضا. وباختصار فلقد كان لا بدّ في المناخات المعتدلة وفي الأراضي الخصبة من تعبئة العواطف الجميلة بكلّ حيويّتها حتّى يُشرع في إنطاق السّكان. ولما كانت اللّغات الأولى بنات اللّذة لا بنات الحاجة، فقد ظلّت طويلا تحمل طابع الأب، ولم تمنح نبرتها المغرية إلّا بامحاء العواطف التي ولّدتها، حينما انتشرت بين الناس حاجات جديدة أجبرت كل إمريء على أن لا يفكر إلا في نفسه وعلى أن ينزوي بقلبه إلى باطن ذاته.

1- لقد كان ضروريا ان يتزوج الرجال الأول من اخواتهم. لقد تمكنت هذه العادة من أن تستمر داخل بساطة نطاق العادات الأولى، من دون حرج، وذلك طالما بقيت العائلات منعزلة وحتى بعد تجمع أقدم الشعوب، ولكن القانون الذي أطاح بها لا يقل قداسة عنها لأنه من صنع الإنسان. وأولئك الذين لا يعتبرونه إلّا من حيث ما يقيمه من الروابط بين العائلات، لا يرون منه أهم الجوانب. فلو توقّف مثل هذا القانون المقدس عن مخاطبة القلب وعن ضبط الحواس مع ما يفرضه التعامل المنزلي بين الجنسين من التعود، لما بقي بين الناس نزاهة، ولعجلت اشنع العادات بالقضاء على الجنس البشري.

الفصل العاشر

تكوّن لغات الشّمال

يصبح كلّ التّاس بمرور الزّمن متشابهين، إلّا أنّ نظام تقدّمهم يختلف. ففي المناخات الجنوبيّة حيث الطّبيعة المعطاء، تتولّد الحاجات من الأهواء: أمّا في البلاد الباردة حيث الطّبيعة الضّئيلة، فتتولّد الأهواء من الحاجات. فتنتبّع اللّغات، سليلات الحاجة البائسة، بطابع منشئها الخشن.

ومهما كان صبر الإنسان على تقلّبات الهواء وعلى البرد والقلق بل وعلى الجوع، فثمة رغم ذلك حدّ تنهزم عنده الطّبيعة (البشريّة). فما كان من الأشياء المعرضة إلى هذه المحن القاسية، اضمحل، وما بقي نما واشتدّ. ليس ثمة وسط بين القوّة والموت. وهذا هو السّبب فيما للشعوب الشّماليّة من القوّة. فإنّ ذلك لا يعود إلى المناخ بالدرجة الأولى، بل إلى أنّ المناخ لم يصبر غلاً على الأقوياء منهم. ولا عجب في أن يحتفظ الأطفال بما لأبائهم من البنية الطّيبة.

وأنا لنرى من مجرّد ما سبق أنّه لا بدّ أن يكون للرجال الأقوي أعضاء أقل رهافة من أعضاء غيرهم، وأصوات أغلظ وأثخن من أصوات غيرهم بل وأي فرق عندهم بين تغيّرات الصوت المؤثرة النابعة مما يعتمل في الرّوح وبين ما تستصرّخه الحاجات الطّبيعية من الأصوات؟ ففني هذه المناخات حيث يخيم الموت على كلّ الأشياء على امتداد تسعة أشهر من السنة وحيث الشمس لا تبعث الدّفء في الهواء بضعة أسابيع إلّا لكي تشعر الناس بما حرّموا منه من الخيرات، فتزيد في شقائهم؛ وفي هذه الأماكن التي لا تمنح الأرض فيها

جان جاك روتو

شيئا إلا على قدر العمل، وحيث ينبوع الحياة يبدو مستقرًا في السواعد أكثر مما هو مستقر في القلب، ما كان يخطر للناس أن يستعذبوا غير ما عندهم من الروابط إلا نادرا، بل كانت روابطهم مقتصرة على دوافعها الحسية. فإذا الصّدف اختيار وإذا الأسهل هو الأفضل وإذا الراحة التي تغذي العواطف قد حل محلها العمل الذي يكتبها. فلقد كان لزاما على المرء أن يفكر في العيش قبل أن يفكر في رغد العيش. ولما كانت حاجة الناس بعضهم إلى بعض أفلح في جمعهم من العاطفة، فإن المجتمع لم يتكون غلا بالصناعة: إن خطر الموت الدائم لم يكن يسمح لهم بأن يكتفوا بلغة الإشارة. فإن أول ما تلفظوا به من العبارات لم يكن «أحبوني» ولكن «ساعدوني».

فهاتان الكلمتان تنطقان على تشابهما بنبرة مختلفة، إذ ما كان على المرء أن يحسّس غيره بشيء، بل كان عليه أن يسمعه كلّ شيء. لم يكن الأمر إذن متعلّقًا بالطاقة بل كان متعلّقًا بالوضوح. لقد عوضوا ما لم يكن القلب يعطيه من التبر بمقاطع متينة ومحسوسة. فإن وجد في شكل اللّغة بعض انطباع طبيعي، فلقد كان يزيد فيما لها من الخشونة.

وفعلا فإن الشماليين ليسوا بدون عواطف. ولكنّ ما لهم منها من جنس مختلف. فالعواطف في البلدان الساخنة عواطف شبيقة مرتبطة بالحبّ والتعومة: فلا يكاد يبقى على السّكان شغل من فرط ما توفّره لهم الطبيعة. فلا يكاد الآسيويّ يظفر بالنساء والراحة حتّى يشعر بالبهجة. أمّا في الشّمال حيث يكثر الاستهلاك على أرض قاسية. فإنّ أناسا لهم كلّ تلك الحاجات يسهل إضجارهم، ويقلقهم كلّ ما يفعل حولهم. وإنهم لفرط ما كان عيشهم عسيرا ليزدادون تمسّكا بالقليل الذي لهم بقدر ما يزداد فقرهم. فإن أنت اقتربت منهم، فقد اعتديت على حياتهم. ذلك مصدر ما لهم من المزاج العصبي الذي ما أسرع أن ينقلب إلى حق على كلّ ما يجرّحهم. وهكذا فإنّ أقرب أصواتهم إلى الطبيعة أصوات الغضب والتوعد، ودائما ما تُصاحب هذه الأصوات مقاطع قويّة تجعلها خشنة ومدوّية.

الفصل الحادي عشر

تأملات في هذه الاختلافات

تلك هي في رأيي أعَمّ الأسباب الطبيعية للفرق الذي يخص اللغات البدائية. فلغات الجنوب لا بدّ أنها كانت حيّة ورتانة ونابرة وبليغة وكثيرة الغموض من فرض متانتها. أمّا لغات الشمال فلا بدّ أنها كانت صماء خشنة، مقطعة وحادة ورتيبة وواضحة من فرط ما فيها من الكلمات لا من حسن تركيبها. وما يزال في اللغات الحديثة برغم كونها قد عجت وأعيد صهرها مائة مرة ومرة، بعض هذه الفروق. فالفرنسية والانكليزية والألمانية هي اللسان الخاص الذي يتكلم به أولئك الذين يتعاونون ويفكرون فيما بينهم بهدوء، أو يتكلم به أولئك المتحاملون الذين يغضبون.

ولكن رسل الالهة الذين يكشفون عن الألغاز المقدسة والحكماء الذين يهبون القوانين للشعب، والقواد الذين يجزّون الجمهور، لا بدّ أن يتكلموا العربية أو الفارسية¹. فلغاتنا مكتوبة أفضل مما هي منطوقة. وأنه ليلتذّ بقراءتنا أكثر مما يلتذّ بسماعنا. وعلى العكس من ذلك فإن اللغات الشرقية تفقد إذا ما كانت مكتوبة حيويتها وحرارتها. فليس المعنى إلا نصف كامن في الكلمات، وكل قوته إنما هي في النبرات. إن من يحكم على عبقرية المشاركة من خلال كتبهم كمن يريد أن ينظر إلى جنة الإنسان ليرسم صورته.

1- اللغة التركية لغة شمالية.

إن الحكم الصائب على أفعال الناس يقتضي أن ننظر إلى هؤلاء في كل علاقاتهم. وهو ما لم نتعلم أبدا أن نفعله. فنحن عندما نضع أنفسنا موضع الآخرين فإننا نضع أنفسنا بما طرأ علينا من التغير لا بما يجب أن يطرأ عليهم. وعندما نظن أننا نحكم عليهم بالعقل، فإننا في الواقع لسنا إلا مقارنين لأحكامهم المسبقة بأحكامنا المسبقة. فإنك لترى الذي له بعض معرفة باللغة العربية يتسم إذ يتصفح القرآن، ولعمري، إنه لو أنصت إلى محمد يقرأه بنفسه في تلك اللغة البليغة والموقعة، وبذلك الصوت الجمهوري المقنع الذي كان يستهوي الأذن قبل أن يستهوي القلب، ولو أنصت عليه إذ لا يتفك ينفث في حكمه نبرة وحماسا، لسجد على الأرض من الرهبة ثم لناداه ألا أيها النبي الأعظم، إلا يا رسول الله خذنا إلى المجد والشهادة: نريد أن نغلب أو أن نموت في سبيلك. ان التعصب ليبدو لنا دائما مضحكا، إذ ليس له بيننا صوت يعبر به عن نفسه. وحتى متعصبونا فإنهم ليسوا بمتعصبين حقيقيين، إن هم إلا نصابون أو مجانين. أما لغتنا فليس فيها غلا صيحات يرسلها عبيد الشيطان بدلا عن انعطافات يشدو بها من ألهمهم الرحمان.

الفصل الثاني عشر

أصل الموسيقى ونسبها

لقد تكونت أولى المقاطع أو الأصوات الأولى مع التصويرات الأولى، وذلك بحسب جنس الهوى الذي أملى هذه أو تلك. فالغضب يستثير صيحات التوعد التي ينطق بها للسان والحنك. ولكن صوت الحنان أعذب من ذلك، فهو تغاير تحدثه الزردمة بحيث يصبح صوتا. غير أن نبراته تكثر أو تقل وانعطافاته تحتد أو تخفت بحسب الشعور الذي نضاف عليها. وهكذا يتولد الإيقاع وتتولد الأصوات مع المقاطع. إن الهوى ينطق كل الأعضاء ويزين الصوت بكل بريقها. وهكذا فأبيات الشعر والأناشيد والكلام من أصل مشترك. فحول عيون الماء التي تحدث عنها كانت الخطب الأولى هي الأغنيات الأولى. لقد ولدت الترجيعات الدورية والموزونة للإيقاع والانعطافات النغمية للنبرات، الشعر والموسيقى مع اللغة. بل إن كل ذلك ما كان إلا اللغة عينها في هذه المناخات الطبيعية والأزمان السعيدة حيث انحصرت الجادات الأكيدة التي كانت تتطلب مساعدة الغير، في تلك التي كان القلب يولدها.

إن القصص الأولى والخطب الأولى والنواميس الأولى قد كانت شعرا. فلقد وجد الشعر قبل النثر. ذلك ما حدث فعلا لأن الأهواء تكلمت قبل العقل. وكذلك كان شأن الموسيقى. فلم يكن ثمة في البداية من موسيقى غلا النغم ولا من النغم غير ما يحدثه الكلام من تنوع الصوت. لقد كانت النبرات تكون النشيد والكميات تكون الوزن وكان الناس يتكلمون،

بالأصوات والإيقاع بقدر ما كانوا يتكلمون بالمقاطع والتصويّات ويقول «سترايون»¹ عن الكلام والغناء إنهما كانا نفس الشيء فيما مضى. ثم يضيف أن ذلك يبيّن أن الشعر هو مصدر البلاغة². لقد كان عليه أن يقول إن هذا وتلك قد كان لهما نفس المصدر، وغنّهما لم يكونا في البداية إلا شيئاً واحداً. أما عن الوجه الذي انتظمت به المجتمعات الأولى، فهل كان من العجب، أن أولى القصص وأولى النواميس قد نظمت شعراً؟ وهل كان من العجب أن أول النحاة قد أخضعوا صناعتهم إلى الموسيقى، وأنهم كانوا في الوقت نفسه أساتذة في كلتا الصناعتين؟³

إن لغة ليست لها غلا المقاطع والتصويّات لا تملك إذن إلا نصف ثروتها. صحيح إنها تؤدي أفكاراً. ولكنها إذا ما أرادت أن تؤديّ مشاعر أو صوراً احتاجت مع ذلك إلى إيقاع وأصوات أي إلى نغم. هو ذا ما كان متوقفاً في اللغة اليونانية وما يعوز لغتنا.

إننا ما نزال في عجب من الآثار الهائلة التي خلّفتها البلاغة والشعر والموسيقى بين اليونانيين. فنحن لا نفهم هذه الآثار لأننا لا نحسّ بمثلها. لعلّ كل ما نظفر من أنفسنا بأن تطاوعنا إليه أمام تأكيد الشهادات بذلك هو أن نتظاهر بتصديقها مجاملة لعلمائنا⁴.

1- «سترايون»، الجغرافيا، الكتاب I

2- «سترايون»، الجغرافيا، الكتاب I

3- Archytas atque Aristoxenes etiam subiectam grammaticen musicae putaverunt, et eosdem utriusque rei proceptores fuisse... Tum Eupolis, apud quem Prodamus et musicen et litteras docet. Et maricas, qui est Ilyperbolus, nihil se ex musicis scire nisi litteras confitetur. Quintil lib I. cap X.

4- ما من شك في أنه لا بد لنا طرح قسط المبالغة اليونانية. ولكن المبالغة في هذا الطرح إلى حد طمس كل الفروق هي مبالغة في الثقة بالحكم المسبق الحديث. يقول القس تراسون: «عندما بلغت موسيقى اليونان، أيام أمفيون وأورفي، ما بلغت اليوم في أبعد المدن عن العاصمة، إذ ذاك كانت توقف تدفق الأنهار، وينحني لها السنديان وتزلزل منها الصخور. وقد بلغت اليوم قمة عالية جداً من الكمال، إذ يحبها الناس كثيراً، ويتمقون في فهم مظاهر جمالها، ولكنها لم تعد تحرك شيئاً في مكانه. ذلك ما كان أيضاً من أمر شعر ميروس، وهو الشاعر الذي ولد في تلك الأزمان التي مازالت تحمل آثار. طفولة الفكر البشري إذا ما قارناها بالآزمنة التي تلتها. لقد

محاولة في أصل اللغات

ولقد عمد «بورات»، إذ ترجم على قدر طاقته بضعة قطع من الموسيقى اليونانية إلى ترقيمات موسيقانا، إلى أن يشرف بكل بساطة، على عزفها في أكاديمية الآداب، وتصابر على سماعها رجال الأكاديمية. وإني لأقدر كلفة هذه التجربة في بلد لا يمكن أن تفك رموز موسيقاه أية أمة أخرى. فلتعرضوا على من أردتم من الموسيقيين الأجانب أن ينجزوا عزفا منفردا للأوبرا الفرنسية. اتحداكم أن تفهموا شيئا من ذلك. ومع ذلك فهؤلاء الفرنسيون هم بالذات أولئك الذين أدعوا القدرة على الحكم على بعض أناشيد «بيندار» التي مرّ على وضعها موسيقيا ألفا سنة.

لقد قرأت أن الهنود في أمريكا، كانوا، فيما مضى، عندما يشاهدون المفعول العجيب للأسلحة النارية، يلتقطون من الأرض حبات بندقية الفتيلة، ثم يرمونها بأيديهم وهم يحدثون بأفواههم دويا كبيرا، فكانوا يعجبون من أنهم لم يقتلوا أحدا. إن خطباءنا وموسيقيينا وعلماءنا ليشبهون هؤلاء الهنود. العجب ليس أننا لم نعد نفعل بموسيقانا ما كان يفعله اليونانيون بموسيقاهم بل لعل العجب يحدث على العكس من ذلك لو أننا بمثل هذه الآلات المختلفة نفعل عين ما فعلوا.

سكّر الناس بأبياته الشعرية، ولكنهم يكتفون اليوم بتذوق أبيات الشعراء المجيدين وبالحكم عليها». لا ينكر أحد أن القسّ تراسون قد كان على شيء من الحكمة أحيانا ولكنه من المؤكد أنه لم يظهر من ذلك شيئا في هذا المقطع.

الفصل الثالث عشر

في النغم

ما من أحد يشكّ في أن الإنسان تغّيره حواسّه. ولكن عدم تمييزنا بين التغيرات يجعلنا نخلط بين أسبابها. فإن ما ننسبه من السلطان للإحساسات قليل بل قليل جدا. فنحن لا نرى أنها غالبا ما تؤثر فينا لا كإحساسات فقط ولكن أيضا كعلامات أو صور، وأن آثارها الأدبية لها أيضا أسباب أدبية. فمثلما أن الشاعر التي يثيرها فينا الرسم لا تأتي أبدا من الألوان، فإن سيطرة الموسيقى على أرواحنا ليست أبدا من عمل الأصوات. فإن ألوانا جميلة ومحكمة التدرّج تروق النظر. ولكن هذا الالتذاذ هو التذاذ بالإحساس فقط، وإتّما التصوير والمحاكاة هما اللذان يعطيان هذه الألوان حياة وروحا. فالعواطف التي تعبر عنها تلك الألوان هي التي تؤثر في عواطفنا، والأشياء التي تمثلها تلك الألوان هي التي تحدث فينا انفعالات. فليس لاهتمامنا وشعورنا ارتباطا بالألوان. فمعالم اللوحة الفنية المؤثرة، تؤثر فينا ولو كانت في صورة منسوجة. فلتحذفوا هذه المعالم من اللوحة، إذن لن يكون للألوان بعد ذلك أيّ مفعول.

إن فعل النغم في الموسيقى هو عين فعل التصوير في الرسم، إذ هو الذي يبرز المعالم والأشكال التي ليست التآلفات والأصوات إلا ألوانها. وقد يعترض بعضهم بأن النغم ليس إلا سلسلة من الأصوات. لا شكّ في ذلك ولكنّ التصوير ليس أيضا إلا انتظاما للألوان. فالخطيب يستخدم الحبر ليدوّن مخطوطاته. فهل سنقول لذلك أن الحبر هو محلول بليغ جدًا؟

جان جاك روسو

فلتصوروا بلدا لا يكون للناس فيه أي فكرة عن التصوير، بل يكثر فيه من يظن أنه قد امتاز في فن الرسم لأنه يقضي حياته وهو يخلط الألوان ويمزج بعضها ببعض ويوفقها. سيعتبرون رسما تماما مثلما نعتبر موسيقى اليونانيين. وعندما نحدثهم عن التأثير الذي تتركه فينا اللوحات الجميلة وعمّا في تعشق لوحة مثيرة من الفتنة، فسرعان ما سيتعمق علماؤهم في المسألة فيقارنون ألوانهم بألواننا، وينظرون فيما إذا كان اللون الأخضر عندنا أرق ممّا عندهم أو فيما إذا كان اللون الأحمر عندنا أشدّ بريقا. سيبحثون عن تآلفات الألوان التي يمكن أن تبكي وعن تلك التي يمكن أن تغضب؛ كذلك، سيعمل الـ«بواريت» على أن يجمعوا فوق رداء مهترئ خرقا مشوّهة من لوحاتنا ثم يتساءلون في دهشة عن العجب في هذه الألوان.

فإذا ما بدأ الناس في بعض الأمم المجاورة في رسم بعض الخطوط أو بعض الملامح من التصوير، أو بعض الأشكال التي ما تزال غير مكتملة، فإن كل ذلك سيعتبر مجرد خربشة أو مجرد رسم شاذّ وباروكي. ولسوف يتمسك حفاظا على الذوق السليم بهذا الجمال البسيط الذي قد لا يعبر بحق عن شيء، ولكنه يعرض على الناس تدرّجات لامعة الجمال وألوانا محكمة التلوين وتدرجا لا ينتهي من الأصباغ التي لا ملامح فيها لشيء.

وأخيرا، فلقد يتوصل بمفعول التقدم إلى تجربة المنشور. سيسارع ساعتها بعض مشاهير الرسامين إلى أن يؤسس على ذلك نسقا رائعا. سيقول لهم، إن التفلسف الحقيقي يقتضي، أيها السادة، أن نرتفع إلى الأسباب الطبيعية. هو ذا تحلّل الضوء. هي ذي كل الألوان الأولية. هي ذي علاقاتها ونسبها. تلك هي مبادئ اللذة الحقيقية التي يعطيكم إياها الرسم. إن كل هذه الكلمات الرهيبة، كلمات «التصوير» و«التمثيل» و«الشكل»، لهي محض تدجيل يتعاطاه الرسامون الفرنسيون، إذ يظنون أنهم بمحاكاتهم يولدون ما لست أدري من الحركات في النفس في حين نعرف أنه ليس فيها إلا إحساسات. يقولون لكم أشياء عظيمة عن لوحاتهم، ولكن انظروا إلى ألواني.

محاولة في أصل اللغات

ولسوف يواصل قائلًا أن الرسامين الفرنسيين ربّما لاحظوا قوس قزح، ولعل الطبيعة قد غرست فيهم بعض الميل إلى التدرج، وقد تكون فطرتهم على مزج الألوان. أما أنا فقد أظهرت لكم المبادئ الكبرى والحقيقية للفن؛ فما بالكم بالفن! بل وبكل الفنون كلّ العلوم يا أيّها السادة! إن تحليل ألوان المنشور وحساب انكسارات ضوئه ليمكنناكم من إدراك النسب الحقيقية الوحيدة التي هي موجودة في الطبيعة. كما يمكنناكم من قانون كل النسب. ولكن كل شيء في الكون ما هو غلا نسبة. إذن فالمرء يعرف كل شيء عندما يحذق الرسم ويعرف كل شيء عندما يحذق الملاءمة بين الألوان.

فما عسى أن يكون موقفنا من ذلك الرسام الذي ينساق من نقص شعوره وذوقه إلى مثل هذا التفكير وإلى أن يقصر حمقا ما يجلبه لنا الرسم من لذة على المظهر الحسّي من فته؟ وما عساه يكون موقفنا من ذلك الموسيقيّ الذي يذهب به الظنّ من فرط ما امتلأ بمشيلات هذه الأحكام المسبقة إلى اعتبار تناسب الأنغام وحده مصدر ما تخلفه فينا الموسيقى من عظام الآثار؟ لنرمينّ بالأول إلى أخشاب البيوت يزيّنها، ولنحكمنّ على الثاني بأن لا ينجز إلا الأوبرات الفرنسية.

ولما لم يكن الرسم فن التوفيق بين الألوان بشكل يروق النظر، فإن الموسيقى ليست كذلك فن التوفيق بين الأصوات بشكل يروق الأذن. ولو لم يكن ثمة إلا ذلك لما كانتا إلا في عداد العلوم الطبيعية لا في عداد الفنون الجميلة. فالمحاكاة وحدها هي التي ترفعهما إلى هذه المنزلة. ولكن ما الذي يجعل من الرسم فن محاكاة؟ أنه التصوير! وما الذي يجعل من الموسيقى فنّ محاكاة آخر؟ انه النغم.

الفصل الرابع عشر

في التصاوت

إن جمال الأصوات طبيعي ومفعولها حسي صرف. فهو ينتج عن تضافر مختلف جزئيات الهواء التي يحركها الجسم المصوّت وتحركها كل المنازل التامة التي ينقسم إليها إلى ما قد لا ينتهي. ويعطي كل ذلك معا إحساسا طيبا. فكل من في الكون سيلتدّون بسماع أصوات جميلة ولكنّ لذتهم لن تكون لذّة كبرى إذا ما كانت لا تحركها انعطافات نغميّة معروفة لديهم، وسوف لن تتحول تلك اللذة إلى بهجة حقيقية. فإن الأذن ستجد أعذب الأناشيد عندنا رديئة إذا هي لم تألفها. فتلك لغة لا بدّ أن يكون معجمها بين أيدينا.

أمّا حال التصاوت، فهو في حدّ ذاته أسوأ من ذلك الحال. فهو لكونه لا يحوي من الجمالات إلا الاصطلاح، لا يطرب الأذان التي لم تألفه. فلا بدّ أن يكون للمرء تعود كبير عليه حتّى يحس به ويتذوّقه. فالآذان الخشنة لا تجد في ما لنا من التصاوت إلا دوتا، ذلك أنه ليس من العجب أن ينقطع الالتذاذ الطبيعي عندما تتغيّر النسب الطبيعية.

ويحتوي الصوت (عموما) على كل الأصوات التصاوتية الملازمة له وذلك في نسب من القوة والمسافات لا بدّ أن تكون بينها لكي تعطي أكمل تصاوت لذلك الصوت. فلتضيفوا إليها الفاصلة الثلاثية أو الفاصلة الخماسية أو أي تساوق صوتي آخر؛ فإنكم لا تضيفونها بل تضاعفونها وتبقون

جان جاك روسو

على نسبة المسافة ولكنكم تغيّرون نسبة القوة. وعندما تشدّدون تساوقا صوتيًا دون التساوقات الأخرى فإنكم تكسرون التناسب. تريدون أن تفعلوا خيرا من الطبيعة، فما تفعلون إلا أقبح منها. فأذائكم وذوقكم قد أفسدها فن لا تفهمونه، فليس ثقة بالطبع من تصاوت غير التصادي.

ويزعم السيد «رامو» أن الأصوات الحادة إذا ما كانت على قدر ما من البساطة، فهي توحى بصفة طبيعية بما يقابلها من الأصوات الغليظة، وأن رجلا له أذن مستقيمة وغير متمرسة سينشد بصفة طبيعية هذا الصوت الغليظ. إن هذا لهو حكم مسبق نجده عند الموسيقيين، وتكذّبه كل التجارب. فإن من لم يسمع قط لا صوتا غليظا ولا تصاوتا لن يجد من تلقاء نفسه لا هذا التصاوت ولا ذلك الصوت. وليس ذلك فقط، بل سوف لن تعجبه إذا ما أسمعنا غيها وأنه لسوف يفضل التصادي البسيط كثيرا.

وأنتى يمكننا مهما أنفقنا ألف سنة في حساب نسب الأصوات وقوانين التصاوت أن نجعل من هذا الفن فن محاكاة؟ فأين مبدأ هذه المحاكاة المزعومة وما الذي يعبر عنه التصاوت ثم ما الذي يجمع بين تسويات الأنغام وعواطفنا؟

فلنطرح نفس هذا السؤال عن النغم، إذن سيأتينا الجواب من تلقاء نفسه. فهو في ذهن القراء مستبقا. إن النغم في محاكاته لانعطافات الصوت يعبر عن الآثات وعن صيحات الألم أو الفرحة وعن التواعدات وعن التأوهات. فكل علامات العواطف الصوتية من اختصاصه. فهو يحاكي نبرات اللغات ويحاكي التراكيب التي تناسب في كل لسان مع حركات معينة للنفس. إن النغم لا يحاكي فقط بل يتكلم. ولغته التي لا مقاطع فيها ولكّنها حيّة حارة متلهّفة فيها من الطّاقة مائة مرّة أكثر مما في الكلمة نفسها. ها هنا مولد ما للمحاكاة الموسيقية من قوة. ها هنا مولد ما للغناء على القلوب الحساسة من سلطان وقد يمكن أن يكون للتصاوت بعض القسط في ذلك، بما يربطه في بعض الأنساق من تسلسل الأصوات ببعض قوانين الانتقال من نغمة إلى أخرى، وتقويم النبرات بإشهاد الأذن وتحسيسها بتلك الاستقامة وتقريب

محاولة في أصل اللغات

رائع الانعطافات وتثبيتها على مسافات متساوية ومتصلة. ولكنه بما يضعه من العوائق أمام النغم يجزّده من الطاقة ومن التعبير. فيمحو النبرة المتلهفة ويعوّضها بالمسافة التصاوتية ويخضع إلى مقامين اثنين فقط أناشيد قد كان يمكن أن يكون لنا منها بقدر ما ثمة من النبرات الخطابية، ويمحو ويطمس أعدادا من الأصوات أو من المسافات التي لا تدخل في نسقه. وباختصار فإنه من فرط ما يفصل بين الغناء، والكلمة يجعل هاتين اللغتين تتصارعان وتتعارضان وتجرد كل منهما الأخرى من كل خصائص الحقيقة. فلا يمكنهما أن تجتمعا في موضع مؤثر إلا ويكون ذلك أمرا مضحكا. ذلك هو السبب الذي جعل الجمهور يعتبر أن التعبير عن العواطف المتينة والجدية بالغناء أمر سخيف. لأنه يعرف أن هذه العواطف لا تجد في لغتنا ما يعبر عنها من الانعطافات الموسيقية، وأن رجال الشمال كالتّم لا يموتون وهو يغنون.

إن التصاوت وحده غير كاف حتّى بالنسبة للتعبير التي لا تبدو تابعة إلا له. فالزّعد وخريير المياه والرياح والعواصف لا يمكن أن تؤدّي بمجرد تسويات. ومهما حاولنا فإن الدوي وحده لا يعني شيئا بالنسبة للذهن. لا بدّ أن تتكلم الأشياء لكي نفهمها. لا بدّ دائما في كل محاكاة أن يعوّض نوع من الكلام صوت الطبيعة. يخطئ الموسيقي الذي يريد أن يؤدّي دويا بدوي. وهو لا يعرف من فنه لا القليل ولا الكثير، بل يحكم عليه بدون ذوق وبدون دراية. فلتعلّموه أنه يجب عليه أداء الدويّ بالغناء، وأنه إذا ما أراد أن يجعل الضفادع تنفق فلا بدّ له أن يجعلها تغني، إذ لا يكفيه أن يحاكي بل لا بدّ له أن يؤثر في الناس وأن يعجبهم وإلا لم تكن محاكاته الشاحبة شيئا ولم تحدث أي أثر لأنّها لم تجلب أيّ اهتمام.

الفصل الخامس عشر

في أنّ أحرّ إحساساتنا غالبا ما تؤثر فينا بواسطة انطباعات أدبيّة

ما دام الناس لا يقبلون على اعتبار الأصوات إلا من حيث الاهتزاز الذي تهتز له أعصابنا، فإنهم لن يدركوا المبادئ الحقيقية للموسيقى ولسلطانها على القلوب. فالأصوات داخل النغم لا تؤثر فينا كأصوات فقط ولكن كعلامات لانفعالاتنا ولمشاعرنا. فهي هكذا تثير فينا الحركات التي تعبّر عنها والتي نجد صورتها فيها. واننا لنلاحظ بعض هذا المفعول الأدبي حتى عند الحيوانات، فنباح كلب يجرّ نباح كلب آخر. وإذا سمعني قطّي أحاكي عواء، رايته لحينه متبها محتارا ومضطربا، فلا يدرك أنني أنا قلّدت صوت نظيره حتى يقعد ويطمئن. لم كان هذا الفرق في الانطباع ما دام لم يكن في اهتزاز الحبال الصوتية فرق، وما دام هو نفسه قد اغترّ بذلك منذ البداية؟

إذا لم تكن السلطة القصوى التي لإحساساتنا علينا راجعة لأسباب أدبيّة فلم كنّا إذن حسّاسين بهذا القدر إزاء انطباعات لا معنى لها عند الهمج؟ ولم لم تكن أبلغ قطعنا الموسيقية غير دويّ أجوف في أذن كرايبي؟ هل أعصابه من طبيعة مخالفة لطبيعة أعصابنا؟ لم لا تهتزّ مثلما تهتزّ أعصابنا، ولم كانت هذه الاهتزازات تؤثر في البعض بهذا القدر في حين يتضاءل تأثيرها في البعض الآخر إلى هذا الحدّ؟

جان جاك روسو

يستدلّ على السلطة الطبيعية للأصوات ببرء وخزات الرّتيلاء. وهذا المثال يبرهن على العكس تماما، إذ أن الأصوات التي يستوجبها شفاء كلّ أولئك الذين لمعتهم هذه الحشرة ليست أصواتا في المطلق ولا هي عين الألحان. بل لا بدّ لكلّ واحد منهم من بعض الألحان من نغم يعرفه ومن جمل يفهمها. لا بدّ للإيطالي من ألحان إيطالية وللتركي من ألحان تركيّة فكل واحد من الناس لا يفعل بغير ما يعرف من النبرات ولا تهتّز أعصابه إلا بقدر ما تعدها روحه لأن تهتّز. لا بدّ أن يفهم اللغة التي يكلمونه بها حتى يستطيع الكلام أن يحرك سواكته. ويحكى أن غنائيات بارنبي قد شفين موسيقيا فرنسيّا من الحمى. ولكنّهنّ قد كنّ يصبنه بها لو كان من أمة أخرى.

ويمكن أن نلاحظ هذه الفروق عينها في الحواسّ الأخرى، وحتى في أقلّها رهافة. فما أعجب ما يلاحظه المرء من التغيّر في انطباع إنسان قد جعل يده وبصره على شيء واحد فإذا به يجده على التوالي حيّا فجامدا. فإن الاستدارة واليباض والصلابة وعذوبة الدفء، والمتانة اللينة والانتفاخ الدوري، لا تعطيه ملمسا لثينا بلا طعم، لولا أنه يتقدّ أنه يلمس قلبا مليئا بالحياة يخفق ويدقّ تحت كلّ ذلك.

وإني لا أعلم من بين الحواسّ كلّها إلا حسّا واحدا لا علاقة له بالخلق أصلا: وهذا الحسّ هو الذّوق. ولذلك لم يكن الشره رذيلة مهيمنة إلا عند أولئك الذين لا يحسّون شيئا.

فعلى من يرد التفلسف في قوّة الإحساسات أن يبدأ بأن يفصل عن الانطباعات الحسّية الصّرفة الانطباعات العقلية الأدبّية التي ترد علينا بطريق الحواسّ التي لا تكون الحواسّ إلا أسبابها العارضة. وليتحاش الوقوع في الخطأ المتمثل في أن يسند للأشياء الحسّية سلطانا ليس لها أو سلطانا قد ورد عليها ممّا تمثله لنا من انفعالات النفس. للألوان والأصوات كتمثيلات وعلامات نفوذ كبير علينا، ولها كمجرد موضوعات للحس نفوذ ضئيل. فقد تلهيني حينما تسلسلات من الأصوات أو من التسويات. أما أن تعجبني أو أن تستهويني، فذلك يقتضي أن تعرض علي هذه التسلسلات شيئا ما، لا هو

محاولة في أصل اللغات

صوت ولا هو تسوية، بل شيء يؤثر في رغم أنفي. فحتى الأغاني التي ليس فيها إلا الجمال مملة إذا لم تكن معبرة عن شيء، إذ ليست الأذن هي التي تحمل البهجة إلى القلب بقدر ما أن القلب هو الذي يحمل البهجة إلى الأذن. واني لأظن أننا لو توسعنا أكثر في هذه الأفكار، لتجنبنا الوقوع في الكثير من البراهين الحمقاء المتعلقة بالموسيقى القديمة. ولأكونّ وأهما إن لم تصبح الفلسفة وبالا على الذوق السليم وعلى الفضيلة معا في هذا القرن الذي يجتهد فيه الناس في أن يعتبروا كل أفعال الروح مادية وفي أن يجردوا المشاعر الإنسانية من كل خلق.

الفصل السادس عشر

في التناسب الكاذب بين الألوان والأصوات

لم نغادر الملاحظات الفيزيائية عند اعتبارها للفنون الجميلة أي لون من ألوان العبث، فلقد عثروا في تحليل الصوت على نفس النسب التي في تحليل الضوء. فتنبّوا حينهم في حماس بهذا التناسب من دون مراعاة للتجربة وللعقل. لقد شوّشت الذهنية النسقية كل الأشياء، ولما عجز الناس عن أن يخاطبوا الأذان بالرسم، عمدوا إلى مخاطبة العيون بالغناء. لقد رأيت هذا المعزف الذي يتحدثون عنه، والذي اذعوا أنه بالإمكان أن نستخدمه في إخراج الأصوات الموسيقية بالألوان. إن عدم التفطن إلى أن مفعول الألوان كامن في دوامها وإلى أن مفعول الأصوات كامن في تسلسلها، ليدلّ على معرفة سيّئة جدًا بأحوال الطبيعة.

فالزينة بكل ما تزخر به من المظاهر تنتشر دفعة واحدة على سطح الأرض. وإن المرء ليلمح كل شيء من الوهلة الأولى. ولكنه يزداد فتنة بقدر ما يطيل النظر. فلا يطلب منه إلا أن يظل مفتونا متأملا بلا انقطاع.

وأما الصوت فشأنه غير ذلك. فإن الطبيعة لا تحلّله أبدا ولا تفصل بين قواسمه: بل تخفيها تحت حجاب التصادي، أو هي إن فصلتها أحيانا (مثلما قد يحدث) في تغير نغمات الغناء عند الإنسان أو في ترانيم بعض العصافير، فبجعلها متعاقبة، واحدة بعد واحدة. إنها توحى بالأغاني ولا توحى بالتسويات وتملي علينا أنغامًا ولا تملي تصاوًا. فالألوان زينة الكائنات الجامدة، إذ

كل مادة فهي ملونة: ولكن الأصوات تشير إلى الحركة. فالصوت يشير إلى كائن حاس، والأجسام الحية هي وحدها تغني. عن عزف الشبابة ليس من عمل عازف آلي، بل هو من عمل عازف قد قدر نفخ الهواء فيها وحرك أصابعه (على ثقبها).

وهكذا فلكل حس حقله الخاص به. فحقل الموسيقى هو الزمن، وحقل الرسم هو المكان. ولذلك فالزيادة في ما نسمعه في آن واحد من الأصوات أو تعديد الألوان واحدا بعد الآخر، إنما هو تغيير لاقتصادها، وإحلال للعين محلّ الأذن وللأذن محلّ العين.

تقولون: مثلما أن كل لون فهو محدّد بزاوية انكسار الشعاع الذي يعطيه، كذلك فإن كل صوت فهو محدّد بعدد اهتزازات الجسم المصوت في وقت معلوم. ولما كانت نسب هذه الزوايا هي غير نسب تلك الأعداد، فإن تناسبها واضح. فليكن! ولكن هذا التناسب من طبيعة عقلية لا من طبيعة حسية، وليس الشأن متعلقا بذلك. فأولا، إن زاوية الانكسار محسوسة وقابلة للقياس؛ وليس ذلك هو شأن عدد الاهتزازات. فالأجسام المصوتة تغيّر بلا انقطاع من أبعادها وأصواتها، إذا ما جعلت تحت تأثير الهواء. والألوان فهي تدوم، وأمّا الأصوات فتتطفئ، وليس لنا يقين أبدا بأنّ ما تولّد منها هو عين تلك التي انطفأت. زد على ذلك أن كل لون فهو مطلق مستقل في حين أن كل صوت إنّما هو عندنا نسبي ولا يتميز غلا بالمقارنة فليس للصوت في حدّ ذاته أي خاصية تعرّفنا به. فهو قرار أو جواب، غليظ أو رقيق، بالنظر إلى صوت آخر. وأمّا في حدّ ذاته فهو لا شيء من كل ذلك. وكذلك في النسق التصاوتي، فإن الصوت لا يكون بالطبيعة على أيّ وجه. فهو ليس قراريا وليس غالبا، وهو ليس تصاوّيا وليس أساسيا، لأن كل هذه الخصائص ما هي إلا نسب، ولأنه لما كان يمكن للنسق برمته أن ينتقل من القرار إلى الجواب، فإن كل صوت يغيّر من رتبته ومن مكانه داخل النسق، وذلك كلّما غير النسق من درجته. ولكن خصائص الألوان لا تتمثل البتّة في نسب. فالأصفر بقطع النظر عن الأحمر والأزرق. فهو محسوس ومعروف أينما رايته.

محاولة في أصل اللغات

وما إن نضبط زاوية الانكسار التي تعطيه حتى نتأكد من أننا سنحصل على نفس الصّفرة في كلّ الأزمان.

ليست الألوان قائمة في الأجسام الملونة، ولكنها قائمة في الضوء. فرؤيتنا للشيء تقتضي أن يكون مضاء. كذلك تحتاج الأصوات إلى ما يحملها، وتحتاج في وجودها إلى اهتزاز الجسم المصوّت. وهذا امتياز آخر للرؤية، لأن الطلوع الدائم للكواكب هو الآلة الطبيعية التي تؤثر فيها، في حين أن الطبيعة لا تحدث بمفردها إلا عددا قليلا من الأصوات، ولا بدّ من كائنات حيّة لإحداث التصاوت، اللهم إلا أن نفترض تصاوت الأكر السماويّة.

وإننا لنرى مما سبق أن الرسم أقرب من الطبيعة، وإن الموسيقى أشدّ تعلّقا بالصناعة الإنسانية. وكذلك فإننا نحسّ بأن أحدهما أجلب للاهتمام من الآخر، وذلك بالذات لأنه يقرب الإنسان من الإنسان أكثر مما يفعله الفنّ الآخر؛ ولأنه يمكننا دائما من فكرة عن نظرائنا فغالبا ما يكون الرّسم ميّتا وجامدا. قد يحملكم إلى أعماق صحراء ما. ولكن ما إن تبلغ إلى مسامعكم علامات صوتيّة ما حتى تستشعروا وجود كائن يشبهكم بالقرب منكم. إن هذه العلامات، إذا ما صحّ التعبير، أعضاء الرّوح. وإن هي رسمت لكم لوحة من الوحدة فإنها تعلمكم بأنكم لستم وحدكم فيها. إن العصافير تغرد، وأما الإنسان فهو وحده يغني. ولا يمكن للمرء أن يسمع الغناء ولا أن ينصت إلى السمفونيات إلا ليقول لنفسه في الحين إن كائنا حاشا آخر هو هناك بالقرب منه.

وانه لا امتياز كبير يتمتع به الموسيقي، أن يقدر على تصوير أشياء لا يمكن أن نسمعها، في حين يتعذر على الرسّام أن يتصور تلك التي لا يمكن أن نبصرها. وإن أكبر آيات فن لا يستمد تأثيره إلا من الحركة أنه يقدر على أن يصنع من تلك الحركة صورة الشّكون. فالنّوم وسكون الليل والوحدة وحتى الصمت إنما تدخل كلّمها في لوحات الموسيقى. معلوم أن الدّوي يمكن أن يحدث مفعول الصمت وأن الصمت يمكن أن يحدث مفعول الدّوي، مثلما يقع عندما يأخذنا النوم على صوت قراءة هادئة ورتبية ثم نفيق

على انقطاعها. ولكن تأثير الموسيقى فينا قد يكون أعمق من ذلك عندما
تثير فينا بواسطة حسّ ما عواطف تشبه ما نستطيع أن نثيره منها بواسطة حسّ
آخر. ولما كان لا يمكن أن تكون النسبة محسوسة إلا أن يكون الانطباع
قويًا، فلقد تعذّر على الرسم لما كان مجردًا من هذه القوّة أن يقلّد الموسيقى
بمثل ما تقلّده هي. فلتنطع الطبيعة كلّها في التّوم، لن يرقّد الذي يتأمّلها،
وفنّ الموسيقى أن يعوّض صورة الشيء الجامدة بصورة الانفعالات التي
تثيرها حضرته في قلب من يتأمل. فما هو بمقتصر على أن يهزّ مياه البحر وأن
يذكّي نيران حريق، وأن يجري مياه الجداول، وأن ينزل المطر ويستجرف
السيول، ولكنه سيصوّر إلى كل ذلك فظاعة صحراء موحشة، أو يزيد في
كآبة جدران سجن داموسي، أو يهدّئ من العاصفة، أو يبيّث في الهواء هدوءًا
وسكينة، فينشر من الأوركسترا نسيمًا جديدًا على البساتين. لن يصوّر هذه
الأشياء عينها، ولكنه سيثير في النفس المشاعر التي نحسّ بها عندما نراها.

الفصل السابع عشر

في خطأ من أخطاء الموسيقيين، مضرّ بفنّهم

انظروا كيف يدعونا كل شيء إلى العودة إلى التأثيرات الأدبية التي تحدثت عنها. وانظروا مدى ما يخطئ الموسيقيون الذين لا يعتبرون قوة الأصوات إلا من حيث تأثير الهواء واهتزاز الأوتار، ومدى بعدهم عن إدراك ما تتمثل فيه قوة هذا الفن. فبقدر ما يقربونه من الانطباعات الحسية يبعدونه عن أصله وينقصون من طاقته الأولية. وعندما تغادر الموسيقى الثبرة الخطائية ولا تتشبث إلا بالاصطناعات التصاوتية، فإنه يتزايد ما لها من الدوي في الأذن وتتناقص حلاوتها في القلب. لقد سكنت بعد عن الكلام، وقريبا تسكت عن الغناء، فلا يكون لها إذ ذاك بكل ما لها من التسويات وما لها من التصاوت أيّ تأثير فينا.

الفصل الثامن عشر

في أنه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي أي نسبة إلى نسقنا

كيف حدثت هذه التغيرات؟ لقد حدثت بموجب تغيّر طبيعي في خاصيّة اللغات. فمعلوم أن تصاوتنا هو اختراع قوطي؛ وإن أولئك الذين يزعمون أن نسق اليونانيين قائم في نسقنا ليسخرون متًا. فلم يكن ثمة في نسق اليونانيين من التصاوت بالمعنى الذي عندنا إلا ما كان لازماً لتسوية الآلات بحسب تساوقات صوتيّة كاملة. فإن كل الشعوب التي لها آلات وترية مضطّرة على تسويتها بواسطة تساوقات صوتيّة. ولكن الشعوب التي ليس لها هذه الآلات، لها في أغانيها انعطافات صوتيّة لا نعتبرها نحن صحيحة لأنها لا تلائم نسقنا ولأننا لا نستطيع ترقيمها. ذلك ما لوحظ في أغاني متوحشي أمريكا، وذلك ما كان يجب ملاحظته في مسافات مختلفة من الموسيقى اليونانيّة لو درست تلك الموسيقى بأقلّ تحيزاً لموسيقانا.

لقد اعتاد اليونانيون قسمة رسومهم البيانيّة إلى رباعيات مثلما نقسم مدوّناتنا إلى دواوين. وكانت تلك القسمات عينها تتجدّد عندهم بكل دقّة عند كل رباعيّة، مثلما تتجدّد عندنا في كل ديوان. وما كان ليتمكنهم أن يحتفظوا بها التماثل لو تعلّق الأمر عندهم بوحدة المقام التصاوتي، بل وما كان ذلك ليخطر بخيالهم أصلاً. ولكن لما كانت المسافات التي يمرّ بها المرء إذ يتكلّم أصغر من تلك يمرّ بها إذ يغني، فلقد كان طبيعيّاً أن ينظروا

في تجدد الرباعيات داخل نغمهم الكلامي، مثلما ننظر في تجدد الدواوين داخل نغمنا التصاوتي.

إن التساوقات الصوتية الوحيدة التي اعترفوا بها هي تلك التي نسميها تساوقات تامة، فطرحوا من عددها الثلاثيات والسداسيات. لماذا؟ إن تحليل ذلك هو أنهم لما كانوا يجهلون مسافة البعد الصغير أو على الأقل لما كان ذلك محظور الممارسة عندهم، ولما كانت تساوقاتهم الصوتية غير معدلة أصلا، فلقد كانت كل ثلاثياتهم الكبرى زائدة بفاصلة وكل ثلاثياتهم الصغرى نازلة بنفس القدر، وبالتالي فلقد كانت سداسياتهم الكبرى والصغرى تتغير كل واحدة فيما يخصها بنفس الوجه. فليتحيل المرء الآن ما يمكنه الحصول عليه من مفاهيم التصاوت وما يمكنه إقامته من المقامات التصاوتية بواسطة استبعاد الثلاثيات والسداسيات من عدد التساوقات الصوتية. فلو كانت تلك التساوقات الصوتية التي يقبلونها معروفة عندهم بفعل حس تصاوتي حقيقي لجعلوها على الأقل ضمنية تحت أغانيهم، ولأعطي التساوق الصوتي للدرجات الأساسية اسمه لما كانت تلك الدرجات توحى به من الدرجات الابعادية؛ وهكذا كان يكون لليونانيين أكثر مما لنا من التساوقات الصوتية ولا يكون لهم أبدا أقل مما لنا. بل لعلهم كانوا، إذ يتعرضون مثلا إلى الدرجة الغليظة ut sol يسمون الثنائية ut ré باسم التساوق الصوتي.

ولكن قد يتساءل البعض عن سبب وجود الدرجات الأبعادية. سنجيب بأن ذلك راجع إلى غريزة تحملنا على أن نختار في لغة ذات نبر وشادية أيسر ما فيها من الانعطافات الصوتية. فبين ما تحتاجه الزردمة من التغيرات الكبرى لتصح باستمرار بكبرى مسافات التساوقات الصوتية، وبين صعوبة تعديل الأداء في ما اشتد تعقيده من نسب المسافات الأصغر، عمد العضو (الناطق) إلى وضع وسط ووقع بطبعه على مسافات أصغر من التساوقات الصوتية وبسط من الفواصل؛ وهو ما لم يمنع مسافات أصغر من تلك من أن تستخدم في ألوان بلاغية أكثر عاطفية (من الكلام العادي).

الفصل التاسع عشر

في كيف انحطّت الموسيقى

على قدر ما كانت اللغة تستكمل ذاتها، كان النغم بما يفرض على نفسه من القواعد، يفقد من طاقته القديمة من حيث لا يشعر، وكان حساب المسافات يعوّض رقة الانعطافات فهكذا مثلاً انقرضت ممارسة اللون التجانسي رويداً رويداً. وعندما أصبح للمسارح شكل منتظم، لم يعد الموسيقيون يغنون فيها إلا على مقامات موصوفة. وعلى قدر ما كانت قواعد المحاكاة تتعدّد، كانت لغة المحاكاة تنضّال.

ان دراسة الفلسفة، وتقدّم صناعة البرهان بما حسّناه من صناعة النحو، قد جرّدا اللغة من تلك النبذة الحارّة والعاطفيّة التي كانت جعلتها في البداية على قدر من الفتنة. فمنذ عصر «نياليب» و«فيلوكسان»، استقلّ السمفونيون عن الشعراء بعد أن كانوا خدماً لهم وبعد أن كانوا لا يشتغلون إلا تحت إشرافهم وتحت إملائهم ان صيخ التعبير. ان انحلال تلك الرابطة هو ما تشتكي منه الموسيقى بكل تلك المرارة في إحدى مسرحيات فيريقرطس، احتفظ لنا منها فلوتاركس بذلك المقطع. وهكذا فعندما لاح أن الموسيقى لم تعد ملتزمة بالقول، بدأ أنزواؤها من حيث لا تدري إلى حياة منعزلة، وأضحت الموسيقى أكثر استقلالاً عن الكلمات. إذ ذك انقطعت كذلك شيئاً فشيئاً تلك العجائب التي كانت أعطتها عندما لم تكن نبرة الشعر وتناغمه، وعندما كانت تمنح للشعر على العواطف سلطاناً لم تعد الكلمة من بعد ذلك تمارسه إلا على العقل. لذلك فما كادت اليونان تمتلئ سفاسطة وفلاسفة حتى

جان جاك روسو

غاب عن الأنظار الشعراء والموسيقيون العظام. لقد فقد الناس فن التأثير لانهم اعتنوا بفن الإقناع. ولقد عمد «أفلاطون» بنفسه، لفرط غيرة من «هوميروس» ومن أوريبيد، إلى ذم هذا ولم يقدر على محاكاة ذاك.

وسرعان ما انضاف إلى تأثير الفلسفة تأثير العبودية. لقد فقدت اليونان، وهي في الأغلال، ذاك القبس الذي لا يبعث الدفء بغير النفوس الحرة؛ ولم تعد تجد لمدح طغاتها تلك النبرة التي كانت تمدح بها أبطالها. وزاد الاختلاط بالروم في انهارك ما بقي للغة من التناغم ومن التبر. فلقد أضرت اللاتينية بالموسيقى بتبنيها لها، وذلك لأنها لغة أصم من اليونانية وأقل موسيقية منها. مكا عكر ما كان رائجا في العاصمة من الغناء ما بقي منه في الولايات، وأساءت مسارح روما إلى مسارح أثينا. وفي الوقت الذي كان فيه نيرون يغنم الجوائز، انقطعت جدارة أثينا بها. فإذا التغم عينه، قد قسّم على اللغتين، فأسمى أقلّ ملاءمة لهذه ولتلك.

وأخيرا حدثت الفاجعة التي زلزلت تقدّم الفكر البشري من غير أن ترفع عنه ما ولّده من الرذائل: لقد فقدت أوروبا، عندما اجتاحتها الهمج واستعبدها الجهلة، فقدت في الآن نفسه علومها وفنونها وفقدت الآلة الكلية التي تستخدمها هذه وتلك، وأقصّد اللغة المتناغمة والمكمّلة. لقد روّض هؤلاء الرجال الأجلاف الذين أنجبهم الشمال كل الأذان على خشونة لسانهم. لقد كانت لغتهم الغليظة التي لا نبر فيها داوية من غير أن تكون رنانة...

ولقد كان «الإمبراطور جوليان» يقارن كلام الغليين بنقطة الضفادع. فلقد كان في كل مقاطعهم من الخشونة بقدر ما كان في أصواتهم من الخنين والصّم. فما كان بوسعهم أكثر من أن يضيفوا على غنائهم ضربا واحدا من الجمال بأن يشدّدوا على المصوّتات مخفين بذلك كثافة الصوامت وخضونتها.

ان هذا الغناء الصّاخب الذي اقترن بعدم مطواعيّة العضو، قد أجبر هؤلاء القادمين الجدد والشعوب التي استولوا عليها فلقدّتهم، على أن يتمهلوا في

محاولة في أصل اللغات

إخراج الأصوات حتّى يسمعوها لغيرهم. ان عسر النطق وتشديد الأصوات ساهما أيضا في إفراغ النغم من كل الإحساس بالوزن والإيقاع. ولما كان أعسر ما في النطق هو دائما الانتقال من صوت إلى صوت، فلم يكن عند الناس أحسن من أن يقفوا عند كلّ صوت بأقصى ما يمكن، وأن ينفخوا فيه وأن يفتجروه على قدر طاقتهم. وسرعان ما أصبح الغناء مجرد تسلسل بطيء ومملّ من الأصوات الفاترة أو الصارخة التي لا حلاوة فيها ولا وزن ولا لطف. ولئن قال بعض العلماء بضرورة مراعاة المصوتات الممدودة والمصوتات القصيرة في الغناء اللاتيني، فإنّه من المؤكّد على الأقلّ أنهم قد غنّوا أبيات الشعر كما لو كانت نثرا وأن الأمر لم يعد متعلّقا عندهم لا بمفاصل البيت الشعري ولا بإيقاعه ولا بأيّ نوع من أنواع الغناء الموزون.

وهكذا آل الأمر بالغناء، بعد أن جرّد من كل نغم، وبعد أن أصبح منحصرًا في قوّة الأصوات وفي مدّتها الزمنية إلى أن أوحى بوسائل جعله أكثر رتّة بواسطة التساوقات الصوتية. وصورة ذلك أن جملة من الأصوات ما انفكت ترافق تصادي أصوات غير محدودة المدّة، قد اهتدت صدفة إلى بعض التسويات التي أحدثت من الصخب المتزايد ما بدا فاتنا: هكذا ابتدأت ممارسة المسايرة اللحنية والطباق اللحني.

واني لأجهل عدد القرون التي استغرقها جدال الموسيقيين حول مسائل فارغة إنما حملهم على إثارتها مفعول معروف لمبدأ مجهول. وإن أشدّ القراء صبرا لن يصبر على الهذر الذي يتواصل في كتاب جون دي موريس على امتداد ثمانية فصول أو عشرة، لكي يذكر هل أن الخماسيّة هي التي يجب أن تكون قرارا في مسافة الديواهن المقسومة إلى تساوقين صوتيّين، أم هل هي الرباعية. وإننا لنجد مرّة أخرى، وبعد أربعمئة سنة تعديلات لا تقلّ اضجارا عن سابقتها ويخصصها بونتامي لكل الدرجات الغليظة التي لا بدّ أن تحمل السداسيّة عوضا عن الخماسيّة. ولكنّ التصاوت قد سار شيئا فشيئا على الطريق التي رسمها له التحليل إلى أن تمّ للمقام الصغير وللتنافرات الصوتية

أن تقحم فيه التحكم الذي يعي به، والذي لا يمنعنا من رؤيته إلا الحكم المسبق¹.

فلما تم نسيان النغم، وتم تحوّل انتباه الموسيقي كلياً نحو التصاوت، تركّز كل شيء رويدا رويدا على هذا الشيء الجديد. فأصبح للأجناس وللمقامات وللطبقة ولكل شيء وجه جديدة: فلقد قامت التسلسلات التصاوتية بتعديل ترددات القطع. ولما استولت هذه الترددات على اسم النغم، لم يكن بالإمكان أن نتجاهل في هذا النغم الجديد ملامح الأم التي ولدته. ولما تم لنسقنا الموسيقى أن أصبح هكذا شيئاً فشيئاً نسقاً تصاوياً صرفاً، فليس من العجيب أن يكون نسق كلامنا قد تضرّر منه، وأن تكون الموسيقى قد فقدت عندنا كل طاقتها.

هكذا أصبح الغناء رويدا رويدا فناً تاماً الانفصال عن الكلمة التي هو منها. وهكذا أنستنا مصاوتات الصوت انعطافات الصوت، وهكذا أخيراً وجدت الموسيقى نفسها، لما كانت محصورة في المفعول الحسي الصرف لتعاضد الاهتزازات، محرومة مما خلّفته من الآثار الأدبية عندما كانت صوت الطبيعة مرتين.

1- يؤسس السيد «رامو»، بارجاعه كل التصاوت إلى هذا المبدأ البسيط الذي هو تصويت الأوتار في المنازل الناقية التي تنقسم إليها، يؤسس المقام الصغير وتنافر الأصوات على تجربته المزعومة التي تبين أن الوتر المصوّت يهتز عند الحركة أوتاراً أخرى أطول منه وذلك إلى حدّ درجته الكبرى الثانية عشرة والسابعة عشرة قراراً. وحسب رأيه فإن هذه الأوتار تهتز على كامل طولها ولكنها لا تصوت. هي ذي، فيما يبدو لي، فيزياء فريدة، لكننا نقول أن الشمس تلمع ولكننا لا نرى شيئاً. إن هذه الأوتار، لما كانت لا ترجع الأصوات الدرجة الأحد، لأنها تنقسم وتهتز وتصوت عند تصاديهما، تدغم صوت هذه الدرجة بصوتها هي فتبدو وكأنها لا ترجع أي صوت. إن الخطأ يتمثل في الظن بأننا نرى هذه الأوتار تهتز على كامل طولها، وفي عدم ملاحظة العقد ملاحظة جيّدة، إن وترين مصوتين مكونين لمسافة تصاوتية ما، يمكنهما أن تسمعاً صوتهما الأساسي قراراً، حتى إذا ما لم يكن ثمة وتر ثالث. وهذه هي تجربة تاريني المعروفة والمؤكدة. ولكن الوتر إذا كان بمفرده ليس له من صوت أساسي غير صوته، وهو لا يجعل الأوتار الأخرى تصوت أو تهتز، بل تصاديه ومنازله. ولما لم يكن للصوت من سبب غير اهتزازات الجسم المصوت، ولما كان السبب كلما مارس سببته بحرية، تلاء، دائماً المفعول، فإن فصل الاهتزازات عن التصويت هو عبث.

الفصل العشرون

في نسبة اللغات إلى الحكومات

لم تحصل كلّ مظاهر التقدّم هذه اتفاقاً أو تحكّماً. بل هي مرتبطة بتقلب أحوال الأشياء. فاللغات تتكون بالطبع من حاجات البشر، وهي تبدّل وتتغير بحسب تبدّل الحاجات عينها. ففي الأزمة القديمة، عندما كان الإقناع بمثابة القوة العامة، كانت الفصاحة ضرورية فما فائدتها اليوم وقد حلّت القوة العامة محل الإقناع؟ فليس يحتاج المرء إلى فنّ أو غلى صورة لكي يقول: ذلك ما يرضيني. فأيّ الخطب باقية إذن لتلقى على مسامع الجمهور المتجمّع؟ هل هي المواعظ؟ وما شأن أولئك الذين يلقونها بإقناع الجمهور، ما دام الجمهور ليس هو الذي يعين من يتمنّع بالامتيازات؛ لقد صارت اللغات الشعبية عندنا عديمة الفائدة تماماً بقدر عدم فائدة الفصاحة. لقد أدركت المجتمعات شكلها النهائي، فلا يمكن للمرء أن يغيّر فيه شيئاً إلا بالمدفع والزبالات، ولما لم يعد لنا ما نقوله للجمهور فيما عدا: «هاتوا المال!»؛ فإننا نقوله بواسطة خزائن نجعلها في زوايا الأنهج، أو بواسطة الجنود في البيوت. فلا يجب أن نجمع أحداً لهذا الغرض. بل لا بدّ على العكس من ذلك أن نفرّق بين الرعايا، فتلك أولى قواعد السياسة الحديثة.

ثمّة لغات تساعد على الحرّية، وهي اللغات الرنانة والموزونة والمتناغمة التي يمكن أن نميّز ما يقال فيها من بعيداً جدّاً. أما لغانا فقد جعلت لطنين الدواوين. إن دعائنا يعذبون أنفسهم، ويتصبّب العرق منهم سيولاً في المعابد، من غير أن نعرف شيئاً ممّا قالوا. وإنهم، بعد أن ينهكوا أنفسهم صراخاً لمدة

ساعة كاملة، ليخرجون من الأريكة أنصاف موتى. وأكد أن الأمر ما كان يستحق كل هذا العناء.

وعند القدماء، فقد كان المرء يبلغ صوته بسهولة إلى الجمهور في الساحة العامة، وكان يتكلم يوما كاملا فلا يتحرّج. لقد كان القواد يخطبون في جيوشهم فكانوا يسمعون وما كانوا ينهكون أبدا. ولكن المؤرخين المحدثين الذين أرادوا إدراج تلك الخطب في توارخهم قد استهزئ بهم. فلتخيل رجلا يخطب بالفرنسية في جمهور باريس في ساحة فاندوم. فليصرخ ملء شديقه. سيسمعون أنه يصرخ، ولكنهم لن يميزوا كلمة واحدة. لقد كان «هيرودوتس» يقرأ تاريخه على جماهير اليونان المجتمعة في الهواء الطلق، وكان كل شيء يدوي بالتصفيق.

أما اليوم، فإن الأكاديمي الذي يقرأ رسالة في يوم تجمّع عام، لا يكاد يسمع في طرف القاعة. وإذا كان دجالو الساحات أقل في فرنسا منهم في إيطاليا، فليس ذلك لأن الاستماع عليهم في فرنسا أقل ممّا هو في إيطاليا، ولكن ذلك راجع إلى أنه لا يستمع إليهم جيّدا. ويظنّ السيد دالمبار أنه بالإمكان أن نعرض الإلقاء الفرنسي على الطريقة الإيطالية. إذن لا بدّ من عرضه على الأذن، وإلا لم نسمع شيئا.

ولكنّي أقول أن كل لغة لا يمكننا أن نبلغ بها صوتنا إلى الجمهور المتجمّع، هي لغة عبودية. وليس يمكن لأي شعب أن يظل حرا وأن يتكلم تلك اللغة في نفس الوقت.

سأنهي هذه التأملات السطحيّة، التي يمكنها مع ذلك أن تولّد تأملات أعمق منها، بذكر المقطع الذي أوحى لي بها:

«لعلّه يكون مادّة نظر فلسفي بعيد أن نلاحظ في الواقع وأن نبين بواسطة أمثلة، كيف أن طبع شعب ما وعاداته وهمومه تؤثر في لغته»¹.

1- ملاحظات حول النحو العام والمعقول، بقلم السيد «دولكو»، ص: 2

ثبت المصطلحات العام

عربي - فرنسي*

A

Académie	مجمع
Accent	النبرة
Accord	التسوية
Administration	إدارة
Administration de l'Etat	إدارة الدولة
Administration des biens	إدارة الأملاك
Administration des finances	إدارة المالية
Administration publique	إدارة عمومية
Amende	غرامة
Articulation	التفصيل - التقطيع
Assemblée	مجلس
Autorité politique	سلطة سياسية

B

Barbares	متوحشون
Bel esprit	فكر ظريف
Belle action	عمل جليل
Bon goût	ذوق سليم

C

Cens	جباية
Chant	الغناء

*- أثبتنا المصطلحات الواردة في محاولة في أصل اللغات بالخط الغليظ.

Clavier	المفتاح
Comma	الفاصلة
Confédération	تحالف
Conscience	ضمير
Consonnance	التساوق الصوتي
Consonne	الصامت، الحرف الصامت
Contrepoint	الطباق اللحني
Contributions	ضرائب
Corps politique	جسد سياسي
Corrompre	أفسد
Corrompu	فاسد

D

Délibération publique	مداولة عمومية
Denrées	محاصيل زراعية
Diagramme	الرسم البياني
Discant	المسايرة اللحنية
Dissonnance	التافر الصوتي
Dette	دين
Domaine public	ملك عمومي - أملاك عمومية

E

Economie	اقتصاد
Economie domestique	اقتصاد منزلي
Economie politique	اقتصاد سياسي
Economie publique	اقتصاد عمومي
Eloquence	فصاحة

F

Famille	أسرة - عائلة
Finances publiques	مالية عامة
Fisc	مالية - خزينة الدولة - بيت المال
Fonds	رصيد (مالي)

Fonds publics

أموال عمومية

Funeste

مشؤوم - نحس

G

Genre enharmonique

اللون التجانسي

Gens de bien

رجال صالحون

Gens de lettres

أصحاب الأفلام

Glotte

الزردمة - الحنجرة

Gosier

الحنجرة

Gloire

مجد

Gouvernement

حكومة - تدبير

Gouvernement civil

تدبير المدينة

Gouvernement de l'Etat

تدبير الدولة

Gouvernement de la famille

تدبير الأسرة

Gouvernement de la maison

تدبير المنزل

Gouvernement domestique

تدبير منزلي

H

Harmonie

التصاوت

I

Impôt

ضريبة - جباية

Inflexion

الانعطاف

Intervalle

المسافة

J

Jeu de paume

لعبة الراحة

L

Langue

اللغة - الكلام - اللسان

Législateur

مشرّع

Lettres

آداب

Ligue

عُصبة

Lumières

أنوار

M

Magistrat	حاكم
(Premier) Magistrat	صاحب السلطة
Magistrature	حُكم
Marche dialonique	الدرجة الابعادية
Marche fondamentale	الدرجة الأساسية
Mélodie	النغم
Mélodie harmonique	النغم التصارقي
Mélodie orale	النغم الكلامي
Métaphore	المجاز
Métropole	عاصمة
Mode	المقام
Mode majeur	المقام الكبير
Mode mineur	المقام الصغير
Modification	التغاير
Mœurs	أخلاق - طبائع
Monarchie	مملكة - سلطنة
Muses	ربّات الفنّ

N

Nation	أمة
Notation	الترقيم

O

Octave	الديوان
Oisif	عاطل
Onomatopée	الحاكية الصوتية
Oracle	كاهن (وسيط روحي)

P

Palais	الحنك
Passions	الأنواء - العواطف

Patrie	وطن
Père de famille	رب العائلة
Politesse	أدب - لياقة
Prosodie	العروض
Pudeur	حياء

Q

Questeur	مراقب المالية
----------	---------------

R

République	جمهورية
Rythme	الايقاع

S

Sénat	مجلس الشيوخ
Sénateur	مستشار
Son	الصوت
Sonorité	الرّة - التصويت
Souveraineté	سيادة
Spectacle	مشهد
Subsides	إتاوة
Système	النسق

T

Taille	ضريبة - جباية
Taille réelle	ضريبة عينية - جباية عينية
Taxe	ضريبة
Taxe par tête	ضريبة على الأفراد
Taxe personnelle	ضريبة شخصية
Taxe réelle	ضريبة عينية
Tétracorde	الرباعية
Ton mineur	البعد الصغير
Tudesque	جرماني

U

Urbanité

أدب - كياسة

V

Vertu

فضيلة

Vice

رذيلة

Volonté générale

إرادة عامة

Voyelle brève

التصويت (المصوّت) القصير

Voyelle longue

التصويت (المصوّت) الممدود

الفهرس

5.....	توطئة
9.....	مقال في العلوم والفنون
13.....	تنبيه
15.....	توطئة
17.....	المقال
19.....	الباب الأول
31.....	الباب الثاني
45.....	مقال في الاقتصاد السياسي
87.....	محاولة في أصل اللغات
91.....	تصدير المترجم
99.....	محاولة في أصل اللغات
101.....	الفصل الأول : في مختلف وسائل تبليغ أفكارنا
107.....	الفصل الثاني : في أنّ أول اختراع للكلام ليس ناتجا عن الحاجات بل عن الأهواء
109.....	الفصل الثالث : لابد أنّ اللغة الأولى قد كانت مجازية
111.....	الفصل الرابع : في الخصائص المميزة للغة الأولى، وفي التغيرات التي لابد أنّها مرّت بها

الفهرس

113	الفصل الخامس : في الكتابة.....
	الفصل السادس : هل من المحتمل أن «هوميروس» قد كان يعرف
119	الكتابة.....
121	الفصل السابع : في العروض الحديث.....
127	الفصل الثامن : إختلاف أصل اللّغات عموما ومحليًا.....
129	الفصل التاسع : تكوّن اللّغات الجنوبيّة.....
143	الفصل العاشر : تكوّن لغات الشّمال.....
145	الفصل الحادي عشر : تأملات في هذه الاختلافات.....
147	الفصل الثاني عشر : أصل الموسيقى ونسبها.....
151	الفصل الثالث عشر : في التّغم.....
155	الفصل الرابع عشر : في التّصاوت.....
	الفصل الخامس عشر : في أن أحرّ إحساساتنا غالبا ما تؤثر فينا بواسطة انطباعات
159	أدبيّة.....
163	الفصل السادس عشر : في التّناسب الكاذب بين الألوان والأصوات.....
167	الفصل السابع عشر : في خطأ من أخطاء الموسيقيّين، مضرّ بفنّهم.....
	الفصل الثامن عشر : في أنّه لم يكن لنسق اليونانيين الموسيقي أيّ نسبة إلى
169	نسقنا.....
171	الفصل التاسع عشر : في كيف انحطّت الموسيقى.....
175	الفصل العشرون : في نسبة اللّغات إلى الحكومات.....
177	ثبت المصطلحات العامّ.....

